بلاغة الكُتّاب

في العصر العباسي

دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب

تأليف

دكتور محمد نبيه حجاب

الأستاذ بقسم الدراسات الأدبية العليا بكلية اللغة العربية
جامعة أم القرى بمكة المكرمة

الطبعة الثانية

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

بلاغة الكتاب

في العصر العباسي

دراسة تحليلية نقدية لتطور الأساليب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حظي الشعر، من الدراسة، بعناية الكثيرين، قدامى ومحدثين. . أما النثر، وهو ثمرة الأقلام، فلم تنشط له أقلام الباحثين إلا قليلاً، لأنه - كما نرى - وعر المسالك، صعب المرتقى. . ومن ثم ظل الكثير من جوانبه، مطويَّ الصفحة، مجهول الأفق، مظلم الحواشي.

لهذا آثرته بالدراسة، وأفرغت فيه جهدي، علني بذلك أصل منه رحماً مجفوّة، وأقضي له حقاً حان قضاؤه. . . هو حق البحث العلمي المقدس.

* * *

ولما كنت معنياً «بالمدارس الكتابية في العصر العباسي» منذ أزمان، وأسند إليّ تدريسها (بكلية الآداب - بجامعة الخرطوم)، صادف ذلك هوى في نفسي، وجعلتها ميدان البحث الأصيل.

ولكي يتضح أمرها، رجعت بها إلى نشأتها الأولى، فوجدت لها ظلالاً فنية في الجاهلية وفجر الإسلام، وهذا ما أنكره الكثيرون. . . بل رجعت بها أيضاً إلى نشأتها الخطية، من حيث إنها قيد لها، وعامل من عوامل نموها وذيوعها. . .

وفي «تمهيد» موجز سايرت هذا الفن الإنشائي من مهده إلى رشده، حتى بلغت به العصر العباسي، حيث التيارات الأدبية المختلفة التي تموج بها مختلف الرسائل، ومن خلالها لاحت معالمُ المدارس، واضحةً جليةً، بعد مزيد من

التقصيّ لها، واستقراء أساليبها، واستخلاص خصائصها البلاغية. . . ، وعلى هذا النهج من الدراسة نظمت كل كاتب في طبقته، وألحقته بمدرسته.

على أن مصرع عبد الحميد الكاتب بمقدم العباسيين ما كان ليمنعني أن أفرد له مدرسة عباسية أصيلة، تفصّح بطريقتها أعلام القرنين الثاني والثالث ومن بينهم شيخ الكتاب أبو عثمان الجاحظ. . . ؛ فإن طريقته لم تمت بموته، بل بقيت على الأيام تمد أقلام الكتاب حتى في عصر السجع والبديع. .

وقد اقتضاني هذا البحث، على هذا النحو، الذي سايرت فيه الأساليب المتطورة. وسبرت غورها، وتعرضت لنقدها، والكشف عن خصائصها وعواملها، وإرهاصاتها ـ اقتضاني ذلك كله أن أصدره (بمدخل بلاغي) يجمع ـ على إيجازه ـ بين مختلف العوامل التي من شأنها أن تؤثر في الأساليب وتطبع الأدباء بطابعها. . ؛ ليستند الحكم دائماً إلى أصل من الحق أصيل.

(وبعد) فإذا كان للمحاولات السابقة في هذا المجال، على قلتها، فضل إظهار هذا البحث، تأييداً أو معارضة، بل ربما كانت المعارضة أقوى وأظهر، فإن الفضل الأكبر في ذلك يرجع إلى صاحب (الفن ومذاهبه) الذي احتكمت إليه في كثير من المواقف الحاسمة، وإن اختلفنا خطة ومنهجاً، ولكل وجهة هو موليها، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. . .

المعادي في مايو ١٩٦٥ — محمد نبيه حجاب

مدخل

فنّ التعبير

حريّ بنا ـ قبل الكشف عن بلاغة الكتّاب، وبيان مذاهبهم الأدبية في العصر العباسي ـ أن نحدد أولاً معنى البلاغة، كفن أدبي رفيع، تبدو سماته في ثمار القرائح، وتتجلى على أسلات الأقلام؛ لنرى ـ ونحن ننظر في آثارهم ـ إلى أي المذاهب ذهبوا؟ وفي أي المدارس نشأوا؟ وإلى أي حد وفّقوا أو أخفقوا..؟

وحريّ بنا أيضاً ـ ونحن نجول في عصر الكتابة ـ أن نقدم للبحث بمختلف العوامل الحسية والنفسية، التي من شأنها أن تقوّم من شخصية الأديب، وتربي ذوقه، وتؤثر في فنه وأسلوبه.

... كل هذا. لنفهم روح الكاتب في ظل بيئته، مقترناً بحاضرها وغابرها؛ حتى نزنه بميزان النقد عن بيِّنة، وننظمه في طبقته على بصيرة...

* * *

«وبعد» فما هي البلاغة؟ وما مقوّماتها؟ وما الذوق الفني؟ وبم يتأثر؟ ثم ما هي «الشخصية الأدبية»؟ وما أثرها في الذوق والأسلوب؟... وأخيراً ما موقفنا من هذه القضية المزمنة... قضية «اللفظ والمعنى»؟

حدود البلاغة:

البلاغة لغة: الوصول والانتهاء. يقال: بلغ المكانَ بلوغاً إذاً وصل إليه..

سميت بـذلـك ـ كـما يقـول العسكـري[1] ـ لأنها تنهي المعنى إلى قلب السـامـع فيفهمـه. وبلغ الغلامُ إذاً أدرك، ورجـل بليـغ: أي فصيـح يبلغ بعبـارتـه كنـه ضميره.

واصطلاحاً: قد تكون وصفـاً للكلام، وقـد تكون وصفـا للمتكلم؛ فبلاغـة الكلام: مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته[2].

وبلاغة المتكلم: قـدرته عـلى إنشاء كـلام بليغ في المعنى المـراد[3]...؛ فمن كانت لديه ملكة يقتـدر بها عـلى إجادة الإنشـاء، كان من أمـراء البلاغـة، ومن أعـرب عن قصده، وجـلّى عن نفسه؛ بقلم بليـغ، وأسلوب رفيع... كـان من «أعلام الكتابة».

* * *

سُئل بعض البلغاء: ما البلاغة؟ فقال: قليل يُفهم، وكثير لا يُسأم.

وقال آخر: البلاغة؛ أن تُفهم المخاطب بقدر فهمه، من غير تعب عليك.

وقيل: البلاغة: القدرة على البيان مع حسن النظام.

وقيـل: لا يكون الكـلام يستوجب اسم البـلاغة حتى يسـابق معنـاه لفـظَه، ولفظُهُ معناه، ولا يكون لفظه أسبقَ إلى سمعك من معناه إلى قلبك.

وقال خلف الأحمر: البلاغة: لمحة دالة.

وقال الخليل بن أحمد: البلاغة؛ كلمة تكشف عن البقية.

---

(١) كتاب الصناعتين (ط الخانجي) ص ٦.

(٢) الحال: هو الأمر الذي يدعو الأديب أن يورد عبارتـه على صـورة مخصوصـة، من حيث الإيجاز أو الإطناب، أو الذكر أو الحذف...

والمقتضى: هو الصورة المخصوصة التي تأتي العبارة على وفقها

«فـالمدح» مثـلاً حال تقتضي الإطنـاب، وإيراد الكـلام مـطنبـاً في هـذا المقـام هـو الصـورة التي تقتضيها هذه الحال.

(٣) فمن عرف قواعد البلاغـة من غير أن يحسن تـطبيقها، كـان يوجـز في مقام الإطنـاب، أو يضمر في مقام الإظهار، أو يحذف حيث يجب الذكـر... ... ... لم يكن بليغاً ذا ملكـة قادرة عـلى الإنشاء الفني.

وقال المفضل الضبي: قلت لأعرابي: ما البلاغة عندكم؟ فقال: الإيجاز من غير عجز، والإطناب من غير خطل[١].

وقال ابن المعتز: البلاغة: بلوغ المعنى ولمّا يطل سفر الكلام.

وقال الثعالبي: خير الكلام ما قل ودل، وجل ولم يمل... وأبلغ الكلام ما حسن إيجازه، وقل مجازه، وكثر إعجازه، وتناسبت صدوره وأعجازه.

وقال الأصمعي: البليغ: من طبّق المفصلَ، وأغناك عن المفسّر.

* * *

أحاط ابن رشيق في كتابه «العمدة» بكل هذه التعاريف، وبأكثر منها.. كما فعل ذلك من قبل أبو هلال العسكري في كتابه «الصناعتين»[٢].. على أن أول من عمد إلى جمعها أبو عثمان الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ في كتابه «البيان والتبيين»... وهو لم يكتف بما قالته العرب؛ بل أشار أيضاً إلى ما أثر عن العجم في هذا الصدد.. ومن ذلك:

قيل للفارسي: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الفصل والوصل.

وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ فقال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام.

وقيل للرومي: ما البلاغة؟ فقال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة[٣].

وقال بعض حكماء الهند: البلاغة: جماع البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، ومن البصر بالحجة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها[٤]. وحينما سئل ارستطاليس في ذلك قال: البلاغة حسن الاستعارة.

وعلى كل فهذه التعاريف، على طولها وتغايرها، ترمي كلها الى إصابة المعنى، وصحة اللفظ، وسلامة النظم... وهي أيضاً ـ كما يقولون ـ «محتاج

---

(١) البيان والتبيين جـ ٩٤/١.

(٢) الصناعتين (ط الخانجي) ص ١٠ ـ ٢٩.

(٣) البيان والتبيين جـ ٨٧/١.

(٤) الصناعتين/ ١١.

بعضهـا إلى بعض لا غنى لفضيلة أحدهـا عن الآخر؛ فمن أحـاط معرفـة بهـذه الخصال، فقد كمـل كل الكمـال، ومن شذ عنـه بعضها لم يبعـد من النقص بما اجتمع فيه منها»(١).

ومما تقدم نرى أن كلا منهم قد ركز البلاغة فيما يوافق طبعـه، ويوائم ذوقـه؛ فمن أعجبتـه الاستعارة جعلهـا عنوان البـلاغة؛ ومن يميـل الى الإيجاز رفـع من شأنه وحصر فيه بلاغة القول.

مقوّمات البلاغة:

لكـل فن من الفنون أدواتـه ومقومـاته، وبقـدر ما يتيسر للفنـان منهـا يكـون حظه من النجاح والنبوغ . . ،

وأدوات البلاغة كثيرة: منها الظاهر ومنها الباطن . . منهـا ما يكـون في الطبـع الموهوب، والذوق الذوّاق، ومنهـا ما يكـون في مظاهـر الطبيعـة وظواهـرها . . ، يستلهمهـا فتلهمه، ويستـوحيها فتـوحي إليه، ومنهـا ما يكـون أيضا في النـاحية الثقافية: علمية كانت أم فنية . .

الطبع الموهوب:

هـو الإشراقـة السماويـة التي يختص بها الله تعـالى بعض خلقـه، ويهبهـا لمن يشـاء من عباده . . . فـإذا أومضت في النفس أشـرقت بـالبـدائـع والـروائـع من المعـاني والأخيلة، وإن ترجم عنهـا اللسان أو سـال بها القلم في أعـذب أسلوب أصاخت له الاسماع وابتهجت به النفوس . . .

ومتى كان الأمر كـذلك فـلا أثر إذا «للبيئـة» في خَلقه؛ لأنـه هبة الله تعـالى. كـما أنه ليس بـلازم أن تمده «عـوامل الـوراثة»؛ فقـد يكون الأبنـاء على غـير ما كان عليه الآباء . . .

على أننا بالطبع لا ننكر أثـر البيئة أو الـوراثة في تقـويم الأديب، كما لا ننكـر

---

(١) العمدة جـ١/١٦٥، ط السعادة بمصر.

فيا له من كتاب عبقري مختلف الألوان؛ أبدعته يدُ صَنَاع. وجملته بأجمل الأصباغ فغدا متربِّعاً لكل قلب، مترنماً لكل أذن، كما غدا مسرحاً لكل نفس شاعرة، وعين باصرة إلى ربها ناظرة.. فتبارك الله أحسن الخالقين..

العلم المكسوب:

لا شك أن العلوم الإنسانية التي تثقف العقل، وتُنضج الفكر، ترهف أيضاً من الحواس والمشاعر، كما تعمل على تربية الذوق وإخصاب الخيال... وهي في ذلك على درجات: فمنها ما يكون قوي الأثر لقرب منزلته من البلاغة، ومنها ما يكون ضعيف التأثير لبعده عنها.

ولعل أقربها نسباً وأقواها أثراً: علوم اللغة وآدابها، وعلوم الطبيعة الكونية، وعلما النفس والمنطق وأيضاً علم الجمال.

علوم اللغة:

للغة فروع كثيرة، وجميعها مما يعين الأديب على قوة الأداء ودقة التعبير.

فالنحو: يعصم اللسان من الخطأ، ويقيه عثرات اللحن التي قد تفسد العبارة أو تشوه جمالها... كما أنه يوقف الأديب على أمثل الطرق لسلامة النظم، فقد يفسد المعنى أو يلتبس الأمر إذا عاد الوصف أو الضمير على أبعد مذكور، وقد يلتبس الأمر أيضاً إذا كان الفاعل والمفعول علمين مقصورين لا تظهر على آخرهما حركة الإعراب، وفي هذه الحالة يجب تقديم الفاعل؛ فلا تقل مثلا شكر عيسى موسى إلا إذا كان عيسى هو الشاكر. وقد يفهم أيضاً غير المراد إذا دخلت الباء على غير المتروك في مادة «استبدل»... والحالات كثيرة والأمثلة أكثر.

على أن قواعد النحو وحدها لا تكفي (إذ تستطيع أن تقول عن الكثير من أوضاع التعبير إنه صحيح.. ولكن واحداً منها من هذه الأوضاع هو الذي نقرر أنه الأفضل والأبلغ)[1].

---

(١) فن القول ص ٤٣.

وبالصرف: تؤخذ المشتقات من مصادرها، وتصب في قوالبها وتجمع الكلمات على أوزانها الخاصة بها، فلا تجعل «فواعل» جمعا لـ «فاعل» إلا إذا كانت وصفاً لمؤنث؛ ففواضل مفردها فاضلة لا فاضل. . . أما «ضوامر» فيصح أن تكون جمعاً لضامر؛ لأنه يقال ناقة ضامر من غير تاء. . . وويل للأديب إذا خالف القياس ووصف الذكور بصفات الإناث.

هذا ولقد عيب على أبي النجم العجلي رجزه «الحمد لله العلي الأجلل» لأنه فك الإدغام فكاً في غير موضعه.

وعلما العروض والقافية: من مقومات الشعر خاصة، ومن الكتّاب من يرصع به رسائله، ومن ثم فقد وجبت الإشارة إليهما في هذا المقام، إذ بدراستهما يستطيع الشاعر أن يميز بين بحوره المختلفة، فلا يخلط بينها في نظمه، ولا يراوح بينها في قصيدة واحدة، كما يستطيع التمييز بين صحيح الوزن ومكسوره، وسليم القافية ومعيبها. . . ومن ثم يسلم له النظم وزناً وقافية. .

هذا. وقد نبتت نابتة في عصرنا الحاضر ترى أن هذين ـ الوزن والقافية ـ عبء ثقيل على الشعر يجب رفعه عن كاهله. . وإذ كانت تؤمن بحرية الشاعر فقد دعت إلى تطوير الشعر بإزالة هذه السدود المعوقة، وتحطيم هذه القيود التي تكبله. . . ومضت في سبيلها هكذا تجترىء على الوزن حيناً، وعلى القافية أحياناً، والناس حيالها بين مصفق ومشفق. . ولو علمتْ أن هذه القيود ليست سلاسل وأغلالا، وإنما هي أساور من ذهب، وعقود من لؤلؤ وخلاخيل من فضة، لعزّ عليها أن تجعل الشعر عاطلا من معالم الزينة. . وماذا بعد هذا إلا أن يجردوا البلاغة أيضاً من قيودها، وللقيد البلاغي جماله وجلاله. . إن كل قيد بلاغي مكمل ومجمل، ومن ينشد الكمال أو الجمال فعليه أن يؤدي مهره. ومن خطب الحسناء لم يغله المهر.

على أننا في الوقت نفسه لا ننكر جمال هذا اللون من التعبير كأسلوب أدبي مرسل ولكننا ننكر عليه وعليهم أن يبلغ منزلة الشعر بمعناه المتوارث المجمل بالوزن والقافية، وبالتالي ننكر أن يسمى شعراً، وأرى أن من يعبث بموازين

الشعـر على هـذا النحو ليس بشـاعر وإن حـرك المشاعـر، إلا إذا تغير الـوضع، واستبدل بمدلوله الراهن مدلولٌ جديد. . وهيهات أن يبلغ مبلغه.

أمـا المراوحـة بين القـوافي ففيها اخـلال بموسيقـاهـا، وارتـداد بـالقصيـد إلى الوراء، وعلى كل فهي مقبولة نوعا ما. وفي ظروف معينة بشـروط مخصوصـة. . وإذا كان «لالتزامها» في القصيدة معايبه فله أيضاً محاسنه الواضحة. . . على أن هذه العيوب لا تأتي من قبل «الالتزام» في حد ذاتـه، وإنما تـأتي من قبل الشـاعر الضحـل الذي لا يقـوى عليه، وحسبنـا في ذلـك هـذا القـدر؛ إذ المقـام مقـام الكتابة لا الشعر، ولعل في هذه الإشارة ما يغني عن الإفاضة. .

والنصـوص الأدبيـة: هي الملهم الأول لكـل شـاد في الأدب، ومتى تمـرس النـاشئـون بـأسـاليبهـا، وتـذوقـوا بـلاغتهـا، تجـاوبت بهـا قلوبهم، وهتفت بهـا ألسنتهم، وتردد صداها فيما يحـاولون من منـظوم القول ومنثـوره. . وقلما تجدي المحاولة من غير مثال يُحتـذى فإذا مس «النص» شغاف القلب،شدا بـه القارىء أو السامع وعزف على أوتاره لا محالة. .

ويكفي أنها تعرض عليه نمـاذج حية من فنـون القول؛ ليتـذوقها فيسلم ذوقـه ويحاكيها فيصح نظمه، وأخيراً يستلهمها فتلهمه.

وقد يقتبس منها الأديب بقدَر؛ ليرصع بها القول، ويزيده وضوحـاً وتأكيـداً، فيشرف بشرفها ويسمو بسموها.

لقـد كان «القـرآن الكريم» ـ ولا يـزال ـ مـورداً لكـل ظـامىء، ملهـماً لكـل شـاعر ونـاثر. . أرأيت سعـد بن أبي وقاص، وقـد وقف على أطـلال الكسرويـة بعـد أن دكّ حصونها، يسـرّح الطرفَ في ملكـوتها الـواسـع. . ؟ وهـل استمعت إليـه وهو يخـطب ويقـول: (. . كم تـركـوا من جنـات وعيـون، وزروع ومقـام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين».

وهـل ترنمت بهـذه الخـطبـة البليغـة التي استمـدت بيـانها من بيـان القـرآن، وجلالها من جلال الله. . ؟.

من أجـل هذا ـ وفي صـورة قلميـة خـاصـة ـ رأينـا السيـد عبـد الله النـديم

يراوح بين كلامه وكلام الله تعالى، ويشفع الفقرة بالفقرة، استمع إليه يقول معاتباً وناصحاً: (. . وأنت يا عزيز العليا، ووحيد الدنيا قد بينت لك فعلهم فبما رحمة من الله لنت لهم، ولكنهم طمعوا في عميم طولك، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، أتراهم يعقلون كلامك أم يفهمون؟ لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون. لهم قلوب لا يدرون بها للحسد قراراً، لو أطلعت عليهم لوليت منهم فراراً، وإني قد شيدت لك بقلبي حصناً صعباً، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا. . .).

على أن القرآن الكريم من ناحية أخرى قد أمد الشعراء والكتّاب بطائفة من قصص الأنبياء، فصاغوها شعراً ونثراً، فقصة سيدنا إبراهيم مع قومه هي التي أمدت «حافظ ابراهيم» - في نونيته الكبرى - بالألفاظ فضلاً عن المعاني، وقصته مع ابنه إسماعيل، هي التي أمدت الحطيئة بقصته في «الكرم العربي»، عن ذلك البدوي الطاوي، الذي همّ بذبح ابنه لإقراء ضيفه الطارق. . . ولولا إلمام شوقي بقصص القرآن ما رأيناه يشير الى «موسى والسامري» بقوله:

إذا رشد المعلم كان موسى وإن هو ضل كان السامريا

ومثل هذه الإشارات تراها كثيرة في كتابه «أسواق الذهب».

وعلوم البلاغة: هي الدليل الرائد الذي يأخذ بيد الأديب إلى أفصح الأساليب.

فعلم البيان: يمده بمختلف الطرق للتعبير عن المعنى الواحد، ويعرض عليه أنماطاً شتى من صور الخيال، وضروباً عدة من ألوان الرمز والكناية التي تعمق المعنى، وتنأى به عن السطحية الساذجة، فينتقي من الصور أبدعها ومن الضروب أبرعها، ولكل تعبير دلالة، وفي كل دلالة سر. . . وقد يكون له أكثر من دلالة، وعندها يتدخل علم البيان ليميز الفاضل من المفضول مراعياً ما جرى عليه العرف أو اقتضته الحكمة.

فإذا كانت العرب تكنى «بجمود العين» عن بخلها بالدمع عند الحاجة إليه فلا يصح أن يكنى به عن «الفرح» كما فعل العباس بن الأحنف في قوله:

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناي الدموع لتجمدا

إذ كنى بهذا «الجمود» عن الفرحة التي ستغمره عند اجتماع الشمل مع من يهوى ودوام اللقاء... وهو بذلك قد خالف العرف الذي جرت عليه العرب جيلا بعد جيل. فقديماً قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر.

أعينيّ جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى؟

وإذا اقتضت الحكمة أن يكنى «بابن البخار» مثلاً عن القطار بدلاً من السيل أو المطر، فلا يصح أن نعدل عن ذلك وإن كانا - السيل أو المطر - أولى بذلك من القطار، لأنهما فعلا وحقا وليدا البخار ونتيجته الطبيعية... أليس في ذلك. ما يشيد بهذا الكشف العظيم مع الإشارة إلى مصدره.. كما فعل حافظ في قوله:

رأيت ابنَ البخار على رباها يمرّ كأنه شرخُ الشباب(1)

وعلم المعاني: يوقف الأديب على ما تجب مراعاته عند الأداء ليطابق مقتضى الحال. متى يصل؟ ومتى يفصل؟ متى يوجز؟ ومتى يطنب؟ فإذا فعل من غير داع فهذا هو الخطل أو العبث...

فإذا كان الله سبحانه وتعالى قد خص النساء بالذكر في قوله:

﴿يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن﴾ فذلك لحكمة لا تخفى؛ أليست النساء أكثر من الرجال استهزاء بالغير، وبمن هن على شاكلتهن أكثر..؟ من أجل هذا ندرك سر التخصيص بعد التعميم في الآية الكريمة وبمثل هذا كان النظم الكريم في ذروة البلاغة.

أما علم البديع: بمحسناته ومجمِّلاته - فيمده بهذه الألوان التي تجمل الأساليب بموسيقى الألفاظ؛ سجعاً، أو ازدواجاً أو تجنيساً، أو تقرر المعنى بما يوضحه أو يؤكده، ولا شك أن إيضاح المعنى بذكر ضده - كما في الطباق

---

(1) ديوان حافظ جـ ٢/١٢٢.

والمقابلة ـ أبلغ، «وبضدها تتميز الأشياء»، هذا. فضلاً عن أساليب التورية وحسن التعليل ـ التي لا تخلو من دعابة طريفة، أو نكتة بارعة وغير ذلك مما يغذي العقل والعاطفة معاً.

على أن الأديب إذا أسرف في ذلك وتكلف، فقد أسفّ وتخلف.. وعلوم البلاغة عامة تكشف له عن سمات الحسن، ليترسمها، ومواطن القبح ليتجنبها.. ومن سار على الدرب وصل.

ومتن **اللغة وفقهها**: مما يأخذ بيد الأديب أيضاً، فليس هو آلة صماء يجمع من الألفاظ ما يصادفه كحاطب ليل، وإنما هو لآل يلتقط من الدرّ حبا نضيرا، وينظمه في سمطه ليؤلف منه العقد في أكمل صورة... ومن ثم كان عليه ـ في أولى الخطوات ـ أن يلم بمتن اللغة: كلماتٍ وأمثالا، وأن يعرف مقبول الألفاظ ومرذولها. وغريبها ومألوفها، وسهلها وجذلها، ليتجنب الوحشي النافر «كالنقاخ»[1] والغامض المبهم «كالبعاق»[2]، وما تنافرت حروفه وثقل على اللسان والآذان كالمستشزرات. وغير ذلك مما ينبو عن الطبع والسمع.

إن سلامة الألفاظ وسلاستها شرط لسلامة النظم، وسلاسة الأسلوب، وبعلم اللغة يستطيع الأديب أن يميز الخبيث من الطيب، وبفقهها يعرف ما طرأ على الألفاظ من تطورات على مر العصور، كما يعرف قرابة الألفاظ بعضها بعضاً ومدى دلالتها على المعاني المقاربة؛ فيختار منها ما هو نص «في صميم الموضوع»، ولو أنعمت النظر لوجدت ثم فروقا بين مترادفات اللغة.. فروقا دقيقة لا يدركها إلا الخبير.

علوم الطبيعة:

وهي تمد الأديب بألوان مختلفة من المعارف العامة التي تنمي عقله وتوسع أفقه وتعينه على إدراك أسرار الطبيعة. واجتلاء غوامضها.

---

(١) النقاخ = الماء العذب

(٢) البعاق = المطر.

ولعمري إنها المورد الصافي الذي يستمد منه موضوعاته، كما يستمد منه أفكاره وصوره الخيالية.

إن العلماء أكثر من الأدباء اتصالاً بالطبيعة.. أرضها وسمائها. ظاهرها وباطنها، سهولها وحزونها، نباتها وحيوانها... ومن ثم كانوا أكثر من الأدباء إدراكاً لكنهها وأسرارها.. كل في ميدانه، وفي كل يوم يطالعوننا بجديد، ولكل جديد بهجة.

أرأيت معي كم كان جميلا من الشاعر أن يستغل ظاهرة «البوصلة البحرية» في بث محبوبته لواعج شوقه بقوله:

كأن فؤادي إبرةٌ قد تمغطستْ بحبكِ. أنى كنتِ، نحوكِ تعطفُ

تُرى.. أكان يتسنى له ذلك من غير ثقافته العامة، عن المغناطيسية، وجاذبية القطب الشمالي لهذه الإبرة الممغنطة.؟

وكم كان أجمل وأجمل أن يستغل أحد الكتّاب ظاهرة «القطبين» «السالب والموجب» في الأعمدة الكهربية فيطالعنا في مجلة الرسالة ـ في عهدها الأول ـ بمقال طريف ممتع يثبت فيه بعقله الحصيف أن هذه الظاهرة ليست فقط في معامل العلماء، إنما هي متغلغلة في صميم الحياة كلها... فكل من يعطي فهو «موجب»، وكل من يأخذ فهو «سالب». فالمدرس والتلميذ، والخطيب وجمهوره، والموسيقي أو المغني وسامعوه، والمؤلف وقارئوه، والطبيب والمريض، والبائع والمشتري، والسيد والخادم، والسائل والمسؤول، وكل طرفين متفاعلين معاً في أمر من الأمور... أحدهما موجب والآخر سالب... وقد يكون الواحد موجباً باعتبار، سالباً باعتبار آخر. فالبائع موجب بالنسبة للسلعة، سالب بالنسبة للثمن.. وبمثل هذا جال في الأرض وفجاجها، والسماء وآفاقها حتى هز القراء بمقاله الممتع الذي تأصل على هذه الظاهرة العلمية التي أمدته بها ثقافته الفيزيائية.

على أن الأديب ليس مطالباً بالغوّص وراء هذه الحقائق لإدراك أسرارها والربط بين أسبابها ومسبباتها، فذلك عمل غيره وقد يضر أكثر مما ينفع،

وحسبه أن يلتقط هذه الحقائق من أفواه المجربين، ثم يتناولها بخياله الخصب، ويفيض عليها من فنه وروحه بما يُضفي عليها البهجة والجمال. . . فالشيخ عبد العزيز البشري لم يكن جغرافيا ولا فلكياً ولا مهندساً، ولكنه استغل معلوماته العامة عنها في مقال أدبي ممتع ـ صدر به مرآته ـ عن زيور باشا ـ وكان سميناً بديناً. . . بدأه برسم قطاعاته، وتحديد أبعاده ثم أخذ في تقدير مساحاته وحجومه وهو بين هذا وذاك يتخيله هضبة عالية مترامية الأطراف تضم عوالم مختلفة. . منها السهل ومنها الوعر. . منها اليابس المتحجر ومنها الرخو الهش. . . منها ما يدور حول نفسه، ومنها ما يدور حول غيره.

ليس على الله بمستنكرٍ أن يجمعَ العالَم في واحد

ولو نظرت في تراث الجاحظ ـ وهو دائرة معارف حية ـ لأدركت في يسر أنه ما برّز أقرانه إلا بهذه الثقافة الواسعة المنوّعة، في الحيوان والنبات والاجتماع والأجناس، وما حوته دكاكين الوراقين. . . ليس بعجيب أن يوصي الأديب بأن يأخذ من كل علم بطرف.

علوم الفلسفة:

ونعني منها علم النفس، وعلم الجمال، وعلم المنطق.

١ ـ علم النفس:

أدرك الناس حديثاً ما لعلم النفس من عظيم الأثر في كثير من المواقف التي تتطلب الاقناع والاستمالة، فأخذوا أنفسهم ببعض مباحثه لتعينهم على أداء رسالتهم في الحياة؛ فالطبيب، والتاجر والمدرس والقاضي والمحامي وغيرهم، قلما ينجحون ما لم يترسموا خطاه ويصطنعوا أساليبه. . ألا ترى أن «صراحة» الطبيب أحياناً قد تودي بحياة المريض.؟ وأن التاجر الناجح هو الذي يعرف كيف يلفت إليه الأنظار؟ بالافتنان في الإعلان، وبراعة العرض، ولباقة الحديث، وحسن المعاملة. .

والأدباء كهؤلاء جميعاً؛ لهم غاية «وعليهم رسالة»، وهم لن يبلغوا هذه أو

ينهضوا بتلك إلا إذا عرفوا نفسية القارىء أو السامع، وحللوا طبيعتها وأدركوا ميولها ونوازعها حتى يخاطبوها بلغتها، ويشبعوا رغباتها.. وعلم النفس هو الكفيل بهذا.. هو الذي يكشف للدارسين عن «قوى النفس» المختلفة.. من (١) إدراك ... (٢) وعاطفة... (٣) ونزوع.

والقوة **الأولى**: هي مركز التفكير والتحليل، والاستنباط والتعليل، ومتى كان إدراك الأديب قوياً اتسعت معارفه، ونضجت أفكاره.

والقوة **الثانية**: هي مركز الحس والشعور الذي يمدّ الأديب بصور الخيال المختلفة، وأظهر ما تكون مشبوبة عند الأطفال والنساء والفنانين... توقظها المناظر الجميلة، وتثيرها المواقف العنيفة والمشاهد الأليمة، ومن ثم كانت مبعث الفن الرفيع، والتعبير البليغ الذي يتجلى في القصيدة الرائعة، والرسالة البارعة، والقصة الفنية الممتعة.

والقوة **الثالثة**: هي القوة العملية التي يعتمد عليها الأديب في تنفيذ ما أدركه وانفعل به.

والواقع أن هذه القوى الثلاث متشابكة في النفس، فمن النادر مثلاً أن تجد فكرة لا تثير عاطفة يعقبها نزوع.. غير أنها تختلف قوة وضعفاً بحسب الظروف والأحوال والميول.

ومن ذلك نرى أهمية علم النفس في الحياة، ومدى حاجة البلغاء إليه، ومن أجل هذا بدأ يحتل مكانه في الدراسات الأدبية، التي تدور حول النقد، والكشف عن بلاغة الأدباء، وذلك بعد أن أدرك العلماء جلال خطره وعظيم أثره.

فمنذ بدأت النهضة في أوربا أخذ الفلاسفة يتجهون اتجاهاً جديداً في بحث «المعرفة الإنسانية» كيف تنشأ؟ وفي الملكات العقلية كيف تؤدي عملها في التفكير؟ ووضعت القواعد لتحرير العقل الأوروبي مما كان يرزح تحته في العصور الوسطى من سلطان الوجهة المادية المحضة في التفكير، وبذلك تحولت الدراسة

ـ كما يقول مكمري[١] من الناحية الطبيعية التي تبحث في المادة وخواصها إلى الناحية البيولوجية التي تبحث في النبات والحيوان، ثم جنحت أخيراً إلى الجانب السيكلوجي الذي يبحث في النفس الإنسانية.

كان طبيعيا أن تظهر آثار هذه الحركة في الانتاج الأدبي، وفي ذلك يقول الأستاذ محمد خلف الله: (وكان لا بد للنقد الأدبي الحديث، أن يخضع ـ كما خضع غيره من ظواهر التفكير الإنساني ـ لألوان الثقافة الغالبة في عصره، ولألوان الأدب التي ينتجها ذلك العصر. وكان لا بد له أن يثير معركة بين الجديد والقديم، وكان لا بد له أن يراجع تاريخ نفسه، وأن يعود إلى ذكريات نشأته أيام «أرسطو» وأن يتتبع حياته في العصور الوسطى والعصور الحديثة، وأن يتبين اتجاهاته الحديثة ويوازن بينها، وبعبارة مختصرة أن ينقد نفسه، وأن يدرس تاريخه دراسة منظمة. ولعل نظريات هذا الفرع الآن لا تقل في تنوّعها عن نظريات الفلسفة والعلم بوجه عام، فمنها الكلاسيكية، والرومانسية، والواقعية، والانطباعية، والتقريرية والتعبيرية والذوقية والتاريخية والنفسانية وما إليها)[٢].

كانت فلسفة أرسطو ـ كما يقرر الدكتور طه حسين ـ نقطة البدء في الدراسات النقدية بأوربا، وتأثرت بها مناحي التفكير. ثم أخذت طريقها إلى الشرق، وتجلت آثارها في تفكير علماء الكلام من أمثال الجاحظ وبشر بن المعتمر، وعلماء النقد من أمثال قدامة وعبد القاهر[٣].

وليس بعجيب ـ كما يقولون ـ أن نرى تيارات هذا العلم ـ علم النفس ـ تحتك بالأدب ودراسته في أكثر من موضع... أليس الأدب من أروع ما تنتج نفس الانسان؟ أليس وليد الشخصية الإنسانية؟ أليس المعبر عما تنطوي عليه النفس من شعور وإحساس؟ أليس مظهراً من مظاهر العبقرية والخلق

---

(١) Some Makers of the modern (edited by Prof. Macmurry).

(٢) ص ٤ من الوجهة النفسية.

(٣) «البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر» تمهيد الدكتور طه حسين لكتاب نقد النثر لقدامه سنة ١٩٤٠.

الانسـانيـين؟ ثم أليس الأدب صلة بـين انسـان وانســان؟ أليس قـارىء الأدب ومتذوقه وسامعه أناساً يحسون ويتذوقون ويعجبون وينتقدون؟

وفي ذلك ايضا يقول العالم السويسري (يونج Jung):

«من الظاهر أن علم النفس ـ لكـونه علم دراسـة الخـطوات النفسيـة ـ يمكن أن يستفـاد منـه في دراسـة الأدب، فـإن النفس الإنســانيـة هي الـرحـم الـذي تـولدت منـه كـل الفنـون والعلوم . . فلنـا أن ننتـظر من البحث السيكلوجي أن يشـرح لنا تكـوين العمل الفني من نـاحية . . ومن نـاحية أخـرى أن يشـرح لنـا العوامل التي تجعل من الشخص مبدعاً فنياً»[1].

إن هـذا الاحتكاك الـذي بدأ من جـانب علماء النفس قد آزره احتكـاك آخر من جانب نقاد الأدب أنفسهم . . أولئـك الذين زاحمـوهم في الميادين المشتـركة، كالخيال، والعاطفة، والشخصيـة، والوراثـة، والبيئة، وغيـرها ممـا يتأثـر به قلم الكاتب، وأوزان الشاعر، وأسلوب الخطيب.

تُرى . . هل وقف العرب جامدين في الوقت الـذي زخرت فيـه أوربا بـالكثير من التيـارات والمذاهب . . كـلاسيكية، وروِمـانسية، وواقعيـة ومثاليـة . ؟ كـلا، فإن تاريخ النقد العربي يشير إلى بعض النماذج النفسية في الـدراسات العـربية: قديمها وحديثها . . وقد أحاط بهـا ـ في إيجاز ـ الأستـاذ محمد خلف الله في كتـابه الرائد «من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده»، مبتدئاً بابن قتيبـة في كتابـه «الشعر والشعراء» مثنياً بالقـاضي أبي الحسن الجرجـاني في كتابـه «الوسـاطة بـين المتنبي وخصومه»، مختتماً الأقدمين بعبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز . . . وفي العصر الحديث بدأ بعميـد الأدب الدكتـور طه حسـين الـذي جعل للشـك العلمي مكـانـة في تـاريـخ الأدب، منـاقشـاً آراء المـدارس الأوربية الحديثة في الموضوع، مناقشة علمية دقيقة في كتابـه «في الأدب الجاهـلي» خلص منهـا إلى مذهب أدبي ارتضـاه ووفق فيـه بـين مـوضـوعيـة العلم وذاتيتـه

---

(١) التـرجمة الإنجليـزية (ط ٥) لكتـاب «Modern Man in search of Soul» انظر الفصـل الثامن (علم النفس والأدب Psychology and Literature) ص ١٧٥ .

مشيراً إلى غيره من الباحثين والمؤلفين المحدثين مما لا يتسع المقام لذكرهم وإظهار آثارهم في هذا اللون من الدراسات النفسية[1].

علم الجمال:

وهو من العلوم الحديثة التي مست الحاجة اليها أيضاً، ويكفي لدراسته أنه العلم الذي يكشف عن أسرار الجمال في الأساليب ذاتية كانت Subjective أم موضوعية Objective.

إن علماء البلاغة والنقد ـ في مختلف العصور والبقاع وكذا الأدباء الناشئون، يبحثون عن «التعبير الجميل» ولكل وجهة هو موليها.

ومتى كان الأمر كذلك، فما أحوج هؤلاء وهؤلاء إلى هذا العلم الذي ينير طريق النقاد، ويكشف للأدباء عن أسرار الجمال في الطبيعة والإنسان.. ويعينهم على إدراكها في التصوير والتعبير.

من أجل هذا كان من الضروري للفكر البشري ـ كما يقول الأستاذ خلف الله ـ أن يدرس الجمال في مختلف مظاهره، وأن يحاول الوصول فيه إلى رأي؛ من حيث الموضوعية أو الذاتية، وأن يتوفر أناس من العلماء على هذه الناحية يدرسونها، ويختلفون في نتائجهم ومذاهبهم، وكان طبيعياً ألا يقف الفكر الانساني عند هذا، بل يخرج من التفلسف الى التشريع، فيحاول أن يضع القواعد العامة لمنتجي الفنون ـ ومنهم الأدباء ـ ليسترشدوا بها فيما ينتجون، وأن يضع الموازين لنقاد الفنون؛ ليهتدوا بها فيما يحكمون)[1].

ومهما قيل في ذاتية هذا العلم أو موضوعيته فإن هناك قدراً مشتركاً، وإحساساً عاماً لبعض مظاهر الجمال فيما تقع عليه العين أو تلتقطه الأذن هذا القدر هو حسبنا في هذا المقام لننقله من الجانب الذاتي الحديث الى الجانب الموضوعي القديم، ذلك الجانب الذي يقرر أن أحكامه يمكن أن تكون غاية

---

(١) (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده) من ص ١٩ إلى ص ٢٣.
(٢) ص ٧ من الوجهة النفسية

الصدق متى صدق الإحساس، وصدقه رهن بتربيته تربية نفسية ذوّاقة، فنحن ندرك الجمال ـ كما يقول (بيرت Burt) لأنه هناك ليرى، وليس هو شيئاً نخترعه أو نتصوره بأنفسنا، إنه شيء نحسه ونجده. . إنه يقيم في الموضوع الجميل[1].

علم المنطق:

إذا كانت وظيفة البلاغة الأولى ـ كما يقول الأستاذ الزيات ـ هي الإقناع عن طريق التأثير، والامتاع عن طريق التشويق فما أحوجها اليه لتدعم أساليبها بالحجة الواضحة. . . أليس المنطق أظهر وسيلة للإقناع. . به ترتب العناصر، وتسلسل الأفكار لترتبط الفروع بأصولها، والأسباب بمسبباتها فلا يتقدم المعلول على العلة ولا تتأثر المقدمات عن النتائج.

حقاً إن أسلوبه قائم في الطبع بالخلقة، مركوز في النفس بالفطرة. . ألم نلمحه ـ أحياناً ـ في الأدب الجاهلي قبل أن يتصل العرب بمنطق أرسطو وبلاغة اليونان؟

ألا نرى «القياس المنطقي» ـ بمقدماته ونتائجه ـ واضحاً في قول الشاعر: قس بن ساعدة الأيادي:

في الذّاهبين الأوليـ (م) ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها تمضي الأصاغرُ والأكابر
أيقنت أني لا محا لةَ حيث صار القومُ صائر

ولكن هذا الجانب الفطري لن يغني فتيلا في بعض المواقف التي تتطلب مزيداً من الإقناع، كما في الخطابة القضائية مثلاً، ومن ثم كانت الحاجة إليه ماسة، ومتى أحاط الأديب بأظهر قضاياه، وتمرس بأشكال القياس خاصة فلن

---

(١) أنظر الترجمة العربية لكتاب How the mind works في العدد (١٠) من سلسلة أعلام الفكر للأستاذ محمد خلف الله.

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٢٥ ط الرسالة سنة ١٩٤٥.

يخطىء القصد، ولن تضيع «الحقيقة» بين زخرف القول ووشي الخيال. .

أهم المباحث المشتركة بين البلاغة والمنطق مبحث «الدلالة». . دلالة الألفاظ ـ أو سواها ـ على المعاني أو لازمها، ولن نقول ـ كما قيل ـ إنها مقدمة منطقية مقحمة بين يدي علم البيان، فإن بلاغة المجاز أو الكناية قائمة على وضوح الدلالة العقلية، ومتى لاحظ الأديب ذلك برئت أساليبه المجازية أو الرمزية من الخفاء.

* * *

«وبعد» فهذا الذي أسلفنا في تقويم البلاغة خير زاد لكل شاد في الأدب وإن أعوزه بعد ذلك التطبيق العملي الذي هو مهبط الفن، وبه يتفصح الأديب.

فمتى عكف على تراث الخالدين بذوق ذوّاق، وكشف عن سر جماله بعين فاحصة، ثم شفع ذلك كله بالمحاولة تلو المحاولة، فقد أتى البلاغة من أبوابها، وهيهات أن تخطئه. .

الذوق الأدبي

الذوق لغة: مشتق من تذوقِ الطعام أي اختبار طعمه لمعرفة حاله: أحلو هو أم مر؟ وحريف، لاذع أم غير حريف، وهل هو عذب فرات؟ أم هل هو ملح أجاج؟.. وهو: ملكة ـ موهوبة أو مكتسبة ـ تعين صاحبها على إدراك سر الجمال في الأسلوب الأبي، فنستمتع به، وقد نحذو حذوه، بل قد نوازنه بغيره لسبر غوره، ونحكم له أو عليه.. ومن ثم كان هذا الذوق وسيلة النقاد فيما يحاولون...

وهو قسمان: خاص وعام، فلكل منا ذوق فني خاص متأثر بشخصيته الفردية، فضلاً عن ذوقه العام الذي يشترك فيه أبناء العصر الواحد في البيئة الواحدة.. وهذان الذوقان ـ كما يقول الدكتور طه حسين ـ: هما اللذان يقضيان بأن هذه القصيدة ـ أو المقالة رائعة، تنشد فنشترك في الإعجاب بها، أو قل في مقدار من الإعجاب بها عام سواء أو كأنه سواء بيننا. ثم لا يمنع ذلك أن يكون لكل واحد منا إعجاب خاص بالقصيدة كلها أو بالبيت من أبياتها لا يستطيع أحد أن يشعر به ولا يقدره... والحياة الفنية إنما هي مزاج من هذين الذوقين، فيه الوفاق حيناً، وفيه الصراع حيناً آخر، والذوق العام هو الذي يعطي الحياة الفنية حظاً من «الموضوعية»، وهذه الأذواق الخاصة هي التي تعطي الحياة الفنية حظا من «الذاتية»[1].

وقد استدرك الأستاذ أحمد الشايب على هذين بنوع ثالث هو «الذوق

(١) شوقي وحافظ ص ٢٣.

الأعم» (الـذي يشترك فيـه الناس بحكم طبيعتهم الإنسـانيـة التي تحب الجمـال وتتذوقه: طبيعياً كان أم صناعياً. وهذا القدر المشتـرك بين النفـوس البشريـة هو الذي يجمع بينها ـ أو بين المتـأدبين بهـا ـ في الاعجاب بهـومير وشكسبـير وجوتـه والمعـري والمتنبي، ثم يجمـع بينهـا في الإعجـاب بمشـاهـد الـطبيعـة الجميلة، وبالفضائل العامة، والأفعال المجيدة)[١].

تربية الذوق:

يتأثر الـذوق على مـر الأيام بعـوامل مختلفـة؛ حسية ومعنـوية، تلك العـوامل هي التي تطبعه بطابعها وأهمها:

١ ـ المجتمع:

وهو بظروفه الطبيعية وتقاليـده المرعيـة يطبـع ذوق الأديب، ويصبغه بصبغتـه حتى يصبح ـ إلى حد ما ـ دالا عليه، وعنوانا صادقا له. . .

فلو استمعت إلى «وصف السفينة» في شعر طرفة:

يشق حبـابَ المـاء حيـزومُهـا بهـا كـما قسم التـربَ المفـايلُ بـاليـد

ثم استمعت إلى «أغنيـة الجندول» ـ شعـر علي طـه محـمود ـ لأدركت في يسر أن الأول ربيب البـادية بـرمالهـا وتقاليـدها، وأن الثـاني ربيب الحضارة بمجـاليها ومغانيها، وعرائسها وأحلامها.

كـان الأدباء في مصر ـ ولا يـزالون ـ يشبهـون انسياب الـزورق عـلى صفحـة المـاء بالحيـة الرقـطاء على الـرمال الميثـاء، ولكن أدباء لبنـان يشبهونـه بـانسيـاب الغـادة الحسناء عـلى الثلوج البيضاء. . . أليس ذلـك من أثـر البيئـة والمجتمـع. ذلـك الأثر الـذي يتجـلى في الألفـاظ، رقـةً وخشـونـةً، وفي الأسـاليب سهـولـة ووعورة، وفي الخيال بساطة وإغرابا، وفي التشبيهـات حضارة وبـداوة، ملكية أو سوقية.

---

(١) أصول النقد الأدبي: الطبعة الثالثة بالاعتماد ص ١٢٦.

إن الأدباء أنفسهم قد أدركوا ما بين شعرهم وشعر غيرهم من فروق اجتماعية. ألا ترى ابن الرومي يغبط ابن المعتز على تشبيهاته الحضرية؟ ولما سمع قوله في الهلال.

انظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

وقوله في الآزريون[1]:

كأنّ آزريونَها   غبّ سماء هامية
مداهنٌ من ذهب   فيها بقايا غالية

صاح وقال: واغوثاه!! لا يكلف الله نفساً إلا وسعها.. هذا يصف ما عون بيته؛ لأنه ابن خليفة وأنا ماذا أصف؟ ولكن انظر إلى قولي:

ما أنسَ لا أنس خبازا مررت به   يدحو الرقاقةَ وشك اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرةً   وبين رؤيتها قوراءَ كالقمر
ألا بمقدار ما تنداحُ دائرةٌ   في لجة البحر يلقى فيه بالحجر

وها هوذا «ذو الرمة» ـ ولم يكن زعيماً في قومه كراعي الإبل ـ يسلم بهذه الطبقية حينما عاب عليه (رتبيل) قوله في وصف الناقة:

تُصغى إذا شدها بالرحل جانحةً   حتى إذا ما استوى في غرزها تثب

وقال له: أخطأت ياذا الرمة. هلا قلت كما قال عمُّك الراعي:

ولا تعجل المرءَ قبل البرو   ك وهي بركبته أبصر

فقد قال: لله أنت. إنما وصف الراعي ناقة ملك، ووصفت أنا ناقة سوقة.

٢ ـ العصر:

تمر الشعوب والأمم بعصور سياسية مختلفة تتبعها ـ إلى حد ما ـ عصور أدبية مختلفة كذلك.. فالبرامكة الذين ساسوا البلاد ـ أيام العباسيين ـ سياسة

(١) فارسي معرب لزهر أصفر في وسطه خمل أسود.

فارسية، قد نقلوا العرب من العنجهية البدوية إلى المرونة الحضرية، ومن ضحالة العلم وجمود الفكر إلى تنوع الثقافة وحرية التفكير ومن نَواح القتلى وغناء معبد والغريض إلى غناء الموصلي وزرياب. . إلى ألحان الفرس والروم. . وكل هذا قد صقل الأذواق وغيَّر الميول. . أليست الأذواق مرآة تنعكس عليها روح العصر؟

٣ ـ الوراثة العامة:

ونعني بها وراثة الشعوب الكبرى، والسلالات البشرية المختلفة، فإن لكل جنس من الأجناس ـ سامية كانت أم آرية، سكسونية أم لاتينية ـ ذوقاً خاصاً في التفكير والتعبير يغاير إلى حد ما أذواق الأجناس الأخرى، تبعاً لاختلاف ما ورثه عن الجنس الذي ينتمي إليه.

فالأمم الآرية التي شملتها الفتوح الإسلامية دخلت في حوزة العرب الساميين بعقليتها الأولى وأذواقها الآرية، تلك التي تميل الى الاستقصاء، وتوليد المعاني وجمعها من أطرافها بأسلوب مطنب، وفي شعر ابن الرومي ـ من هذه الصفات ـ ما يدل على جنسه الروماني. . . وقد يكون الاطناب بألقاب التعظيم والتفخيم، والجمل الدعائية وغير ذلك مما كان سائداً في الأساليب الفارسية أيام الكسروية، تلك الأساليب التي اصطنعها ـ في أخريات الدولة الأموية ـ عبد الحميد الكاتب ومن ترسم خطاه من الكتاب الموالي.

٤ ـ الثقافة والتأديب:

البيت والمدرسة والمجتمع ميادين فسيحة للتربية الخاصة والثقافة العامة، ولا شك أن هذه التربية ـ خلقية أم علمية، نظرية أم عملية ـ تربي الذوق على نهجها وتطبعه بأسلوبها، ومن هنا يكون التفاوت بين الأذواق تبعاً لاختلاف النشأة والتنشئة؛ فكم من أناس من بيئة واحدة وجنس واحد يختلفون في ميولهم وأحكامهم الذوقية؛ لاختلافهم في أسلوب الدراسة ونوع الثقافة، واصطفاء الأصحاب، وطبيعة التقاليد. . .

فمن نشأ نشأة علمية عصرية مال إلى السهولة، وآثر من الأساليب ما هو

بأسلوب الصحافة أشبه. ومن تمرس بأساليب القدامى والمحدثين جمع ذوقه بين مشارب هؤلاء وهؤلاء. ومن ثم كان ربيب الثقافة الأجنبية إلى آدابها أميل، وذوقه بأذواقها أشبه وبينا تراه يهتز طرباً لبراعة التصوير في قول فولتير: (إنما مثل المتكبر كالطائر، كلما تعالى تضاءل في أعين الناظرين..) قد لا يصيخ كثيراً لمواعظ الحكماء في «التواضع وتجنب الكبرياء»، لأنه ملّ الحكم، وزهد في الزهد.

ولا شك أن طريقة الموازنة بين الأسلوبين، القديم والحديث أو العربي والغربي، أجدى وأنجح من سواها في تربية «**الذوق الأدبي**».

٥ ـ الشخصية:

وهي هذه الصفات الفردية الخاصة التي تميز الشخص من سواه، وبها يُعرف، ومتى تأكدت في الأديب عدّلت من مزاجه النابع من ذاته على لون خاص يتجلى في أسلوبه؛ فالمتفائل مثلاً يخلع على أدبه من ذات نفسه، ويفيض عليه من روحه، فإذا هو أدب مشرق إشراق قول البحتري:

أتاك الربيعُ الطلق يختال ضاحكا　　من الحسن حتى كاد أن يتكلما

والمتشائم يخلع عليه من مزاجه السوداوي ما يملأ القلب يأساً وزهداً.. ألا تحس ذلك في نبرات أبي العلاء.

صاح هذي قبورنا تملأ الرّحـ　　ـبَ، فأين القبورُ من عهد عاد؟
خففِ الوطء ما أظن أديم الـ　　أرضِ إلا من هذه الأجساد
وقبيح بنا وإن قدم العهـ　　ـدُ هوانُ الآباء والأجداد
سر إن استطعت في الهواء رويداً　　لا اختيالا على رفاتِ العباد
رب لحدٍ قد صار لحداً مرارا　　ضاحكٍ من تزاحم الأضداد
ودفينٍ على بقايا دفين　　في طويل الأزمان والآباد
تعبٌ كلها الحياةُ فما أعجبُ إلا من راغبٍ في ازدياد

* * *

من أجل هذا تجلت شخصية عنترة في الحماسة، وجرير في الهجاء، وكثيِّر عزة وابن الملوح في النسيب، والمتنبي في الفخر، والمعري في الحكمة وأبي العتاهية في الزهد، وابن الفارض في التصوف، والبحتري في الوصف.

ومن حيث الأساليب تجلت شخصية ابن المقفع في الإيجاز، وعبد الحميد في الإطناب، والجاحظ في الاستقصاء والازدواج، وفي ميدان السجع تجلت شخصية ابن العميد والبديع، والحريري والقاضي الفاضل.

مجالات الشخصية:

تتجلى شخصية الأديب في نواح ثلاث من نواحي الكلام

(١) طريقة النظم.
(٢) ناحية الطبع أو الصنعة.
(٣) إيثار اللفظ أو المعنى.

١ ـ طريقة النظم:

ونعني بها الأسلوب اللفظي الذي يسلك الألفاظ في جُمَلها، والجملة في فقرتها، والفقرة في عبارتها.

وللفظ معنى أو معان، وللجملة دلالة أو دلالات، وللعبارة هدف أو أهداف، ولكل من هذه جمالها الجزئي على حدة، فإذا قرنت بغيرها اتضحت معالمها، وظهرت أسرارها. . ومجال اختيار الألفاظ أولاً، وتكوين الجمل ثانياً، والربط بينها أخيراً هو سر التفاوت بين أديب وأديب. . إنه يتأثر بمنهج البحث، وشخصية الباحث التي تؤثر في ذوقه وأسلوبه. وكثيراً ما يتناول الأدباء موضوعاً واحداً من فنون القول في اختيار الألفاظ أو نظمها في جملها، أو ترتيب العناصر وصياغة التراكيب. . وإن وصلوا جميعاً إلى الغاية؛ فمنهم من يتوخى رقة الألفاظ، وسلاسة العبارة، وعذوبة الموسيقى كالبحتري، ومنهم من يؤثر الألفاظ الجزلة، والعبارة القوية المحكمة، والموسيقى الصاخبة كالمتنبي. ومن الكتّاب من يؤثر التوازن والازدواج كالجاحظ. ومنهم من يؤثر السجع والجناس والطباق كبديع الزمان.

٢ ـ الطبع والصنعة:

من الأدباء من يغلب عليه الطبع السمح، الذي يصله بأسباب البلاغة من غير جهد، فلا يغوص وراء المعاني، ولا يجري وراء الألفاظ المونقة إن تأبت عليه، ويكفي أن تتجه نفسه إلى الغرض، ليرسل القول على طبيعته، سيان عنده: أن جاء موجزاً أم مطنباً، مرسلا أم مسجعاً أم موشى بألفاظ الزخرف وصور الخيال، كابن المقفع وسهل بن هرون، ومنهم من غلبت عليه الصنعة فلا يسيل قلمه إلا في إطار من الزخرف، وعلى ديباجة من حرير؛ إذا تخيل أبدع، وإن صور أمتع، وإن سجع فدونه سجع الحمام؛ كابن العميد وبديع الزمان.

ومنهم من أغرم بهذا اللون ولم يسعفه الطبع؛ فراح يثقل أسلوبه بألوان الزخرف، ليعوّض ما فاته من الموهبة، حتى تعثرت «الحقيقة» في ثياب الزينة وضلت طريقها، أو كادت، في متاهات الخيال، كالحريري والقاضي الفاضل وأبي العلاء في بعْض رسائلهم المصنوعة.

من أجل هذا اختلفت أساليب الكتاب وسواهم من الأدباء باختلاف أمزجتهم وشخصياتهم الأدبية، وكلٌّ ميسَّر لما خُلِق له.

٣ ـ اللفظ والمعنى:

من النقاد من يرى القمة البلاغية في الألفاظ ويرى «أنها أغلى من المعنى ثمناً، وأعظم قيمة وأعز مطلباً؛ فإن المعاني موجودة في طباع الناس، يستوي فيها الجاهل والحاذق، ولكن العمل على جودة الألفاظ، وحسن السبك وصحة التأليف»[١].

ومن أنصار هذا الرأي «أبو عثمان الجاحظ» الذي يرى أن العبارة الجزلة الرائعة هي الذروة في البلاغة، أما المعاني فمطروحة في السوق والشارع يقع عليها الأعجمي والعربي، والسوقي والملكي، والمهذب والمثقف.

---

(١) العمدة جـ ١/٨٢ أسفاره بمصر.

وجاء من بعده على شاكلته أبو هلال العسكري، فقد أرجع سر البلاغة أيضاً إلى الألفاظ يقول: فإن كان الكلام قد جمع بين العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة واشتمل على الرونق والطلاوة وسلم من حيف التأليف وبعد عن سماجة التركيب، ورد على الفهم الثاقب فقبله ولم يرده، وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجه. والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه. . . مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف(١) وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صواباً، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما وصفناه من نعوته(٢).

وأبو هلال ـ وكذلك الجاحظ ـ لم يرسل القول على إطلاقه؛ بل قيده كما رأينا بصحة المعنى وهذا أمر طبيعي إذ لا خير فيما أجيد لفظه إذا سخف معناه، ولا في غرابة المعنى إلا إذا شرف لفظه.

هذا وقد ظن الدكتور زكي مبارك أن أبا هلال قد تراجع أو تناقض(٣) مع نفسه حينما قرر في موضع آخر أن المدار على إصابة المعنى وأن المعاني تحل من الكلام محل الأبدان، والألفاظ تجري معها مجرى الكسوة(٤).

ونرى أبا هلال لم يضطرب ولم يتناقض، وأنه ما زاد على أن أبرز شأن المعنى في العبارة: وهل يختلف اثنان في أن المعنى لب وجوهر واللفظ عرض وقشور ومع ذلك فاختيار الألفاظ وترتيبها ترتيباً ذوقياً هو ميدان العبقرية لأنها تعز على من رامها وتطول.

إن أبا هلال كان واضحاً صريح اللفظ في الافصاح عن رأيه فيما ذهب إليه بقوله: (إن الكلام إذا كان لفظه غثا، ومعرضه رثا كان مردوداً، ولو احتوى

---

(١) الصناعتين ص ٤٣.
(٢) ص ٤٤.
(٣) النثر الفني جـ ٢/١٠٩.
(٤) ص ٥١.

على أجل معنى وأنبله)[1].

ومنهم من يؤثر جانب «المعنى» ويراه أشبه بروح شفافة في جسد هو اللفظ، أو جسم حي مدثر بهذا الرداء من الألفاظ. . وإلى هذا الجانب وقف «ابن قتيبة»[2] مقرراً أن العبرة بكرم المعاني التي تحوي أفكاراً منظمة بريئة من الخطأ سريعة إلى الافهام. ومن ثم أطلق لسانه في أبيات كثير عزة.

ولما قضينا من مِنى كل حاجة ... ومسَّح بالأركان من هو ماسحُ
وشُدّتْ على حُدْب المهاري رحالُنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطى الأباطح[3]

يقول: (هذه الأبيات أحسن شيء مطالع ومخارج ومقاطع؛ فإذا نظرت إلى ما تحتها وجدتها: ولما قصينا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا الإبل الأنضاء، ومضى الناس، لا ينظر من غدا الرائحَ، ابتدأنا في الحديث وسارت المطى في الأبطح).

غير أن عبد القاهر الجرجاني[4] قد كشف عما في الأبيات من صدق الشعور. وجمال التصوير وروعة الخيال، وإن خلت من آيات الحكمة التي كان ينشدها ابن قتيبة.

أما الأستاذ الشايب فقد فصل ما أجمله الجرجاني وأفصح عن سر البلاغة في الأبيات بقوله: (والحق أن ابن قتيبة لم يحسن تحليل هذه الأبيات فمسخها مسخاً شنيعاً، وذهب بأصل جمالها الذي تراءى منه شيء في الألفاظ، وغفل عن باقيه، وذلك أنه لحظ جمال الأسلوب، وهذا شيء لا خلاف فيه، ثم تناول الأبيات من ناحية الحقيقة العقلية أو الأفكار فنفاها عنها، أو أنكر قيمتها المعنوية بناء على ذلك. ونقول إن هذه الناحية المعنوية لم يتوافر لها حكمة

---

(١) الصناعتين ٤٩.
(٢) الشعر والشعراء جـ ١/١١.
(٣) تروى للمعلوط السعدي
(٤) أسرار البلاغة ص ١٥.

سائرة، ولا نظرية جديدة، وهذا ليس بمحتوم. ثم نجده يغفل عنصرين من عناصر الشعر، ولعلهما أصل جماله (العاطفة والخيال).. هذه العاطفة تتراءى في أمل الحاج في المغفرة بعد أداء الفريضة وفي شوقهم إلى أوطانهم الأولى، وفي التآلف الذي يجمع بين السَّفْرْ فيدلون عليه بألطف الأحاديث وأخفها على النفوس... وقد صور هذه المشاعر بصور خيالية رائعة، فكنى بمسح أركان الكعبة واستلامها على الانتهاء من مناسك الحج، وعن الأخذ في العودة بشد الرحال على متون الإبل، وصور في البيت الثالث تهالك الناس راجعين، وتآلفهم سائرين)[1].

ولعل في طليعة من يؤثرون جانب المعنى، واضع علم البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، نلمح ذلك في قوله «لا شبه أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين ـ أو خلاف التحسين ـ تصعيد وتصويب»[2] وقوله: «إن مزية الألفاظ ليست لك حيث تسمع بأذنك، بل حيث تنظر بقلبك وتستعين بفكرك» وفي تفصيل ذلك أخذ يقول: (... فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعراً أو يستجيد نثراً، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي؛ بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده وفضل يقتدح العقل من زناده)[3].

هذه بعض وجهات النظر لأعلام النقد في القديم، وقد رأينا في عصرنا الحاضر من ينتصر لجانب اللفظ كالأستاذ مصطفى صادق الرافعي في قوله: «فصل ما بين العالم والأديب أن العالم فكرة والأديب فكرة وأسلوبها» والأسلوب الذي قر في أكثر النفوس ـ كما يرى الزيات ـ يطلق على الجانب اللفظي من الكلام[4].

---

(١) أصول النقد الأدبي ص ٢٢٩ ط ٣.
(٢) أسرار البلاغة ص ٣.
(٣) دلائل الإعجاز ص ٤.
(٤) دفاع عن البلاغة ص ٥٩.

ومنهم من ينتصر لجانب المعنى كالدكتور زكي مبارك استمع إليه يقول في الرد على أنصار اللفظ (وقد كان من القدماء من يرى أن البلاغة لا ترجع إلى المعاني؛ لأن المعاني في رأيهم يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي. وإنما ترجع البلاغة إلى جودة اللفظ وصفائه ودليل ذلك عندهم أن الخطب والأشعار الرائعة ما عملت لإفهام المعاني فقط؛ لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وأن الكلام إذا كان لفظه حلواً عذباً ومعناه وسطاً دخل في جملة الجيد، وإذا كان المعنى صواباً واللفظ بارداً دخل في جمل المستهجن الملحوظ. أما نحن فنلقى العجم والقرويين جانباً ونحصر البلاغة في جمهور المثقفين. ثم نقرر أن الألفاظ مِلك للجميع يجدونها حيث أرادوا في المعاجم والدواوين ولا يبقى موضعاً للجهد والعنت أو العبقرية إلا المعاني والأغراض، ومن العبث أن نظن أن البلاغة لا تخرج عن المناورات اللفظية، فإن هذا إسراف في تقدير الزخرف، وامتهان لصولة العقول. إن الألفاظ في مقدور كل شاعر وكل كاتب وكل خطيب، ولكن المعجز حقاً هو الفكرة وليس معنى هذا أننا لا نقيم وزنا للصناعة الفنية، ولكن معناه أننا نقرر أن الفكرة تجيء أولاً ويجيء الورق ثانياً كما يقول الفرنسيون)[1].

وفي موضع آخر يقول: «إن ألفاظ القرآن كألفاظ كل كلام عربي مبين لا تمتاز باللفظ ولا بالأداء وإنما تمتاز بالمعنى والغرض والروح»[2].

كان طبيعياً أن تشغل هذه القضية البلاغية أيضاً أدباء أوربا ونقادها، وأن يكون منهم من يؤثر اللفظ ومنهم من يؤثر المعنى، وقد نقل إلينا الأستاذ الزيات جانباً مما دار بين الطرفين في الأدب الفرنسي العريق: يقول: (كان «فلوبير» أمام الصناعة في فرنسا، أخذ نفسه بالتزام ما لا يلتزمه غيره، فكان لا يكرر صوتاً في كلمة، ولا يعيد كلمة في صفحة، وكانت أذنه هي الحكم الأعلى في صوغ الكلام فلا تستسيغ منه إلا ما حسن انسجامه، وتعادلت أقسامه، وتوازنت فقره)[3] ثم يشفع ذلك بما ذكره عنه تلميذه جي دي

---

(١) النثر الفني جـ ٢/٧٢.

(٢) المرجع السابق حـ ٧٣٢

(٣) دفاع عن البلاغة ص ٦٥.

موباسان[1] Gui de Maupassant من أنه «كان يرفع الصحيفة التي يكتبها إلى مستوى نظره وهو معتمد على مرفقه، ثم يتلو ما كتب جاهراً بتلاوته، مصغياً لإيقاعه فكان في نبره وإرساله يوفق بين السكنات والحركات، ويؤلف بين الحروف والكلمات، ويضع الفواصل في الجملة وضعاً دقيقاً محكماً فكأنها الاستراحات في الطريق الطويل»[2].

(كما أشار إلى الكنت دي بوفون Buffon ـ من أشهر كتاب فرنسا في القرن الثامن عشر ـ وإلى خطبته عن الأسلوب التي ألقاها يوم دخل الأكاديمية الفرنسية تلك التي قرر فيها أن الأفكار والحوادث والمكتشفات شركة بين الناس، ولكن الأسلوب من الرجل نفسه)[3].

كما أشار إلى عبارة «شاتوبريان» الواضحة التي صرح فيها بقوله:

(لا تحيا الكتابة بغير الأسلوب، ومن العناء الباطل معارضة هذه الحقيقة، فإن الكتاب الجامع لأشتات الحكمة يولد ميتاً إذا أعوزه الأسلوب).

أما بلاغة المعنى فقد وقف إلى جانبها الكاتب الذائع الصيت «إميل زولا» ينافح عنها بكل ما أوتي من قوة، ويناهض أنصار المعنى بكل ما أوتي من منطق ومن ذلك قوله:

(ليس من مطلق الحق ـ وإن عارض بوفون، وبوالو، وشاتوبريان، وفلوبير ـ أن الكاتب يكفيه أن يعنى كل العناية بأسلوبه ليشق له الأدب طريقاً يبقى على الأبد؛ إن الشكل عرضة للتغيير والزوال بسرعة، ولا بد للعمل الكتابي قبل كل شيء أن يكون حياً ولا يمكن أن يكون حياً إلا إذا كان حقاً، والكاتب لا يظفر بالخلود إلا إذا استطاع أن يوجد مخلوقات حية. . . . وهل نستطيع أن نتبين الكمال الفني في أسلوب هوميروس، وفرجيل، ونحن نقرأهما مترجمين[4]؟، أي أن روائع اليونان والرومان لم تخلد على الأيام إلا بمعانيها لا

---

(١) من أنصار المذهب الواقعي البارعين في الأقصوصة، عاش في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

(٢) دفاع عن البلاغة ص ٦٦.

(٣) المرجع السابق ص ٦٧.

(٤) دفاع عن البلاغة ص ٧٠.

بألفاظها، فلو كان خلودها منوطاً بدقة الصياغة ما عاشت بالترجمة. وفي الرد عليه يقول الأستاذ الزيات: الترجمة الصحيحة لا تنقل أفكار الكاتب أو الشاعر وحدها عن الأصل، إنما تنقل مع ذلك إشراق روحه، وسمو إلهامه، ولطف شعوره، ونمط تفكيره، وخصائص أسلوبه[1]. وهو بذلك قد أجهد نفسه وأجهدنا معه، وكان يكفيه في ذلك أن يأخذ بيد الكاتب المماري ويضعها على الحقيقة التي لا تخفى، وعندها سيرى أنها حجة عليه لا حجة له وذلك حينما تعقد الموازنة الأدبية بين هذه الروائع الخالدة في ثوبها الأصيل، وبينها في ثوبها المستعار، وسيرى أنها في الأصل أجمل منها ـ لا محالة ـ في الصورة. . . .، فإذا أتيح لها في العربية قلم يفيض عليها من بلاغته كقلم صاحب الإنيادة أو الإلياذة، اكتمل لها الفن من طرفيه وازدادت سمواً في أعين القراء والنقاد. . .

* * *

هذه هي «قضية اللفظ والمعنى» في القديم والحديث، والأدباء يتجهون بأساليبهم إلى حيث يميلون. ومن خلال ذلك تتراءى شخصياتهم الأدبية تطالع القارىء بروحها وطابعها، وتبدو واضحة المعالم فيما ينزعون إليه. . .

ترى. . . أين نحن من هذه القضية المزمنة؟ وما موقفنا من هؤلاء النقاد الذين كانوا، ولا يزالون مختلفين. . ؟؟

ليس هناك أدنى شك في أن الصلة بين اللفظ والمعنى، وثيقة الحلقات، محكمة الأواصر. وكيف لا تكون كذلك والعلاقة بين الدال والمدلول قائمة أبداً، لا تنفصم عراها. . . . فمتى انبثقت الأفكار في نفس الأديب، رتبها على ذوقه، واختار لها من الألفاظ ما يوائمها. . . تلك التي ينطلق بها اللسان، أو تسيل بها الأقلام. . . ومتى كانت العبارة أصيلة المعنى بارعة الخيال وكانت أيضاً مشرقة اللفظ، محكمة النظم، أمتعت القارىء أو السامع.

فإذا استطاع الأديب أن يطابق بين بلاغتي اللفظ والمعنى فقد جمع بين

---

(١) المرجع السابق ص ٧٢.

الحسنيين، ولا مجال للتعقيب عليه إلا بالحسنى، . . . أما إذا فرع في جانب دون جانب فإنه لن يسلم من ألسن الناقدين. . . وهنا يطفر السؤال المختوم، الذي كان ولا يزال ينتظر الجواب:

«أيهما أفصح: بلاغة اللفظ أم بلاغة المعنى؟»

ونرى أن جانب اللفظ هو الميدان الفسيح لفرسان البيان، إليه ينفرون، وفيه يتنافسون، ومن ثم كان مهد البلاغة والعبقرية. . . أما المعنى فيكفي أن يكون صواباً، ثم هو بعد ذلك محدود الأفق، ضيق المجال، لا يتسع لبراعة الأدباء «ألا ترى، لو أن رجلا أراد، في المدح، تشبيه رجل ما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر، وفي الإقدام بالأسد، وفي المضاء بالسيف، وفي العزل بالسيل، وفي الحسن بالشمس، فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد، الجامع للرقة والجزالة، والعذوبة والطلاوة، والسهولة والحلاوة، لم يكن للمعنى قدر»[1].

ومن ثم كانت العبرة بقوة الأداء التي تتطلب دقة التعبير، وانتقاء الكلمات، و«موسقة» الألفاظ؛ وإحكام الربط بين الجمل، والملاءمة بين الفواصل، وغير ذلك مما يجمل العبارة بألوان الزخرف، ويطرز حواشيها بأنواع البديع. . . ومتى أشرقت العبارة بكل هذا، أشرقت المعاني، وبدت صور الخيال رائعة في هذا الإطار اللفظي الجميل. . .

وإذ كانت الألفاظ أوعية المعاني كما يقولون، فإن الأديب البليغ هو الذي يعرف كيف يختار لمعانيه أنسب القوالب مادة، ولوناً، وهيئة. . أما المادة فهي الألفاظ، وأما الألوان فهي المحسنات البديعية، وأما الهيئة فهي الأسلوب. . . ، وكل هذا هو ميدان الذوق الخاص، ومجال الشخصية الأدبية، أما المعاني فهي صدى لما يعرفه الجميع، وقد يفيض بها القلب، ويضيق بها الصدر ولا ينطلق بها اللسان. . .

وإذا كان المعنى جسماً واللفظ ثوباً، ـ كما يقول انصار المعنى، فإن الجسم واحد على أية حال، ولكنه يبدو في أنماط مختلفة من الثياب، وأشكال عديدة

---

(١) العمدة جـ ٨٢/١.

من الأزياء، ولا جد لأكثرها. . . عديدة في مادتها، وألوانها، وملمسها. . . عديدة أيضاً في شكلها وهيئتها. .

ومتى تعددت الجوانب هكذا، اتسع مجال القول، وافتن الأدباء فيما يأخذون، والأديب الأريب هو الذي يختار لكل معنى لفظاً، ولكل لفظ حلية، ولكل حلية أسلوباً، كالخياط البارع الذي يهيىء لكل جسم ثوباً، ولكل ثوب وشياً. . . ومن لذلك غير أدباء اللفظ وأرباب البديع. . . ؟

كم من المواقف تزخر فيها النفوس بالخواطر، وتزدحم الصدور بالأفكار، فيقف أديب المعنى معقود اللسان، متعثر البيان، وما هكذا يكون أديب اللفظ، وكيف وهي منه على طرف الثمام. . ؟

* * *

في هذه الميادين الثلاثة تتجلى «**شخصية الأديب**». ، تطالعك بروحه وخلقه، وذوقه، ومذهبه، وثقافته. . . ومن هنا اختلفت الأساليب باختلاف الشخصية، وليس من العسير معرفة أعلام الكتابة أو مدارسهم من أساليبهم الخاصة؛ فأسلوب الجاحظ غير أسلوب ابن المقفع أو عبد الحميد، وهما غير أسلوب ابن العميد.

وفي عصرنا الحاضر تجلت الشخصية البارزة في أسلوب المازني والعقاد والرافعي والزيات، والبشري وطه حسين، ومن قبل تجلت شخصية المنفلوطي، في عبراته ونظراته، في أسلوبه الدامع الحزين.

تجلت شخصية المازني في الاستطراد والتهكم ورشاقة الألفاظ. . . وتجلت شخصية العقاد في رصانة الأسلوب، وعمق الفكرة، وتحليل الموضوع، وسلاطة اللسان إذا هجا، وصراحة القول إذا نقد.

أما الرافعي فهو جاحظ عصره، بعلمه الغزير، وبديع دهره، بألفاظه المنتقاة. . . وأما الزيات فهو أديب المقالة غير مدافع ولا منازع، يغزو الآذان

---

(١) العمدة جـ ١٢٧/١.

بجزالة اللفظ، وقوة الموسيقى. . . وبين العبارة المفخمة، والديباجة المشرقة تتراءى شخصيته الواضحة، وكأنها تنزع في قوس الخطباء.

وإذا كان أسلوب الرجل هو الرجل نفسه كما يقولون، أو من الرجل ذاته كما يقول (بيفون Buffon) فإن أسلوب (البشري) بجرسه ونبراته هو البشري بذاته وصفاته. . . ضاحك إذا داعب، لاذع إذا تهكم أو تندر، صارم إذا جد أو احتد. . . حتى لتحسبه «مصوراً كاريكاتورياً» يجسم المعالم، ويبرز القسمات.

وكذلك الدكتور طه حسين؛ فإن أسلوبه الهادىء الواضح هو قبس من نفسه الصافية وروحه الهادئة الوادعة. . . وإن شخصيته لتبدو بجلاء في سهولة الألفاظ وعذوبتها، والمزاوجة بين الجمل في يسر؛ والتكرار من غير إسفاف أو إملال والبسط والإيضاح من غير سأم. . . لا تجد لفظة نابية، ولا كلمة قلقة، ولا عبارة ملتوية أو معقدة، بل تطرد في هدوء اطراد الماء، وتمر على الآذان في خفة مر النسيم، فإذا هجا أوجع من غير جراح، وإذا رثى أشجى من غير نواح؛ وإذا رمى أصمى بلا سهام، وكأن حديثه السحر الحلال؛ وهذا هو «السهل الممتنع» كما يقولون.

ترى. . . علام طبعت شخصية الكتاب في العصر العباسي؟ وإلى أي حد ظهرت في الأساليب؟

هذا ما سنراه بعد التمهيد. . .

تمهيد

نشأة الكتابة وتطورها في الجاهلية والإسلام

الكتابة ـ خطيةً كانت أم فنية ـ أثرٌ من آثار الحضارة، ومظهرٌ من مظاهر العمران، ومن ثم غلبت الأمية على عرب الجاهلية؛ لما غلب عليهم من صفة التبدّي. فلما تحضر منهم من تحضر؛ باتصالهم بالأمم المجاورة شاعت بينهم الكتابة الخطية التي مهدت سبيل الكتابة الفنية، ثم ساعدت على ذيوعها ورقيها وخلودها على مر الأيام.

الكتابة الخطية:

هل شاعت بين عرب الجاهلية؟ وهل هي عربية النشأة؟ أم هل نقلت اليهم عن إحدى الأمم؟ وعمن نقلت؟

أنكر بعض المستشرقين[١] إلمام العرب القدامى بهذه الكتابة، ولكن الدلائل المختلفة تدحض ذلك، وتنطق بشيوعها بينهم، واصطناعهم لها في كثير من شؤون التجارة والسياسة... ففي الشعر القديم الموثق، فضلاً عن كتب التاريخ، وكذا في القرآن الكريم، إشارات كثيرة تدل على ذلك... يقول لبيد:

عفتِ الديارُ محلها فمقامها ... بمنىً تأبّد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرّى رسمها ... خلقا كما ضمن الوُحِيّ سلامها[٢]

(١) Nicholson: A Litt. Hist. of the Arabs (1930) P. 31.
(٢) الوحي: الكتابة، السلام: الحجارة.

وجــلا السيــول عن الــطلول كــأنها زبــرٌ تُجِــدّ مــتــونَها أقــلامُــهــا

والمرقش الأكبر يقول:

الــدار قــفــر والــرســوم كــما رقّش في ظــهــر الأديــم قــلم[١]

ويقول الأخنس التغلبي:

لابنــة حــطان بن عــوف منــازل كما رقّش العنوانَ في الرق كــاتبُ[٢]
ظللتَ بهــا أعــرى وأشعــر سخنــة كما اعتــاد محمــوما بخيبــر صالبُ

هـذا وقد أشار أبو الفرج[٣] إلى كُتَّاب الحيرة الذي أعد لتعليم الصبيان القراءة والكتابة، كما أشار البلاذري[٤] إلى هؤلاء الكتّاب الثمانية والعشرين الذين كانوا بمكة والمدينة قبل الإسلام... أما ابن قتيبة[٥] فقد أشار ألى إلمام بعض أعراب البادية بها؛ كأكثم بنى صيفي[٦] وابن أخيه حنظلة بن الربيع[٧] كاتب الرسول صلّى الله عليه وسلم، ولبيد بن ربيعة[٨]، والمرقش الأكبر[٩].

أما القرآن الكريم فقد ألمع إلى ذلك أيضاً في مواطن عدة.. قال تعالى يحث المؤمنين على كتابة الديون: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله، فليكتب، وليملل الذي عليه الحق﴾[١٠].

ومن الإشارات الصريحة إلى القلم والمداد والرق ما ورد في قوله تعالى:

---

(١) المفضليات.
(٢) المفضليات (هرون) ص ٢٠٤ ومنتهى الطلب جـ ١/ ٢٩٤.
(٣) الأغاني جـ ٢/١٠١.
(٤) فتوح البلدان ٤٧١.
(٥) عيون الأخبار جـ ١/٤٢.
(٦) مجمع الأمثال ٢/ ٨٧
(٧) الجهشياري ١٢
(٨) الأغاني ١٤/ ٩٣
(٩) الشعر والشعراء/ ٣٠.
(١٠) سورة البقرة (٢٨٢)

﴿ولـو أن ما في الأرض من شجـرة أقلام والبحـر يمده من بعـده سبعة أبحـر مـا نـفـدت كلمـات الله﴾[1]، وقـولـه ﴿والـطور وكـتـاب مـسـطور، في رق منشور. . .﴾[2].

ومن ذلك يتضح أن الكتابة الخطية كانت شائعة بين عـرب الجاهليـة، وبخاصـة بين من كانت تربطهم صلة بالأمم المجاورة؛ كـطائفة التجـار، والشعراء الـذين كانوا يفـدون على أمـراء التخوم مـادحين أو شـاكين أو معتـذرين. . . ومكة من قديم ـ كانت ولا تزال ـ أحد المراكز التجـارية الهـامة بـين الشرق والغـرب. . . أليست الكتـابة قيـداً لهذه المعـاملات التجـاريـة؟ فضـلاً عن أن طبيعـة التـطور نفسها تنحو بالأمم ناحية الكمال الذي يتطلب مثل هذا اللون من المعرفة.

نشأتها:

اختلفت الآراء حـول نشأة «الخط العـربي»؛ فمن قائـل بـأنـه يمني الأصـل، مجـزوم من الخط الحميري[3]؛ ومن قـائل بـأنه منقـول عن خط الأنبار[4] الـذي شاع في الحيرة، نقله إلى الحجـاز جماعـة من قريش منهم حـرب بن أمية[5] جـد معـاوية بن أبي سفيـان الـذي لقنهـا مـع غيـره عن بشر بن عبـد الملك الكنـدي أخي أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل.

وقـد ظل النـاس على ذلـك حتى ظهـرت أخيـراً بعض النقـوش النبـطيـة في (العلا ومدائن صالح) تقرر أن الخط العربي مشتق من الكتـابة النبـطية المـأخوذة عن الآراميـة، فـإن من يتتبـع هـذه النقـوش، من مهـدهـا الأول في (سلع وحوران) إلى موطنها الثاني في (العلا ومدائن صالح) إلى وطنهـا الجديـد في (بلاد الحجـاز) يلاحظ أن الحلقـة الوسـطى جـامعـة بـين مـلامـح الخـطين: الأصـل النبطي، والفرع العربي.

---

(١) سورة لقمان (٢٦)

(٢) سورة الطور

(٣) القاموس المحيط (مادة جزم)

(٤) أدب الكاتب للصولي/ ٣٠ ونهاية الأرب ٣/٧، والفهرست/ ٦

(٥) الجهشياري ص ٢.

ثم أخذت هذه الكتابة ـ كما يقول الدكتور خليل نامي ـ تتطور في الحجاز تبعاً لحركة التجارة التي تحتاج إلى السرعة والاختصار، وتتجه لهذه النهضة الأدبية التي قامت في بلاد الحجاز حتى أصبحت الكتابة النبطية تعرف باسم الكتابة العربية في أوائل القرن الخامس الميلادي[1].

ولما جاء الإسلام ساعد على ذيوعها بين العرب. . . أرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يهب الحرية لكل أسير إن هو علم عشرة من الصبيان[2] القراءة والكتابة؟ وباتساع الملك واستبحار العمر ان مست الحاجة إليها فكانت السفير المتنقل بين الخلفاء والولاة والقواد. ثم ما زالت تتطور وتأخذ في التجويد جيلاً بعد جيل حتى استقرت آخر الأمر في وضعها الراهن على يد «ابن مقلة» الخطاط، في أواخر القرن الميلادي التاسع.

الكتابة الفنية:

يراد بالكتابة الفنية ذلك اللون من التعبير الذي يفتنّ فيه الكاتب لإثارة المتعة الأدبية في نفس القارىء والسامع ليدركا ما أدركه، ويشعرا بشعوره، وقلما يأتي ذلك عفو الخاطر، من غير تروٍ أو تجويد. . .

درج الباحثون المحدثون على تجريد العصر الجاهلي من الكتابة الفنية في الوقت الذي يشيرون فيه إلى ازدهار غيرها من فنون القول. كالشعر والخطابة والحكم والأمثال. فإذا واجهتهم بنص مأثور فسّقوه بأدلة ظنية، وأحياناً من غير دليل.

ونرى أن من يجلّي في هذه جميعها لا يتعذر عليه أن يجول في ميدان الكتابة أيضاً متى دعت إليها الدواعي، وتهيأت لها الوسائل وهل الحكم والأمثال إلا ضرباً من ضروب الكتابة الموجزة.

ولئن جاز لنا أن نفصل فن الموسيقى عن فن النحت أو الرسم مثلاً، فلا

---

(١) أصل الخط العربي/١٠٦
(٢) فجر الإسلام ١٧١

يجوز لنا أن نفصل فن الكتابة عن فن الخطابة

نعم إن الكتابة تتكىء على قدر من الثقافة الفكرية، ولكن الثقافة ليست كل مقومات الكتابة[1] ومن ناحية أخرى: هل خلا العصر الجاهلي من معالم المعرفة بالكلية؟ وهل انفرد العرب في التاريخ القديم - كما يقول زكي مبارك - بالتخلف في ميادين العقل والمنطق والخيال؛ فلا يكون لهم نثر فني بعد الميلاد بخمسة قرون، ولغيرهم مثل ذلك قبل الميلاد بخمسة قرون[2]؟

ومهما تمادينا في الشك فيما وصلنا من نصوص جاهلية فماذا نقول في القرآن الكريم وهو من النثر الفني لا محالة ودليل لا يجحد على وجوده قبل الإسلام[3]؟ ولسنا مع القائلين بأنه ليس بشعر وليس بنثر وإنما هو قرآن. . . نعم هو قرآن في قوة الأداء وبلاغة التعبير، لكن العبارة نفسها - وهي مناط الحكم - من صميم النثر في أسمى درجاته الفنية وسمو الدرجة لا يخرجه عن دائرة النثر. وإلا فكيف يكون معجزاً لأرباب البيان وهو يجول في ميدان لم يطرقوه؟ ترى. . . إذا عجزنا عن مجاراة الجاحظ في رسائله أو البديع في مقاماته. . ألا يكون ذلك نثراً مع سمو منزلته وعجزنا عن مساماته؟

وإذاً فليس من الحكمة أن نشك فيما وصلنا من هذا التراث، بل الأولى أن نؤمن بضياع الكثير من نصوصه، وما ذلك على طول العهد بغريب، بل الغريب أن يجاور العرب الفرس ويعيش بعضهم في بلاط الأكاسرة زمنا ليس بالقليل، بين القماطر والدفاتر والمحابر ولا يكون لهم نثر أدبي.

وخاتمة القول: إن ما وصلنا من هذا التراث - فضلاً عن القرآن الكريم - دليل على ما كان للعرب من وجود أدبي في العصر الجاهلي حتى على افتراض الشك فيه ووضعه عليهم في عصور لاحقة. . إذ الوضع لا يكون إلا على مثال يحتذى، يحمل نفس الطابع، وله نفس السمات . . .

---

(١) أنظر ما قررناه في المدخل ص ٧

(٢) النثر الفني جـ ١/ ٣٤

(٣) المرجع السابق ص ٣٨.

أما من الناحية الفنية فإنه بالطبع ـ لم يبلغ درجة غيره من الفنون الأخرى. فقد كان للأمية التي جللت العصر أثر كبير في تعويقه كماً وكيفاً. . .

خصائصه :

يمتاز النثر الجاهلي من نثر العضور التالية بجزالة الألفاظ، وكثرة الغريب. وقصر الجمل المسجوعة وضعف الرابط بينها. أما العبارة فتفيض بالحكم والأمثال تتخللها الكنايات القريبة التي لا تند عن الأفهام، كما في رسالة المنذر[1] بن ماء السماء إلى أنوشروان في صفة جارية من سبي الروم كان قد أصابها في قتاله مع الغساسنة وفيها يقول :

« إني قد وجهت إلى الملك جارية، معتدلة الخلق ، نقية اللون والثغر[2]، بيضاء قمراء ، وطفاء[3] كحلاء ، دعجاء[4] حوراء عيناء ، قنواء[5]، شماء، برجاء، أسيلةَ الخد ، شهية المقبل، جثلة[6] الشعر: عظيمةَ الهامة ، بعيدة مهوى القرط[7]، عيطاءَ عريضة الصدر، كاعبَ الثدي، حسنة المعصم، لطيفة الكف، سبطة[8] البنان ، ضامرة البطن خميصة الخصر، غرثى[9] الوشاح،رداح الأقبال[10]،رابية الكفل، لفَّاء الفخذين ريا الروادف، ضخمة المأكتمين[11]، عظيمة الركبة، مفعمة الساق، مشبعة الخلخال، لطيفة الكعب

---

(١) هو المنذر الثالث بن امرىء القيس اللخمي عرفه الأدب منسوباً إلى أمه «ماوية» التي لقبت بماء السماء لجمالها. ولي إمارة الحيرة سنة ٥١٤.

(٢) الثغر: الأسنان

(٣) وطفاء = كثيفة شعر الحاجبين

(٤) دعجاء حوراء عيناء: صفات للعين بالسعة وشدة سواد المقلة في شدة بياضها.

(٥) قنواء: مرتفعة الأنف.

(٦) الشعر الجثل = الكثيف

(٧) كناية عن طول العنق، والجارية العيطاء ذات العنق الطويلة أيضاً.

(٨) السبط = الطويل

(٩) الغرث = الجوع، كناية عن ضمور البطن ودقة الخصر.

(١٠) رابية الوركين

(١١) المأكمة = الردف

والقدم، قطوف[1] المشي، مكسال الضحى[2]، بضة[3] المتجرد، سموعاً للسيد، ليست بخنساء ولا سعفاء، رقيقة الأنف، عزيزة النفس، لم تغذ في بؤس، حبيّة حصينة[4] رزينة، حليمة ركينة[5]، كريمة الخال، تقتصر على نسب أبيها دون فصيلتها، وتستغني بفصيلتها دون جماع قبيلتها، قد أحكمتها الأمور في الأدب، فرأيها رأي أهل الشرف، وعملها عمل أهل الحاجة . . . » .

ولعل من أبرز الخصائص أيضاً أنه كان يجمع أحياناً بين الشعر والنثر : لفطرتهم الشاعرية التي طبعت عليه ؛ بل ربما قامت الرسالة بأكملها على الوزن والقافية كما في رسالة عدي بن زيد ـ وهو في سجن النعمان بن المنذر ـ إلى أخيه أبيّ وهو في بلاط كسرى ورد أخيه عليه[6] .

دارت الكتابة في هذا العصر بين أمراء العرب وملوك الفرس ـ كما رأينا ـ وبينهم وبين عمالهم في الأقاليم كصحيفة «المتلمس» التي بعث بها عمرو بن هند إلى عامله بالبحرين، كما دارت حول الأحلاف التي كانت تعقد بين رؤساء العشائر، لأغراض حربية كصحيفة التحالف بين عبد المطلب بن هاشم، وبين خزاعة، وغير ذلك من الرسائل التي طُويت صفحتها قبل أن تطوى صحيفة العصر.

الكتابة في الإسلام:

الكتابة ـ كغيرها من الفنون ـ لا تنهض فجأة، ولا تنضج إلا على نار الزمن مهما تهيأت لها الوسائل والدواعي.

---

(١) قطوف المشي = مشيها متقارب الخطو

(٢) كناية عن الترف ومثلها نؤوم الضحى.

(٣) رخصة

(٤) عفيفة

(٥) رزينة

(٦) أنظر جمهرة الرسائل جـ ١/١٠، ١١.

ومنذ بداية هذا القرن وعوامل النهضة تمهد لها الطريق . . فهي قد تأدبت بآداب الإسلام ، وتأثرت بأساليب القرآن ، ودرجت إلى حد ما في مدارج الحضارة الجديدة التي هي مزيج من حضارة الإسلام وحضارة الفرس والروم . . تلك الحضارة التي تمخضت عن إنشاء ديوان خاص بها عرف « بديوان الرسائل » . وضع أساسه عثمان ، ورفع من قواعده معاوية .

ومع أن ثمارها لم تنضج ألا في العصور التالية ، فإن هذا القرن لم يخل أيضاً من نماذجها الفنية : رسمية كانت أم خاصة .

١ - الرسائل الرسميَّة :

ونعني بها الرسائل الخاصة بشؤون الدولة في الداخل والخارج . . . والديوان مصدرها، وموردها، ولهذا سميت أيضاً «بالرسائل الديوانية» بدأت برسائل الدعوة إلى الإسلام ، والأحلاف التي كانت بينه صلى الله عليه وسلم وبين المشركين وكذا كتب الأمان والعطاء . . . .

كانت تبتدىء غالباً بالبسملة[١] مشفوعةً باسم المرسل والمرسل إليه (من فلان إلى فلان) ثم السلام[٢] والتحميد غالباً . . كانت تميل إلى الإيجاز أيام الخلفاء الراشدين، كما كانت تميل إلى الاقتباس من القرآن الكريم . . أما السجع أو الازدواج فكانا بقدَر . . . نلمح ذلك في كتاب أبي بكر الصديق إلى أهل اليمن ، يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله بقوله :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من قُرىء عليه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين من أهل اليمن .

سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد : فإن الله كتب على المؤمنين الجهاد ، وأمرهم أن ينفروا خفافاً وثقالاً ، وقال

---

(١) بدئت معاهدة الحديبية بقوله «باسمك اللهم» مجاراة لما كان عليه قريش

(٢) فإذا وجه الكتاب إلى غير المسلمين استبدلوا بها «السلام على من اتبع الهدى».

« جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله » فالجهاد فريضة مفروضة، وثوابه عند الله عظيم . وقد استنفرنا من قبلنا من المسلمين إلى جهاد الروم بالشام ، وقد سارعوا إلى ذلك وعسكروا وخرجوا ، وحسنت في ذلك نيتُهم ، وعظمت في الخير حسبتهم[١]. . . فسارِعوا عباد الله إلى ما سارعوا إليه ، ولتحسنْ نيتكم فيه ، فإنكم إلى إحدى الحسنيين : إما الشهادةُ وإما الفتح والغنيمة ، فإن الله تبارك وتعالى لم يرض من عباده بالقول دون العمل ، ولا يترك أهل عدوانه حتى يدينوا بدين الحق ، ويقروا بحكم الكتاب ، أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، حفظ الله لكم دينكم ، وهدَى قلوبَكم ، وزكىّ أعمالكم ، ورزقكم أجر المجاهدين الصابرين والسلام عليكم»[٢].

ديوان الرسائل :

حينما آلت الخلافة لبني أمية ، اتجه معاوية إلى جعلها ملكاً عضوضاً وراثياً في أبنائه ، واقتضى ذلك بعض التنظيمات الإدارية الدائمة دوام الملكية ، ومنها شؤون الكتابة ـ فنظم لها هذا الديوان ـ واسندت شؤونه إلى مروان بن الحكم ـ الذي كان على رأس كتبة عثمان ـ وعبد الله بن أوس[٣] .

ثم إنتقلت فكرة الديوان من العاصمة إلى الأقاليم فكان يكتب لزياد ابن أبيه ، عبدُ الله بن أبي بكرة ، وجُبير بن حية[٤] وفي عهد عبد الملك كان يكتب لزيد بن المهلب ، يحيى بن يَعمر[٥].

ومما هو جدير بالذكر أن شؤون هذا الديوان كانت بيد العرب أول الأمر ، وهذا أمر طبيعي ، ثم أخذت تنتقل بالتدريج إلى أيدي «الموالي» أولئك الذين انقطعوا لها ، واستطاعوا بلباقتهم الفارسية ـ بعد أن حذقوا اللغة العربية .

---

(١) الحسبة : الأجر
(٢) فتوح الشام/ ٥ وتهذيب تاريخ ابن عساكر ١/ ١٢٨ .
(٣) الجهشياري ٢٣
(٤) المرجع السابق / ٢٦
(٥) المرجع السابق / ٤١ .

وتمرسوا بأساليبها ـ أن يصلوا حبالهم بحبال الخلفاء والولاة، كأبي الزُّعيزعة مولى عبد الملك بن مروان، وعبد الله بن المقفع الذي كتب لداود بن علي، وسالم مولى هشام، وابنه عبد الله، وعبد الحميد بن يحيى الذي كتب لمروان الثاني والذي بدئت به الكتابة كما يقولون.

كان هذا الديوان عربي المنبع كما أسلفنا، ثم أمدته فيما بعد روافد فارسية وأخرى يونانية عمّقت مجراه، وأخصبت واديه...

* * *

كان الخلفاء والولاة أول الأمر لا يطمئنون إلى كتّابهم في مهام الأمور، فكانوا يُملون عليهم الرسائل الخطيرة التي تتعلق بسياسة الدولة، وربما عهدوا إليهم ثم نقضوا عهدهم إن رأوا منهم قصوراً، أو كانوا لا يراعون مقتضى الحال... فهذا عبد الله بن زياد يعيب الإطالة على كاتبه عمرو بن نافع، حينما كتب إلى الخليفة بمقتل الثائرَيْن: مسلم بن عُقيل وهانىء بن عروة المرادي... وقال له: ما هذا التطويل؟ وما هذا الفضول؟ اكتب:

(أما بعد: فالحمد لله الذي أخذ لأمير المؤمنين بحقه، وكفاه مؤونة عدوه. أخبرُ أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أن مسلم ابن عقيل لجأ إلى دار هانىء بن عروة المرادي، وأني جعلت عليهما العيون، ودسست إليهما الرجال، وكدتهما حتى استخرجتهما، وأمكن الله منهما، فقدمتهما. فضربت أعناقهما، وقد بعثت إليك برأسيهما مع ابن أبي حية الهمداني والزبير بن الأروح التميمي، وهما من أهل السمع والنصيحة، فليسألهما أمير المؤمنين عما أحبّ من أمر؛ فإن عندهما علماً وصدقاً وفهماً وورعاً والسلام[1].

وعلى أية حال فإن شخصية الكتاب الرسميين قد أخذت تدريجياً في الظهور، وكان ذلك إيذاناً بنهضة الكتابة، واصطباغها بصبغة فنية

(١) الطبري ٢١٤/٦

واضحة. . . . أرأيت يحيى بن يعمر العدواني - كاتب يزيد بن الملهب في خراسان - يكتب إلى الحجاج باستسلام الأعداء في هراة، فلا يقنع بدارج الألفاظ ومألوفها حتى جره التأنق والدقة في إختيارها إلى الغريب كما في رسالته:

(إنا لقينا العدوَّ، فقتلنا طائفة، وأسرنا طائفة، ولحقت طائفة بعرائر[1] الأودية، وأهضام[2] الغيطان، وبتنا بعرعرة الجبل، وبات العدو بحضيضه فلما قرأ الحجاج الكتاب قال: ما يزيد بأبي عذرة هذا الكلام. فمن هناك؟ قيل: يحيى بن يعمر فكتب إلى يزيد بن المهلب أن يُشخصه[3].

ولما آلت أمور الكتابة في أخريات القرن إلى «الموالي» دخلت في طور جديد- كما سنرى - وربما صدرت عنهم الرسائل ممهورة بتوقيعاتهم، ومن ذلك ما كتبه عبد الله بن سالم عن الخليفة هشام إلى خالد بن عبد الله القسري والي العراق، حينما أفرط في الدّالة على الدولة، واحتجن الأموال عن بيت المال، فقد رواها أبو العباس في كاملة مذيلة بهذه العبارة.

« وكتب عبد الله بن سالم سنة تسع عشرة ومائة »[4].

وإذ قامت الخلافة على أصل ديني - كما نعلم - فطبيعي أن يصدر عن هذا الديوان أيضاً هذه الرسائل الدينية التي تأمر بالعدل والإحسان، أو تحث المسلمين على أداء الفرائض. كرسالة عمر بن عبد العزيز إلى أهل الأمصار في الأنبذة[5]. تلك التي يقول فيها:

(أما بعد: فإن الناسَ كان منهمْ في هذا الشراب المحرم أمرٌ ساءت فيه رغبةُ كثير منهم، حتى سفه أحلامهم، وأذهب عقولهم، فاستحل الدمَ الحرام،

---

(١) عرائر الاودية = أسافلها
(٢) الاهضام: جمع هضم وهو المطمئن من الأرض.
(٣) البيان والتبيين جـ ٢٠١/١.
(٤) الكامل: جـ ٢٩٧/٢.
(٥) العقد جـ ٣٣٧/٣

وفرجَ الحرائر، وإن رجالا منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون: شربنا طلا[1] فلا بأس علينا في شربه، ولعمري إن فيما قرأت مما حرم الله بأساً. وإن في الأشربة التي أحل الله من العسل والسويق[2] والنبيذ من الزبيب والتمر لمندوحةً عن الأشربة الحرام.. غير أن كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا ينبذ إلا في أسقية الأدم، ولا يشرب منها ما يسكر، فإنه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عن شرب ما جُعل في الجرار والدباء، والظروف المزفتة وقال «كل مسكر حرام» فاستعينوا بما أحل لكم عما حرم عليكم... فمن يطع منكم فهو خير له، ومن يخالفْ إلى ما نهى عنه نعاقبه على العلانية، ويكفينا الله ما أسر، فإنه على كل شيء رقيب، ومن استخفى بذلك عنا، فإن الله أشد بأساً وأشد تنكيلاً).

وكذلك الرسائل التي تمكن لهذا الدين الحنيف، ومناهضة أعدائه المارقين الذين خبّوا في مسألة «الجبر والاختيار» ووضعوا، مما دعا عمر بن عبد العزيز أن يكتب إلى منكري القدر بقوله:

(... ويلغكم أني أقول: إن الله قد علم ما العباد عاملون، فأنكرتم ذلك وقد قال تعالى: «إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون» وقال: «ولو رُدّوا لعادوا لما نهوا عنه»، وزعمتم في قول الله «فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» أن المشيئة في أيّ ذلك أحببتم: من ضلال وهدى. والله يقول: «وما تشاءون إلا أن يشاء الله ربُّ العالمين» فبمشيئته لهم شاءوا، وقد حرصت الرسل على هدى الناس جميعاً، فما اهتدى إلا من هداه الله وحرص إبليس على ضلالتهم جميعاً، فما ضلَّ منهم إلا من كان في علم الله ضالاً وأنكرتم أن يكون سبق لأحد من الله ضلالة أو هدى، وإنكم الذين هديتم أنفسكم من دون الله، وحجرتموها عن المعصية بغير قوة من الله، ومن زعم ذلك منهم فقد غلا في القول: لأنه لو كان شيء لم يسبق في علم الله وقدره لكان له في ملكه شريكٌ

(١) الطلا: ما طبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه.
(٢) السويق = شراب يعمل من الحنطة والشعير.

تنفذ مشيئته في الخلق دون الله. والله يقول: ﴿حبّبَ إليكم الإيمانَ وزّينه في قلوبكم، وكرّه إليكم الكفرَ والفسوقَ والعصيانَ﴾ وسميتم نفاذ الله في الخلق حيفاً، وقد جاء في الخبر «إن الله عز وجل خلق آدم، فنثر ذريته بين يديه، فكتب أهلَ الجنةِ وما هم عاملون، وكتب أهلَ النارِ وما هم عاملون»[1].

٢ ـ الرسائل الخاصة:

ونعني بها الرسائل الشخصية التي لا تتعلق بشؤون الدولة العامة، وقد جرى العرف بتسميتها «الرسائل الإخوانية» غير أننا آثرنا هذه التسمية؛ لأنها أحياناً تخلو من المودة والأخاء، وقد تفيض بالتهكم والتجريح، كرسالة معاوية إلى الحسين حينما أعتق جاريته وتزوجها... فقد كتب إليه يقول:

«من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن علي.

«أما بعد. فإنه بلغني أنك تزوجت جاريتك، وتركت أكفاءك من قريش، ممن نستحسنه للولد، وتمجد به في الصهر، فلا لنفسك نظرتَ، ولا لولدك انتقيت.

فكتب إليه الحسين:

«أما بعد فقد بلغني كتابُك وتعييرك إياي بأني تزوجت مولاتي وتركت أكفائي من قريش، فليس فوق رسول الله صلى الله عليه وسلم منتهى في شرف، ولا غايةٌ في نسب، وإنما كانت مِلك يميني، خرجت عن يدي بأمر التمست فيه ثوابَ الله تعالى، ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وقد رفع الله بالإسلام الخسيسةَ، ووضع عنا به النقيصة، فلا لوم على امرىء مسلم إلا في مأثم: وإنما اللوم لوم الجاهلية.

فلما قرأ معاوية الكتاب نبذه إلى يزيد فقرأه وقال: لشد ما فخر عليك الحسين! قال: لا. ولكنها ألسنة بني هاشمِ الحداد، التي تفلق الصخر وتغرف

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي/ ٦٨.

من البحر[1].

لم يحتفظ التاريخ الأدبي إلا بالقليل من هذه الرسائل - في الشكر والنصح والعتاب، والتعزية والاعتذار - لأنها أدب خاص لا يتصل بقصور الخلافة، والنقاد والمؤرخون قصروا جهدهم - إلى حد ما - على ما يتصل بالبلاط، ولو أنصفوا ما أغفلوا هذا اللون العاطفي الذي يفيض بالحيوية وينبض بالقوة، وكيف لا يكون كذلك وهو الأدب الطليق الصادق، الذي ينبع من الشعور ويترجم عن العاطفة؟ تلمح ذلك جلياً فيما كتبه محمد ابن الحنفية إلى أخيه الحسين بن علي يعاتبه على جفوته. . . .

(من محمد بن علي إلى أخيه الحسين بن علي.

أما بعد. فإن لك شرفاً لا أبلغه، وفضلاً لا أدركه، فإن أمي من بني حنيفة، وأمكِ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان ملء الأرض نساءً مثل أمي لما وفين بأمك، فإذا قرأت رقعتي هذه فالبسْ رداءك ونعليك، وسرْ إليَّ لترضيني، وإياك أن أسبقك إلى هذا الفضل الذي أنت أولى به مني والسلام)[2].

غير أن رسائل النصح والإرشاد خاصة، قد صبغت بصبغة دينية ضمنت لها البقاء، ألسنا في بداية عصر الإسلام؛ حيث العقيدةُ الحارةُ، والغيرَةُ الدينية الواضحة.

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز - الذي كان ينشد العدل ويتحرى الإنصاف - كثر الوعاظ وأكثروا، ولهم من الخليفة قدوة حسنة.

يقول الرواة: لما ولي الخلافة كتب إلى الحسن البصري - إمام البصرة - أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل، فكتب إليه:

إعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قِوام كل مائل، وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونصفة كل مظلوم، ومفزع كل

(١) زهر الآداب جـ ٧٢/١.

(٢) غور الخصائص الواضحة ص ٣٨٣.

ملهوف، والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالراعي الشفيق على إبله، والرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويكنفها من أذى الحر والقر. . . والإمام العادل يا أمير المؤمنين ـ كالأب الحاني على ولده. يسعى لهم صغاراً، ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدخر لهم بعد مماته، والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها حملته كرها، ووضعته كرها، وربته طفلاً، تسهر بسهره وتسكن بسكونه ترضعه تارة، وتفطمه أخرى. . . والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ وصي اليتامى وخازن المساكين. . . . والإمام العدل ـ يا أمير المؤمنين ـ كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده. . . والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده. يسمع كلام الله ويسمعهم. وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم. فلا تكن يا أمير المؤمنين ـ فيما ملكك الله ـ كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرّد العيال. . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش، فكيف إذا أتاها من يليها، وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده، فكيف اذا قتلهم من يقتص لهم؟ واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، ويسلمونك في قعره وحيداً فريداً، فتزودْ له بما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه، وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه»[1].

أسلوب الرسائل في هذا القرن:

أخذت الرسائل في هذا القرن تتجه شيئاً فشيئاً نحو الجمال الفني، نلمح ذلك فيما كانوا يصطنعونه من تشبيهات ومجازات لا تأتي عفو الخاطر، ولا تصدر إلا عن روية وتفكير. . . ارأيت الى عثمان بن عفان، في رسالته إلى معاوية حينما اشتعلت الفتنة الكبرى وهو يقول:

---

(١) العقد: ١٢/١، الحسن البصري لابن الجوزي ٥٦

« إن الفتنة قد أخرجت خُطمها[1] وعينيها، فلم يبق إلا أن تثب، فلا تنكأ القرح[2]، وجهزْ أبا ذر إليَّ وأبعث معه دليلاً، وزوّده، وأرفق به، وكفكف الناس ونفسك ما استطعت: فإنما تمسك ما استمسكت[3] »

وهل قرأت رسالة معاوية إلى زياد بعد مقتل علي، طالباً إليه أن ينفض يده من يد الحسن بن علي، ويعود إلى طاعته؟ وفيها يقول:

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن عبيد. . .

(أما بعد؛ فإنك عبد قد كفرت النعمة، واستدعيت النقمة، ولقد كان الشكر أولى بك من الكفر، وإن الشجرة لتضرب بعرقها، وتتفرع من أصلها، إنك لا أم[4] لك بل لا أب لك ـ قد هلكت وأهلكت، وظننت أنك تخرج من قبضتي، ولا ينالك سلطاني. هيهات! ما كل ذي لب يصيب رأيه، ولا كل ذي رأي ينصح في مشورته، أمسِ عبدٌ واليوم أمير. .! خطة ما ارتقاها مثلك يا بن سُميّة.

وإذا أتاك كتابي هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة، وأسرع الإجابة، فإنك إن تفعل فدَمَك حقنتَ، ونفسَك تداركتَ، وإلا اختطفتك بأضعف ريش[5]، ونلتك بأهون سعي، وأقسم قسماً مبروراً أن لا أوتي بك ألا في زّمارة[6]، تمشي حافياً من أرض فارس إلى الشام، حتى أقيمك في السوق، وأبيعك عبداً، وأردك إلى حيث كنت فيه، وخرجت منه والسلام».

فلما ورد الكتاب على زياد غضب غضباً شديداً وكتب إلى معاوية: «أما بعد: فقد وصل إلى كتابك يا معاوية، وفهمت ما فيه، فوجدتك كالغريق

---

(١) الخطم: جمع خطام وهو الزمام

(٢) نكأ المقرح: قشره قبل أن يبرأ

(٣) الطبري ٥/ ٦٦

(٤) لا أم لك: سب معناه لا أم حرة لك.

(٥) يريد بأضعف قوة، وكانوا يلصقون الريش بالسهم ليسددوه، ومنه راش السهم يريشه إذا ركب عليه الريش.

(٦) الزمارة = القيد.

يغطيه الموجُ فيتشبث بالطحلب، ويتعلق بأرجل الضفادع طمعاً في الحياة، إنما يكفر النعمَ، ويستدعي النقمَ من حادّ الله ورسوله، وسعى في الأرض فساداً. فأما سبك لي فلولا حلم ينهاني عنك، وخوفي أن أُدعى سفيهاً، لأثرت لك مخازيَ لايغسلها الماء، وأما تعييرك لي بسُميّة، فإن كنت ابن سمية فأنت ابن حمامة[1]، وأما زعمك أنك تختطفني بأضعف ريش، وتتناولني بأهون سعي، فهل رأيت بازياً يفزعه صغير القنابر[2]؟ أم هل سمعت بذئب أكله خروف؟ فامض الآن لطيتك؛ وأجهد جهدَك فلست أنزل إلا بحيث تكره؛ ولا أجتهد إلا فيما يسوءك، وستعلم أينا الخاضع لصاحبه؛ الطالع إليه؛ والسلام»[3].

وهل قرأت أيضاً كتاب يزيد إلى أهل المدينة حين أجمعوا على الخلاف عليه؟ استمع إليه يقول:

(أما بعد: «فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له؛ وما لهم من دونه من وال؛». وإني والله قد لبستكم فأخلقتكم؛ ورفعتكم على رأسي؛ ثم على عيني ثم على فمي. وأيم الله. لئن وضعتكم تحت قدمي لأطأنكم وطأة أقلُّ بها عدَدكم؛ وأتركُكم بها أحاديث؛ تُنتسخُ أخباركم مع أخبار عاد وثمود)[4].

ثم استمع إلى الحجاج ـ في أيام عنفوانه ـ يكتب إلى الوليد ابن عبد الملك:

«إني أيقظت رأيي وأنمت هواي[5]» فلما حضرته الوفاة بعث إليه مستغفراً: «أما بعد: فقد كنت ارعى غنمك؛ وأحوطها حياطة الناصح الشفيق برعية مولاه، فجاء الأسدُ فبطش بالراعي؛ ومزّق المرعى كل ممزق. وقد نزل بمولاك

---

(١) روى ابن أبي الحديد في شرحه (م ١: ص ١٥٧) أن حمامة جدة معاوية أم أبي سفيان وأنها كانت بغيا في الجاهلية.

(٢) البازي، واحد البزاة التي تصيد، ضرب من الصقور، القبر كسكر: ضرب من العصافير، واحدته قبرة؟ والقنبراء واحدة القنابر.

(٣) شرح ابن أبي الحديد (م ٤ : ص ٦٨).

(٤) صبح الأعشى ٦/ ٣٩٠، والعقد الفريد ٢/ ٢٥٦.

(٥) العقد الفريد ١/ ٨

ما أنزل بأيوب الصابر؛ وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفراناً لخطاياه؛ وتكفيراً لما حمل من ذنوبه)[1].

هذه مقتطفات يسيرة نسوقها في معرض الرد على من ينكرون تنميق الرسائل في هذا القرن؛ كدليل ينطق بما كان عليه القوم من تروٍ وتفكير وتحبير...

لقد أفصح عن ذلك الإمام علي بأصرح لفظ حينما بعث إليه معاوية يقول: «إني أحذرك أن تحبط عملك وسابقتك؛ بشق عصا هذه الأمة وتفريق جماعتها، فاتق الله؛ واذكر موقف يوم القيامة، وأقلع عما أسرفت فيه؛ من الخوض في دماء المسلمين.. وأغمد سيفك عن الناس؛ فقد والله أكلتهم الحربُ؛ فلم يبق منهم إلا كالثمد في قرارة الغدير؛ والله المستعان)[2].

ألا ترى أن الإمام أجابه عما يكشف عن سر هذه الصنعة المقصودة التي أراد بها أن يستر نزعاته ونزواته... ألا تراه يقول (أما بعد، فقد أتتني منك موعظةٌ موصلة؛ ورسالة محبرة؛ نمقتها بضلالك؛ وأمضيتها بسوء رأيك...)[3].

على أن هؤلاء الكتّاب الذين جنحوا ببلاغتهم نحو هذا اللون من البيان قد خلت رسائلهم من محسنات البديع التي يميل إليها أهل الحضر، ومن ثم طبعت على البساطة، فلا مبالغة ولا تهويل، ولا تصنع ولا تكلف اللهم إلا ما جاء عفو الخاطر من سجع أو ازدواج أو غيرهما من ألوان البديع.

أما رسائل «الوعظ والإرشاد» فقد حفلت بشيء من ذلك. ومع هذا فلا تكاد تحسه أو تشعر به؛ لقصر فقراته، وإطراد موسيقاه... نلمح ذلك في رسالة علي بن أبي طالب إلى واليه بمصر «محمد بن أبي بكر» وفيها يقول.

(.... وأعلموا عباد الله أن الموت ليس منه فوت، فاحذروه وأعدوا له

---

(١) ذيل الأمالي ١٧٢.

(٢) شرح ابن أبي الحديد م ٣٠٢/٣.

(٣) المرجع السابق.

عدته فإنكم طرداء الموت: إن أقمتم أخذكم، وإن هربتم أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلكم، معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من خلفكم.

واعلموا أن ما بعد القبر أشد من القبر، يوم يشيب فيه الصغير، ويسكر فيه الكبير، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، واحذروا يوماً عبوساً قمطريراً، كان شره مستطيراً. . . . فزعتْ منه الملائكة الذين ليس لهم ذنوب، والسبع الشداد والجبال والأوتاد، والأرضون والمهاد، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية، وتغيرت فكانت وردة كالدّهان، وكانت الجبال سراباً بعدما كانت صُمّاً صلاباً، يقول سبحانه وتعالى: ﴿ونُفخ في الصور فصعق مَن في السموات ومَنْ في الأرض إلا من شاء الله﴾. . . .

واعلموا عباد الله أن ما بعد ذلك اليوم ادهى وأشد: نار قعرها بعيد وحرها شديد، وعذابها جديد ومقامها حديد، وشرابها صديد، لا يفتر عذابها، ولا يموت ساكنها. . .)[1].

أما الاقتباس من القرآن الكريم فكان فيها بقدَر إذا قيس بالخطابة، ومن ثم كان كثيراً في الرسائل التي هي بالخطب أشبه، كرسالة على السابقة، ورسالة عثمان بن عفان إلى الحجيج الأعظم؛ تلك التي بعث بها في عامه الأخير؛ فقد صدّرها بصفحتين كاملتين لا تقع العين فيهما إلا على آيات الله البينات يأخذ بعضها بحجز بعض، وما زاد الخليفة على أن جمعها وألف بينها.

أما الأسلوب: فقد طبع على الإرسال، والإيجاز المحكم؛ فلا حشو ولا فضول، ولا استطراد ولا تفريع. وهذا ما كانت عليه اللغات السامية قاطبة قبل اختلاطها باللغات الآرية، غير أنهم كانوا يخرجون عن ذلك في الأمور الخطيرة، والمواقف الهامة؛ كأمور الدين أو الخلافة، وعندها تفيض الرسالة بالحكم والأمثال ليزداد الأمر وضوحاً وتأييداً. .

ذكروا أن عثمان بن عفان حينما استطار لهيب الفتنة، وأحاط الثوار بداره يهتفون باسم علي وينادون بخلافته. . كتب إليه يقول:

---

(١) شرح ابن أبي الحديد م ٢/ ٢٦

«أما بعد: فقد بلغ السيلُ الزّبي؛ وجاوز الحزامُ الطبيين[1]؛ وتجاوز الأمر بي قدرَه؛ وطمع فيَّ من لا يدفع عن نفسه.

وإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيفٍ ولم يغلبك مثل مُغلبِ

ورأيت القوم لا يقصرون دون دمى؛ فأقبل إليَّ، على أي أمريك أحببت: معي كنت أم عليّ، صديقاً كنت أم عدواً:

فإن كنتُ مأكولاً فكن خير آكلي وإلا فأدركني ولما أمزّقِ[2]

---

(١) الطبي: الضرع، مثل يضرب عند بلوغ الشدة منتهاها.

(٢) مجمع الأمثال ١/١١١، إعجاز القرآن ١/١٠٥.

ديوان الرسائل بين العرب والعجم

منذ قيام الدولة الأموية استقرت شؤون الكتابة في ديوان خاص بها، هو «ديوان الرسائل» الذي نظّمه معاوية كما ذكرنا.

ولم يمض غير قليل حتى اصطنعه، في الأقاليم، بعضُ الولاة، فكان يكتب لزياد بالعراق عبد الله بن أبي بكرة(1) وجبير بن حية(2). . غير أن الخليفة أو الوالي ـ في أول الأمر ـ كان حريصاً على أن يملي الرسائل بنفسه على كاتبه في مهام الأمور، ومن ثم تضاءلت بجواره شخصية الكاتب. . . فلما اتسعت شؤون الدولة، وكثرت أعباء الحكم، اضطر الخلفاء الى أن يتركوا هذه المهمة لأربابها؛ مما مهد لظهور طبقة من الكتاب ـ داخل الديوان وخارجه ـ همّها الإجادة والافتنان، ليتسع لهم الديوان من ناحية، ولينالوا الحظوة لدى الخلفاء من ناحية أخرى.

كانت مقاليد الديوان ـ أول الأمر ـ بيد العرب؛ وكان عبيد الله بن أوس(3) أول من تولى شؤونه في أيام معاوية ـ غير أن «الموالي» وهم من بيدهم زمام الخراج ـ نافسوا العرب أيضاً في هذا الديوان الذي عرف **«بديوان**

(1) الجهشياري/ ٢٦
(2) الجهشياري/ ٢٦
(3) الجهشياري/ ٢٤

الانشـاء» منذ خـلافة عبـد الملك[1] وكان «أبـو الزعيـزعة»[2] مـولاه يكتب له، وكذلك أبو ثابت سليمـان بن سعد الخشني الـذي قام بتعـريب ديوان الشـام[3] سنة ٨١ هـ . وفي عهد الـوليد كـان على هـذا الديـوان مولاه جنـاح، أما عمـر ابن عبد العـزيــز فقـد كتب لـه الليث بن أبي قـرة، مـولى أم الحكم بنت أبي سفيان.

وأما هشام، فقد كتب له مولاه سالم أحد البلغاء العشرة الأول، وأستاذ ابن المقفع وعبد الحميد الكاتب، وفي أيـامه صـار الديـوان قِبلة يؤمها كـل ناشىء في الفن، وشادٍ في الأدب، كتب ابن المقفع ليـزيد بن عمـر بن هبيرة وأخيـه داود؛ وأما عبد الحميد فقد كتب لمروان الثاني آخر خلفاء بني أمية.

انقطع الموالي للكتابة، واتخـذوا منها حـرفة تـدر عليهم الرزق، وتـدنيهم من الخلفـاء، وهم بحـاجـة إلى عـطف الخليفـة في هـذا العصر العـربي المتعصب، الضاغط على الموالي. . .

وما زالوا يضطلعون بأعبائها، ويتمرسون بأسـاليبها حتى بـرعوا وابتـدعوا فلما جـاء الوليـد بن عبـد الملك، دخلت الكتـابـة في طـور جـديـد، بمـا أولاهـا من عنايته، وبما مهد لها من سبل، وهيـأ لها من وسـائل. . . يقـول الجهشياري (ولم يزل أمر المكاتبات في الدولة الأموية جـاريـاً عـلى سنن السلف إلى أن ولى الوليـد ابن عبد الملك، فحوّط القـراطيس، وجلل الخطوط، وفخّم المكـاتبـات، وتبعـه مَنْ بعدَه من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويـزيد بن الـوليد، فـإنهما جريـا في ذلك على سنن السلف ثم جرى الأمر من بعدهما على ما سنه الوليد)[4].

كـان المـوالي بحكم ثقـافتهم المنـوعـة، وخبـرتهم الـواسعـة بشؤون الملك وتـدبيره، أبـرعَ من العرب فـي إنشاء الـرسائـل وتدبيجهـا، وأقـدر منهم عـلى

---

(١) تاريخ الأدب العربي للسباعي بيومي جـ ١٩٣/٣
(٢) الجهشياري/ ٣٥
(٣) الجهشياري/ ٤٠ وفتوح البلدان ٢٠١ .
(٤) صبح الاعشى جـ ٣٩١/٦.

تنظيم الديوان والنهوض برسالته؛ حتى رأيناه في عهد هشام «مدرسة فنية جامعة»، تلتقي فيها الأساليب الفارسية واليونانية بالأساليب العربية، ومن ثم تطعمت البلاغة العربية بهذه البلاغة الأعجمية التي صبغت الرسائل بصبغة جديدة، تجلت ثمارها فيما بعد على يد عبد الحميد الكاتب.

طريقة عبد الحميد[1].

تمخضت الكتابة في أخريات العصر عن طريق فنية جديدة، مهد لها ورأس قواعدها تلميذه عبد الحميد.. فما هي هذه الطريقة؟ وهل هي فارسية كما يزعمون؟ وإلى أي حد نقلت الكتابة من حال إلى حال؟

طبعت الكتابة في القرن الإسلامي الأول على البساطة والإيجاز بأسلوب مرسل يتخلله السجع والازدواج[2] بقدر.

فلما جاء عبد الحميد ظهر الأسلوب المنطقي المطنب، القائم على جزالة اللفظ وترادف الجمل، وكان عبد الحميد يعتمد في إيضاحه على الترادف والطباق، كما كان يعتمد أكثر وأكثر على «المكملات المجملة» وبخاصة الحال والتمييز والظرف أو الجار والمجرور.

أما الأسلوب المنطقي، فيتجلى في ربطه الأسباب بمسبباتها، والنتائج بمقدماتها، كما في قوله، في رسالته المطنبة إلى الكتّاب.

---

(١) أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد مولى العلاء بن وهب العامري، فارسي الأصل، شامي النشأة، تخرج في الكتابة على يد ختنه وأستاذه سالم مولى هشام الذي كانت رئاسته للديوان نقطة تحول في تاريخ الكتابة العربية....

قضى حياته الأولى متنقلاً بين البلدان معلماً للصبيان، فلما اتصل بدواوين الخلافة نبه ذكره ولمع نجمه، فلما ولي الخلافة مروان قلده شؤون الرسائل، وكان يكتب له من قبل في أيام ولايته على أرمينية، وظلت الصلة الروحية وثيقة بينهما حتى بعد أن زال عنهما السلطان ـ بعد معركة الزاب التي طوت ملك بني أمية سنة ١٣٢، فقد فرا معاً من العباسيين إلى مصر، وقتلا معاً في «بوصير».

(٢) التوازن والازدواج ضربان من السجع «العاطل» أي أنهما سجع بلا قافية، وشرط التوازن اتحاد الفاصلتين وزنا لا رويا، وليس ذلك الشرط بلازم في الازدواج، كما سنرى.

(.. ثم أجيدوا الخط، فإنه حلية كتبكم، وأرووا الأشعار، واعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه همتكم، ولا تضيعوا النظر في الحساب فإنه قِوام كتاب الخراج، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع: سنيها ودنيها، وسفساف الأمور ومحاقرها، فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب، ونزهوا صناعتكم عن الدناءات، واربئوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات وإياكم والتكبر والصلف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة)[1].

أما مكملات الجمل بالحال، فهي كثيرة غالبة على رسائله، كما نرى ترادف الجمل والتوازن والازدواج. استمع إليه يقول في صفة النبي صلى الله عليه وسلم، من رسالته في الشطرنج:

(... وبلّغ الرسالة، فصدع بالحق مأموراً، وبلغ الرسالة معصوماً، ونصح الإسلام وأهله، دالاً لهم على المراشد، وقائداً لهم على الهداية، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية، مرشداً لهم إلى استفتاح باب الرحمة. موضحاً لهم سبل الغواية، زاجراً لهم عن طريق الضلالة، محذراً لهم الهلكة؛ موعزاً إليهم في التقدمة، ضارباً لهم الحدود على ما يتقون من الأمور ويخشون؛ وما إليه يسارعون ويطلبون؛ صابراً نفسه على الأذى والتكذيب؛ داعياً لهم بالترغيب والترهيب؛ حريصاً عليهم؛ متحنناً على كافتهم؛ عزيزاً عليه عنتهم، رؤوفاً بهم رحيماً[2]).

هذا هو عبد الحميد الكاتب الذي بدئت به الكتابة كما يقولون[3] وأول من فتق أكمام البلاغة وسهل طرقها، وفك رقاب الشعر كما يقول صاحب العقد[4] وأول من أطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتاب

---

(١) جمهرة الرسائل ٢/٥٣٥، مقدمة ابن خلدون ص ٢٧٥.
(٢) جمهرة الرسائل جـ ٢/٥٤١، واختيار المنظوم والمنثور ١١/٢٢٢.
(٣) يتيمة الدهر للثعالبي ٣/١٣٧
(٤) العقد ٢/٢٠٦.

فاستعمل الناس ذلك بعده كما يقول المسعودي[1] وعنه أخذ المترسلون؛ ولطريقته لزموا؛ وهو الذي سهل سبل البلاغة في الترسل كما يقول ابن النديم[2].

كان عبد الحميد تلميذاً لرائد الكتابة سالم مولى هشام، وكان أيضاً صديقاً لابن المقفع؛ وعن الأول أخذ اليونانية، وعن الثاني تفصح بالفارسية يقول أبو هلال: «ومن عرف ترتيب المعاني واستعمال الألفاظ على وجوهها بلغة من اللغات؛ ثم انتهى إلى لغة أخرى تهيأ له فيها من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى؛ ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي فحولها إلى اللسان العربي[3]؟

إن هذا القول ـ على ظاهره ـ يشير إلى أثر الفارسية الواضح في طريقة عبد الحميد، ونحن لا ننكر أثر العناصر الأجنبية العامة والفارسية بخاصة في رسائله؛ فالإطناب الذي طُبعت به أساليبه من خصائص اللغات الآرية؛ والأساليب المنطقية؛ بعناصرها المرتبة؛ وأفكارها المسلسلة؛ من أثر الثقافة الهللينية.

غير أننا ننكر أن يكون التوازن والازدواج من معين غير معين الفصحى؟ فإن العرب منذ القدم قد اصطنعوهما في منثورهم، كما حفل بهما القرآن الكريم قال تعالى: ﴿والسماءِ ذات البروج، واليوم والموعود﴾ وقال ﴿ونمارق مصفوفة. وزرابي مبثوثة﴾ وقال وما يلقّاها إلا الذين صبروا. وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم).

ونعود فنسأل. لو كان الأمر كذلك فلم لم يصطنعها صديقه ابن المقفع؟ وهو الذي أفنى العمر في نقل التراث الفارسي إلى العربية؟ أتراه زهد في بلاغة أجداده وآثر «الأسلوب المرسل» وهو الشعوبي المتعصب؟ أليس ذلك من

---

(١) مروج الذهب جـ ٨١/٦

(٢) الفهرست ١١٧

(٣) الصناعتين ٥١

مفتريات المستشرفين الذين يحطبون في حبال الشعوبيين[٢].

وإذاً فهذه الطريقة ليست عربية بحتة، وليست فارسية محضة كما وهم الكثيرون، وإنما هي مزيج من بلاغتي العرب والعجم، وسنرى الكثير من سماتها في رسائل أشهر البلغاء في العصر العباسي وحسبه أن يترسم خطاه أبو عثمان الجاحظ، وحسب طريقته أن جمعت بين فصاحتي اللفظ والمعنى. . . .

(١) يرى المسيو مرسيه أن الزخرف الفني وصل العرب من الفرس (زكي مبارك جـ ١/ ٤٤).

الباب الأول

الكتابة في العصر العباسي

تمهيد

المجتمع العباسي

زخر العصر العباسي بالأحداث التاريخية، والتقلّبات السياسية، كما زخر بالتطورات الاجتماعية التي نقلت العرب من حال إلى حال، وقد كان لكل هذا، فضلاً عن نضج العقول بالثقافة واتساع المدارك بالتجارب، أثرٌ واضح في تطوير الأدب بعامه، والكتابة بصفة خاصة، ومن ثم كان حرياً بنا أن نقف قليلاً عند هذه الأحداث، وان نلمّ - في إيجاز - بهذه التطورات المؤثرة، لنربط الآثار بأسبابها. إذ الأدب - كما يقولون ثمرة التفاعل بين الأديب وبيئته . . .

* * *

لم تكن موقعة «الزاب» الفاصلة في التاريخ سنة ١٣٢ هـ معركة بين الأمويين والعباسيين، بقدر ما كانت معركة قومية بين العرب والفرس، وردا عملياً لمعركة القادسية.

وإذاً فالدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس، حافظةً لهم هذا الصنيع، فأفسحت لهم المجال، وأطلقت أيديهم في تصريف الأمور، وكان أبو سلمة الخلال «الفارسي» أول وزير في الإسلام، فلما أطاح به السفاح نهض بالأمر من بعده طائفة من الوزراء والحجاب جلهم - بل كلهم - من نسل الأعاجم.

وإذ كان لهم بصر بشؤون الملك وتدبيره فقد ساسوا البلاد بحكمة وسداد، وتجلت مواهبهم في شتى الميادين.

وكان من الممكن - والحال هذه - أن يظل لهم الأمر، غير أن مآربهم الخفية في إعادة الكسروية أخذت في الظهور، وبدت للعيان آنا بعد آن؛ مما جعل

الخلفاء ـ وقد توجسوا منهم خيفة ـ يأخذونهم أخذ عـزيز مقتـدر. . . ؛ فالسفـاح كما ذكرنـا فتـك بـأبي سلمـة، والمنصـور أطـاح بـأبي مسلم، وبفضلهـما خفقت أعلام المسودة على معاقل الأمويين ـ والمهدي نكـل بالـزنادقـة ـ أنصار المجـوسية الفارسية ـ والرشيد، بعـد صبر طـويل ـ عصف بـالبرامكـة وكانـوا أحب الناس إليـه، وهكذا كـانت الخلافـة، في أزهى عصورهـا على الـرغم من نفوذ الفـرس وفتنهم، تبطش حيناً، وتعفو أحياناً، وهي لا تبطش الا عن بيّنة، ولا تعفو إلا لحكمـة وعن مقـدرة: لهـذا عـرف العصر العبـاسي الأول بعصر «السيـادة العربية». على الرغم من تزايد نفوذ الفرس.

* * *

في هـذا العصر كـان الخلفـاء عـلى حظ كبـير من العلم والأدب وقـد انعكس كـل هذا عـلى الحياة الثقـافية التي لم تقف عنـد حد العلوم الشـرعية واللسـانية، كما كان الحـال في العصر الأموي ـ بـل تعدتهـا إلى العلوم الـطبيعيـة المختلفـة، وكانت حركة الترجمة التي عني بها المنصور والرشيد والمأمـون إيذانـا بهذه الـطفرة الكبـرى في الحـركـة العلميـة، فقـد نقلت أمهـات الكتب عن الهنـد والفـرس واليونان في الطب والفلسفة والجغـرافية والـرياضـة والأخلاق والمنـطق والآداب، وكان السريـان في طليعة النقلة عن اليـونانيـة إذ كانـوا ملمين بلغتهـا عن طريق مدارسها في الشرق: في الاسكندرية والرهـا ونصيبين وجنـديسابـور وغيرهـا من المدارس التي تمخضت عنها حملة الاسكندر المقدوني.

أما الشعراء والكتاب والمؤلفون فقد وجدوا من الخلفاء والوزراء آذانـاً صاغيـة وقلوبـاً واعية ويـداً سمحة فيـاضة بـالعطاء كـان لها أكبـر الأثر في نهضـة العلوم والآداب، ومما تقدم نعلم إلى حـد بلغ النفوذ الفـارسي من التزايـد، وكـان من أثر ذلك صبغ المجتمع العباسي بصبغة فارسية في نظمه وعـاداته وتقـاليده وجـده ولهوه، وطعامـه وشرابـه حتى الأزياء أصبحت تحـاكي الأزياء الفـارسية، تشهـد بـذلـك «النقـود» المـأثـورة التي تحتفظ بصـور لبعض الخلفـاء بـزيهم الفــارسي، والمجالس الغنائية التي شاعت على النمط الفارسي، وقـد ساعـد على ذلـك شدة الاختـلاط بين العـرب والفرس، بعـد أن كان الأمـويون يتـرفعون عن مخـالـطة

الأعـاجم، ويـرون أنهم دونهم جنســاً ودمـاً وعنصــراً، ومن ثم غصَّت قصـور العباسيين بالجواري والإماء، واقترن العرب بالأعجميات، كما اقتـرن ـ على قلة ـ العجمُ بالعربيـات، مما مهـد لظهـور السلالات المـزدوجة: هجنـاء ومقرفـين ـ تلك التي كانت أكثر من العـرب تقبلاً للحضـارات الطارئـة، وتذوقـاً لأساليبهـا السائدة بعامل الإرث المؤرث والعرق الدساس.

«وإذا كـانت البلاد المفتـوحة أرقى من العـرب مدنيـة وحضارة، وأقـوى نظماً اجتماعية. كان من الطبيعي أن تسود مدنيتهم وحضارتهم ونظمهم.

وإذ كـان العـرب هم العنصر القـوي الفـاتـح عـدّلـوا هـذه النـظم بمـا يتفق وعقليتهم، فساد في البلاد المفتوحة النظم التي كانت متبعة قبل الفتح»(١).

على أن هذه الحال لم تدم أكـثر من قرن من الـزمان، فقـد حدث أن استعـان المعتصم بـالله بعنصر جديـد يكسر به شـوكة الفـرس، ونعني به العنصر التـركي الذي صار فيما بعد شـوكة في جنب الـدولة، وبخـاصة حينـما انتقل بهم الخليفـة إلى مقـره الجديـد في «سر من رأى» تلك المـدينـة التي أصبحت عـلى مـر الأيـام قـاعدةً حـربيـة لهؤلاء الخـدم الأتـراك، والخليفـة بمعـزل عن النصـير، ومـا زال سلطان الخليفة يتضاءل أمـام سلطانهم حتى رأينا المتـوكل عـلى الله أشبه بـالأسير في قصره، على الـرغم من اتفاقـه واياهم في المـذهب السني. وإذ حاول الابقـاء عـلى شيء من نفـوذه، تـآمـروا عليـه وقتلوه؛ ومن ثم فـإن عهـده بـدايـة لعصر جديد هو **العصر العباسي الثاني** أو عصر النفوذ التـركي، وظل الحـال على ذلـك قـرناً من الـزمان (من ٢٣٢ ـ ٣٣٤ هـ) زخـرت فيه بغـداد بالفـوضى، وانهمـك الخلفــاء في الشهـوات والملذات؛ حتى غــاض معين العلم، وكســدت سـوق الأدب إلا الكتابة، لحاجة السلطان إليها.

وممــا زاد الـطين بلةً مجيءُ المــذهب السني المتشــدد يكمّ الأنفــاس، ويقتـل الحريات، ويعفّي بصولجانه على آثـار الشيعة؛ فـانقطع تيـار الفلسفة، وركـدت ريح التـأليف. ولـولا قـوة الـدفـع السـابقـة لأقفـرت الحيـاة من معـالم التـطور والتجديد.

---

(١) فجر الإسلام جـ١/١١١، ١١٢.

كل هذا قد مهد لظهور الدويلات التي أخذت تنسلخ عن الدولة يوماً بعد يوم، وتستقلّ عنها شيئاً فشيئاً؛ حتى لم يبق للخليفة من مظاهر الولاء إلا المظهر الديني. . . بدأت بانفصال السامانيين فيما وراء النهر، وتلاهم الحمدانيون بحلب سنة ٣١٧، فالبويهيون بفارس والعراق سنة ٣٢٠، وفي سنة ٣٥١ استقل العزنويون بالهند وافغانستان. أما مصر فقد استقل بها أول الأمر الأخشيديون سنة ٣٢٣ ومن بعدهم قامت الدولة الفاطمية سنة ٣٥٧.

وإذا كان الفاطميون قد ورثوا الأخشيديين في مصر، والغزنويون قد استولوا على السامانيين فيما وراء النهر، فإن بني بويه قد استولوا على بغداد نفسها سنة ٣٣٤ هـ في خلافة المستكفي بالله لتخليصها من أولئكم الخدم الأتراك الذين عبثوا بالقيم، وحاربوا أحرار الفكر، وضجت منهم البلاد، وبذلك عاد النفوذ مرة ثانية للفرس. واعتبر هذا بداية العصر العباسي الثالث الذي تراجع فيه نفوذ العرب أمام سلطان الديالمة الغزاة، أولئك الذين حاولوا أن يستردوا سالف مجدهم بالانتصار للغتهم الفارسية، ومحاولة إحلالها محل العربية في أوطانهم، وقد تجلى ذلك في الأناشيد الفارسية، والمنظومات القومية التي نظمها الدقيقي والفردوسي. وفي هذا العصر أيضاً نشطت حركة التأليف والتدوين حتى سمي بعصر نضج العلوم؛ فالفلسفة قد نضجت مباحثها، والنقد الأدبي قد اكتملت له مقوماته، وتأصلت قواعدهُ، والأدب قد اتسعت ميادينه ونفقت أسواقه.

كان بنو بويه على خط عظيم من العلم والأدب؛ ومن ثم كانوا لا يستوزرون إلا الأدباء، كالحسن المهلبي وزير معز الدولة، وابن العميد وزير ركن الدولة، والصاحب بن عباد وزير مؤيد الدولة.

إذا علمنا هذا، وإذ علمنا أيضاً أن هذه الدويلات وسواها في المغرب قد تنافست في ميادين الشعر والكتابة والتأليف أمكننا أن نعرف إلى أي حد بلغت البلاد في هذه الفترة من الزمان.

وفي سنة ٤٤٧ استولى السلاجقة الأتراك على بغداد، فعاد المذهب السني ثانية إلى الظهور مقيداً حرية الفكر، متعقباً آثار الشيعة فركدت ريح التأليف

الذي يتعارض مع أهل السنة.

انفرد هذا العصر من سواه بظاهرتين متميزتين هما.. «المدارس الرسمية» و«الموسوعات العلمية» حتى عرف في حقل التربية بعصر المدارس، وفي حقل اللغة بعصر الموسوعات.

كان نظام الملك ـ صاحب المدرسة النظامية ـ أول من أنشأ المدارس، وتبعه الوزراء والأمراء في الأقاليم؛ ومن بين أساتذة هذه المدرسة الشيرازي والغزالي والسهروردي والأنباري والتبريزي.

أما الموسوعات فتتجلى في هذه المعاجم الضخمة: لغوية وأدبية وشرعية وجغرافية وتاريخية، نخص بالذكر منها القاموس المحيط للفيروزابادي وأساس البلاغة للزمخشري؛ ومعجم البلدان ومعجم الأدباء لياقوت؛ ونزهة الألبا في طبقات الأدباء لابن الأنباري؛ والأنساب للسمعاني؛ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد؛ وأسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر؛ ومفتاح العلوم للسكاكي، وتحرير التحبير لابن أبي الأصبع؛ والعباب للصاغاني، والكامل في التاريخ لابن الأثير والأحياء للغزالي.

إن العلماء في هذا العصر اتجهوا إلى الاستقصاء والإحاطة، ومن ثم جاءت مؤلفاتهم أشبه بدوائر المعارف لا غرو أن سمي (بعصر الموسوعات).

ومما هو جدير بالذكر أن الحركتين: العلمية والأدبية قد تعرضتا في هذا العصر لبعض التيارات السياسية والدينية والقومية (الشعوبية) تلك التيارات التي كانت تعوّقها حيناً، أو تلونها بألوان خاصة حيناً آخر... بيد أن (الكتابة) قد طفت على الحوادث، وسارت في طريقها المرسوم لها من غير توقف، لحاجة السلطان اليها.

وإذا كانت اللغة وآدابها قد تأثرت بهذا «المجتمع العباسي» فإن الكتابة الفنية بالذات قد تأثرت أكثر من سواها كما سنرى.

ففي دواوين الخلافة، وبين المظاهر الحضارة أزدهر هذا الفن ومن قبل كانت منزلته دون منزلة الشعر والخطابة، لهذا سمي هذا العصر «بعصر الكتابة».

الفصل الأول

نهضة الكتابة

منذ بداية القرن الهجري الثاني، تطورت الكتابة تطوراً ظاهراً على يدي سالم وعبد الحميد كما ذكرنا. . . وقد ورثها العصر العباسي على هذه الحال من القوة والفتوة. .

غير أن تيارها الزاخر قد تمهل قليلاً أول الأمر، لانشغال الخلفاء عنها بتثبيت الملك وتدعيم السلطان، واعتمادهم على «الخطابة» في التعفية على آثار الأمويين، ومقاومة العلويين وغيرهم من الثائرين على الدولة.

وما أن هدأت الأمور في نصابها، واستقرت السيوف في أغمادها حتى خمدت جذوة الخطابة التي كانت تزحمها في الميدان، وبذلك خلا لها الجو، واتجهت إليها الخواطر، ثم تهيأ لها من عوامل النهضة ما بوأها المنزلة الرفيعة، التي كانت للخطابة في العصر الأموي، وللشعر في العصر الجاهلي. . من ذلك:

١ ـ الثقافة:

تنفرد الكتابة ـ من بين فروع الأدب ـ بأنها وليدة العقل الناضج، والأفق الواسع، ومن ثم كانت ـ في مختلف العصور ـ تزدهر بازدهارها، وتضمحل باضمحلالها.

وفي هذا العصر ـ عصر التأليف والتدوين ـ نشطت الحركة العلمية، لغويةً

وشرعية واجتماعية وكونية، كما بدأت حركة الترجمة التي أمدتها بروافد أصيلة زاخرة، عمقت مجراها، وأخصبت واديها. . . . أمدتها بحكم الهند، وآداب الفرس، وفلسفة اليونان، وناهيك بها من ثقافة منوعة تنضج العقول، وتنمي المدارك، وتوسع الآفاق.

ولم يمض غير قليل حتى كانت هذه المعارف ـ التي زخرت بها العقلية العربية ـ تُمدّ أقلام الكتاب، وتقوّم من أساليب المترسلين، وخير مثل نقدمه لذلك أبو عثمان الجاحظ الذي كان يغرف من كل بحر، ويكتب في كل غرض، ويجلّي في كل ميدان. . . يقول في صفة الكتاب:

(الكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً وجداً. . إن شئت كان أبين من سحبان، وإن شئت كان أعيى من باقل. . إن شئت ألهتك طرايفه، وإن شئت أشجتك مواعظه.

ومن لك بواعظ مُلهٍ، وبزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى. آمن من الأمن، وأكتم للسر من صاحب السر، وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة. . .)[1].

٢ ـ الحضارة:

استقبل العرب في هذا العصر حضارة جديدة هي مزيج من حضارة الإسلام وحضارتي الفرس والروم. . . هذه الحضارة قد صقلت الأذواق، وهذبت المشاعر، ورققت الحاشية. . ثم هي من جهة أخرى قد نقلتهم من البوادي والقفار إلى القصور والبساتين، والأمن والاستقرار وغيرها من مظاهر الترف التي إذا انعكست بألوانها وأصباغها على ذهن الكتاب استطاع أن ينشيء ويصور، ويتخيل ويبتكر. .

أما الأساليب والألفاظ، في ظل الحضارة، فلن تهدر كالسيل، ولن تعصف كالريح، وإنما لانت بلين الحياة، ورقّتْ برقة الطباع فإذا بها تطرد اطراد الماء، وتمر مر النسيم. .

(١) الحيوان جـ ١/٣٨.

انظر إلى كتاب عبد الله بن طاهر[1] إلى الثائر نصر بن شبث الخارج على المأمون بالجزيرة، ذلك الكتاب الذي جمع بين العتاب والتهديد، وبلغ من الرقة والدقة واللباقة الحضرية أن طلب الثائر الأمان. . . استمع إليه يقول:

(أما بعد، فإنك يا نصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزها، وبرد ظلها، وطيب مرتعها، وما في خلافها من الندم والخسارة، وإن طالت مدة الله بك، فإنه إنما يملي لمن يلتمس مظاهرة الحجة[2] عليه، لتقع غيره بأهلها على قدر إصرارهم واستحقاقهم، وقد رأيت إنكارك وتبصيرك لما رجوت أن يكون ـ لما أكتب به إليك ـ موقعه منك، فإن الصدق صدق؛ والباطل باطل؛ وإنما القول بمخارجه، وبأهله الذين يعنون به، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفسك، ولا أحرص على استنقاذك والانتياش[3] لك مني.

فبأي أول أو آخر أوسطه[4] أو إمرة إقدامك يانصر على أمير المؤمنين، تأخذ ماله، وتتولى دونه ما ولاه الله، وتريد أن تبيت آمناً أو مطمئنا أو وادعاً، أو ساكناً أو هادئاً؟ فوعالم السر والجهر لئن لم تكن للطاعة مراجعاً، وبها خانعاً، لتستوبلن[5] وخيم العاقبة، ثم أن لابد بك قبل كل عمل، فإن قرون الشيطان إذا لم تقطع كانت في الأرض فتنة وفساداً كبيراً[6]. .

أين مثل هذه الرقة في كتاب معاوية إلى زياد في موقف كهذا جامع بين «العتاب والتهديد»؛ وقد سبقت الإشارة إليه[7]. . ويكفي في التعليق عليه ـ بما أسلفنا ـ أن زياداً جازاه كيلا بكيل مما اضطر الخليفة ـ العملاق أن يطامن من كبريائه ويلين في خطابه ابتغاء مرضاته.

---

(١) الوالي على الرقة من قبل المأمون

(٢) مظاهرة الحجة: مضاعفتها.

(٣) الانتياش: الاخراج

(٤) سطه كعده فعله وسط بمعنى توسط

(٥) استوبله: وجده وبيلاً أي وخيماً

(٦) كتاب بغداد لطيفور جـ ١٣٧/٦

(٧) ص٦٠، ٦١.

٣ ـ ديوان الرسائل:

منذ أنشأ معاوية هذا الديوان، والكتابة الإنشائية تنحو نحو الكمال. ثم كانت وثبتها الكبرى في أخريات العصر على يد الموالي كما ذكرنا.

غير أن دواوين بني أمية كانت ضيقة المجال، محدودة الغرض، قليلة الرسائل مقيدة الأقلام، ومن ثم لم تظهر شخصية الكتاب إلا في عهد هشام الذي منح ديوانه بعض الاستقلال لمزيد ثقته في كاتبه ومولاه «سالم». ومن ذلك الحين دخلت الكتابة في طور جديد تأصَّل على يد تلميذه عبد الحميد.

فلما جاء العصر العباسي ارتفع شأن الديوان، لكثرة أعبائه وعظم رسالته، وأصبح رئيسه وزيراً أو بمنزلة الوزير. وكان مستشارَ الخليفة ومستودع أسراره، ومن ثم اتجه الخلفاء إلى اختياره من أهل الثقة من ذوي قرابتهم، وبهذه الصفة كتب مروان بن الحكم لعثمان ومعاوية ويزيد ومع هذا فإن الرسائل لم تكن لتنفذ إلا باملاء الخليفة أو بإقراره لها...

فلما اتسع الملك وكثرت الأعباء ـ وبخاصة في العصر العباسي ـ اضطر الخلفاء إلى أن يعهدوا بها إلى الثقات من أربابها وإن لم يكونوا من ذوي القرابة، ولم تكن أصول الموالي لتمنعهم من تسنم مناصبها وحاجة الخلفاء إليهم ماسة... غير أنهم ـ أي الخلفاء ـ كانوا يتحرون الدقة في اختيار كتابهم ـ أليست أمور الدولة أمانة في أيديهم؟ ـ ولهم في ذلك شروط خلقية وفنية لخصها الحسن بن سهل في كتابه إلى محمد بن سماعة القاضي[١].

(أما بعد، فإني احتجت لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير، ذي عفة ونزاهة وطعمة[٢]، قد هذّبته الآدابُ، وأحكمته التجارب، ليس بظنين[٣] في رأيه، ولا بمطعون في حسبه. إن ائتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهما من الأمور أجزأ[٤] فيه، له سن مع أدب ولسان، تعقده الرزانة، ويسكنه

---

(١) ابو عبد الله محمد بن سماعة التميمي، ولي القضاء ببغداد وتوفي سنة ٢٣٣ (ابن النديم)

(٢) الطعمة: المكسب

(٣) الظنين: المتهم

(٤) أجزأ: أغنى

الحلم، قد فرّ[1] عن ذكاء وفطنة، وعض على قارحة[2] من الكمال، تكفيه اللحظة وترشده السكتة؛ قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها؛ وقام في أمورهم فحمد فيها؛ مع أناة الوزراء؛ وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يكاد يسترق قلوبَ الرجال بحلاوة لسانه، وحسن بيانه. دلائلُ الفضل عليه لائحة، وامارات العلم له شاهدة، مضطلعاً بما استنهض، مستقلاً بما حمل، وقد آثرتك بطلبه، وحبوتك[3] بارتياده[4]، ثقة بفضل اختيارك، ومعرفة بحسن تأتيك»[5].

على أن الخلفاء في بداية العصر خاصة كانوا يتولون أنفسهم الرد على الرسائل العامة، أو التي يرونها على جانب من الأهمية.

ذكر المسعودي أن المنصور كان يتولى بنفسه الرد على محمد بن عبد الله بن الحسن، وحينما عرض عليه وزيره أبو أيوب المورياني أن يقوم بذلك نيابة عنه أجابه: يا هذا ليس ذلك إليك، إذا تقارعنا عن الأحساب فدعني وإياها[6].

ولما غضب الرشيد لتهديد نقفور امبراطور الروم في رسالة بعث بها إليه، أبى إلا أن يرد عليه بنفسه قائلاً:

«من عبد الله هرون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم
فهمت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه[7]»

* * *

---

(١) فر: فتش وجرب
(٢) القارح: الناب الذي ينبت في الخامسة من العمر.
(٣) حبوتك: خصصتك وأصل الحباء العطاء.
(٤) ارتياده: طلبه
(٥) تأتي الأمر: إتيانه من وجهه.
(٦) مروج الذهب جـ ٢/٢٣٧.
(٧) صبح الأعشى جـ ١/١٩٢.

قبض الموالي على ناصية الأمور في الدولة، ومن بينها الكتابة التي لا تكفي فيها بلاغة القلم وإنما هي ربيبة القصور وصنيعة البلاط؛ فلا يجيدها إلا من يحسن منادمة الملوك ومسامرة الخلفاء، وإذ كانت تقاليدهم الفارسية قائمة على تمجيد الحاكم ـ ظل الله في أرضه كما يرون ـ فقد عرفوا كيف يسايرون الخلفاء ويسامرون الأمراء ويسوسون الأمور، ولهم من أستاذهم الأكبر عبد الحميد الكاتب ودستوره الذي رسمه لهم، قدوة حسنة. . . نقتطف من كتابه إليهم هذه الوصايا: ـ

* (إن الله ـ عزّ وجلّ ـ جعل الناس، بعد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين، وبعد الملوك المكرمين، أصنافاً، وإن كانوا في الحقيقة سواء. . . فجعلكم معشر الكتّاب في أشرف الجهات: أهل الأدب والمروءة، والعلم والرواية، بكم تنتظم للخلافة محاسنُها، وتستقيم أمورها، وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمر بلادهم، لا يستغني الملك عنكم، ولا يوجد كاف إلا منكم، فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التي بها يسمعون، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون، وأيديهم التي بها يبطشون.

* إن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره ـ أن يكون حليماً في موضع الحلم، فهيماً في موضع الحكم، مقداماً في موضع الإقدام، محجاما في موضع الإحجام. . كتوما للأسرار، وفياً عند الشدائد، عالماً بما يأتي عند النوازل، يضع الأمور مواضعها، . . . قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكمه، فإن لم يحكمه أخذ منه بمقدار ما يكتفي به.

* فتنافسوا يا معشر الكتّاب في صنوف الآداب، وتفقهوا في الدين، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم «العربية»؛ فإنها ثقاف ألسنتكم، ثم أجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، وأعرفوا غريبها ومعانيها، وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها؛ فإن ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم.

* وارغبوا بأنفسكم عن المطامع: سنّيها ودنّيها، وسفساف الأمور

ومحاقرها، فإنها مذلة للرقاب، مفسدة للكتاب.

* وإياكم والكبر والصلف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة.

* والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته، أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده... ألا فأمعنوا - رحمكم الله - في النظر، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة.

* ولا يجاوزنَّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه، وغير ذلك من فنون أمره - قدرَ حقه، فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم - خدمة: لا تحملون في خدمتكم على التقصير، وحفظة لا نحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير...

* واحذروا متالف السرف، وسوء عواقب الترف، فإنهما يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلهما، ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت تجربتكم، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة، وأصدقها حجة، وأحمدها عاقبة.

* وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل من يلزم النصيحة يلزمه العمل)[1].

* * *

بمثل هذه الصفات تحلَّى كتاب الموالي، فلما آنس الخلفاء منهم جانب الرشد منحوهم الثقة، واختاروا من بينهم الوزراء والحجاب، ومن ثم ظفروا بالدرجة الرفيعة التي كان عليها آباؤهم في البلاط الكسروي. تلك الدرجة التي أشار إليها الجهشياري بقوله.

(وكانت الملوك... ملوك الفرس - تقدم الكتَّاب، وتعرف فضل صناعة

---

(١) صبح الأعشى ١/ ٨٥، مقدمة ابن خلدون ٢٧٥، والجهشياري/ ٧٠.

الكتابة، وتمحض أهلها؛ لما يجمعونه من فضل الرأي إلى الصناعة. وتقول: هم نظام الأمور، وكمال الملك وبهاء السلطان. . . وهم الألسنة الناطقة عن الملوك، وخزان أموالهم، وأمناؤهم على رعيتهم) [١].

ولعل «البرامكة» كانوا أول وأشهر من جمع هذه الخصال وتحلى بهذه الأداب وظفر بمثل هذه المكانة التي راجحت مكانة الخليفة نفسه. . .، ومن ثم لعبوا دوراً كبيراً في ميدان «البلاغة» لا يقل كثيراً عن دورهم التاريخي في ميدان السياسة؛ فهم ـ فوق موهبتهم الأدبية التي سنكشف عنها فيما بعد وميلهم إلى الأدب ـ احتضنوا الأدباء، كتاباً وشعراء، لمآرب سياسية.

لم ينس البرامكة ـ وهم أصحاب النفوذ في البلاط ـ أنهم أعاجم في حاضرة العروبة، ولم ينسوا رسالتهم القومية في إعادة الكسروية، ولم ينسوا كذلك أن لهم خصوماً منافسين في البلاط ـ عرباً وموالي ـ. . . لهذا نثروا المال عن سعة، يشترون به القلوب والعواطف. . . يقول ثمامة ابن أشرس: ـ

«لم يكن يُرى لجليس خالد البرمكي دار إلا وخالد قد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابْتاعها له، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة، أو أدّى مهرها إن كانت حرة، ولا دابة إلا وخالد حمل عليها من نتاجه أو من نتاج غيره. . .، وقد ساعدهم على ذلك اليسر والرخاء والسلطان.

وإذا كانت هذه صفتهم مع عامة الرعية فما بالك بحالهم مع أهل الأدب أشار السيوطي[٢] إلى أن يحيى بن خالد كان يعقد المناظرات العلمية في مجلسه ويدعو لها المتناظرين، وأنه هو الذي استدعى الكسائي ليناظر سيبويه على نحو ما هو مفصل في كتب الأدب، وكان يحث أولاده على الكرم ويقول لجعفر: يا بني. ما دام قلمك يرعد، فأمطر معروفاً[٣].

وسواء كان الكرم فيهم سجية فطرية أم لأهداف قومية، فإنه على الحالين

---

(١) الجهشياري ص ٤.

(٢) الأشباه والنظائر جـ ١٥/٣

(٣) البرامكة في ظلال الخلفاء/١٠٠.

كان حافزاً لأرباب البيان على الإجادة والافتنان حتى أشرق الديوان بغرر الرسائل، وعلا كعبه ببلاغة الأعلام من أمثال عمرو بن مسعدة، والقاسم بن صبيح، وسهل بن هرون، وأنس بن أبي الشيخ وغيرهم من حملة الأقلام.

ولا شك أن هذه المنزلة، التي حظي بها كتاب هذا العصر، وهذا التشجيع الذي ظفروا به كانا خير حافز لكل متمرس بهذا العمل على الإجادة والإفتنان، فضلاً عن ثقافتهم الأعجمية التي أهلتهم لذلك حتى أصبح ديوان الإنشاء في هذا العصر ـ وها هو اسمه الجديد ـ قبلة الأنظار كما أصبح مدرسة فنية جامعة تلتقي فيها مختلف الأساليب: عربية وأعجمية.

٤ ـ كثرة الدواعي والأغراض:

تشعبت فنون الكتابة تبعاً لتشعب أمور الحياة في هذا المجتمع الحضري الجديد.

وما كادت «الخطابة» تلفظ أنفاسها بعد استقرار الملك حتى ورثتها في أغراضها، ثم اقتحمت على الشعر ميدانه، وشاركته في أغراضه وفنونه. . .

هذا قد فسح المجال أمام الكتاب الذين أخذوا يروضون أقلامهم على كل فن، ويجولون بها في كل ميدان معتمدين على بلاغتها في التعبير عن خلجات القلب وخطرات النفس. . .

الفصل الثاني

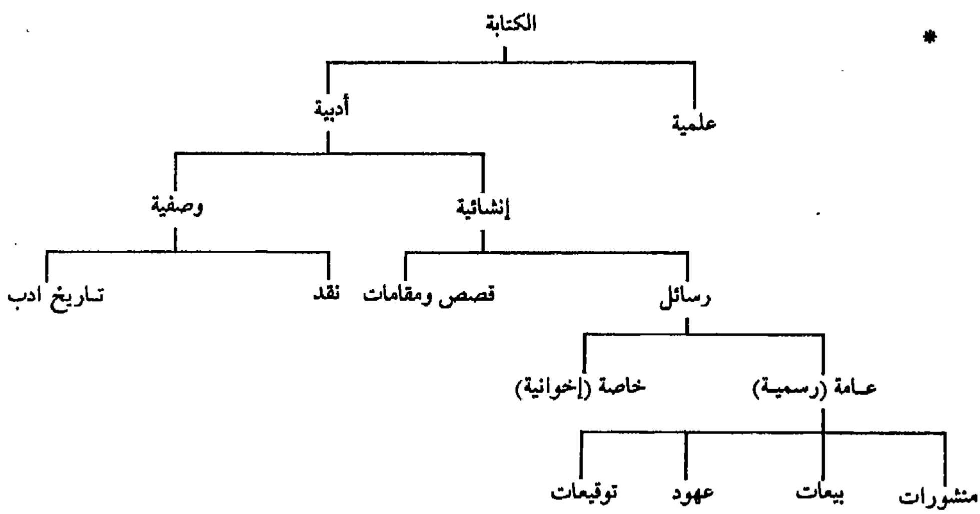
ألوان الكتابة (*)

الكتابة نوعان: علمية وأدبية

فالعلمية: هي لغة التأليف التي تتناول حقائق العلم بأسلوب موضوعي محض لا أثر فيه للخيال والزخرف، ولا مجال للتروي إلا بمقدار ما تسمح سلامة الفكرة، وإصابة النظرة كتقعيد القواعد النحوية، وتقرير الأصول الفقهية، وما إلى ذلك من نظريات الرياضة وخواص المادة وظواهر الطبيعة وغيرها من الأساليب العلمية التي هدفها الأول جلاء الحقيقة وإبراز الفكرة... ومثل هذا اللون من التعبير لا يدخل في دائرة هذا البحث.

---

*



والأدبيـة: هي لغة الإنشـاء التي تثير العـاطفـة بجمـالهـا، وتحـرك المشـاعـر ببـلاغتهـا، كـالـرســائـل الفنيـــة التي تبعث اللذة أو الألم في نفس القـارىء أو السامع، بخيالها الخصيب، وأسلوبها الرائع، وألفاظها الموسيقية.

عـلى أن الحقائق العلميـة قد تصـاغ بأسلوب أدبي تخفيفـاً لحـدتهـا، وتلطيفـاً لجفـافها. . . وأكـثر ما يكـون ذلك في كتب السـير والمغازي والأخبـار. وأيـاً مـا كان فلن يكون لهـا هذه الصفـة إلا إذا أثارت العـواطف، وأمتعت النفوس. . . وقـد رأينا فيـما سبق بعض العلماء الموهـوبين الـذين حلقوا في سماء العلم بخيال الأدباء فأبدعوا، وتجلت على أسلات أقلامهم بعض الحقائق العلمية ناصعة.

سمات الكتابة الأدبية

ليس الغرض من التعبير الأدبي مجـرد إبراز الحقـائق أو جلائهـا، وبثّ الأفكار أو تأييدها، بل الغرض الأصيل هو «قوة التـأثير» في نفس القـارىء أو السامـع، لتنفعل نفسه بمثل ما انفعلت بـه نفس الكاتب من المؤثـرات؛ حسية أو تخيليـة؛ حتى يـدرك ما أدرك ويحس بمـا أحس. . .، ومتى استـطاع الكـاتب ـ أو الأديب بعـامة ـ أن يثـير وجدان المخـاطب، ويوقظ مشـاعـره إلى جـانب عقله فقـد بلغ الغاية مما أراد ـ أي الافادة والتأثير.

عـلى أنـه لن يبلغ ذلـك إلا بعنصر حيـوي جـديـد، زائـد عـلى العنصـــرين الأولـين «الفكرة والعبـارة»، ونعني به عنصر «الصـورة» التي يتخيلهـا أو يتمثلهـا الأديب، والتي تبدو ـ من خلال تشبيهاته الـرائعة واستعـاراته البـارعة وكنـاياتـه اللطيفـة في نسق فني جميل، وقـد توضـع بعد ذلـك في إطار من زخـرف القـول وموسيقى اللفظ؛ فتزداد رونقاً وبهاء؛ كما تزداد فاعلية وتأثيراً.

وإذن فهذه «الصورة الأدبيـة» قد رسمهـا الكاتب بخيـاله، وهـذا الخيال قـد بعثته العاطفـة المشبوبـة. وهذه العـاطفة قـد أثارهـا الانفعال بـالمؤثر الخـارجي: حسياً كان أم معنوياً.

وفيما يلي أنمـاط مختلفة لهـذه «الصورة الأدبيـة» التي تبدو في «شكـوى الزمـان» لبعض أمراء البيان.

١ ـ كتب الصولي . . إلى أحد إخوانه .

«يا أخي أشكو إلى الله وإليك تحامُلَ الأيام عليّ، وسوءَ أثرِ الدهر عندي، واني مُعلق في حبائل من لا يعرف موضعي، ولا يحلو عنده موقعي، أطلب منه الخلاص فيزيدني كلفا، وأرتجي منه الحق فيزداد به ضنا، فالشواء ثواء مقيم، والنية نية ظاعن، وبزمام الرأي مرتحل، ما أذهب إلى ناحية في الحيلة إلا وجدت دونها مانعاً من العوائق، وأحمل الذنب على الدهر فارجع إلى الله بالشكر، وأسأله جميل العقبي وحسن الصبر.

٢ ـ وكتب ابن العميد في مثل ذلك يقول:

(إنما أشكو اليك ـ جعلني الله فداك ـ دهراً خؤوناً غدوراً وزماناً خدوعاً غروراً، لا يمنح ما منح إلا ريثما ينزع، ولا يبقى فيما يهيب إلا ريثما يرتجع. يبدو خيره لُمَعا، ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جُرَعا، ثم يمتنع. وكانت منه شيمة مألوفة، وسجية معروفة، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض، ويهدي لما يبسطه، وشك انقباض. وكنا نلبسه على ما شرط، وإن حاف فيه وقسط، ونرضى على الرغم بحكمه ونسلم ونستئم بقصده وظلمه، وتعتبر من أسباب المسرة ألا يجيء معذوره مصمتاً بلا انفراج، ولا يأتي مكروهه صرفاً بلا مزاج، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته. ونسترقه من ساعاته، وقد استحدث غير ما عرفناه سنة مبتدعة، وشريعة متبعة، وأعد لكل صالحة من الفساد حالا، وقارن بكل خلة من المكروه خلالا».

٣ ـ وكتب أبو الفضل الميكالي:

«إنما أشكو إليك زمانا ـ سلب ضعف ما وهب، وفجع بأكثر مما متع وأوحش فروق ما أنس، وعنف في نزع ما لبس؛ فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع حتى جرعنا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس التلاق.

٤ ـ وكتب البديع يقول:

الحر ـ أطال الله بقاءك ـ، ولا سيما إذا عرف الدهر معرفتي، ووصف أحواله صفتي، إذا نظر علم أن الدهر ما دامت معدومة فهي أماني، فإن

وجدت فهي عواري وان محن الزمان وان مطلت فستفد، وإن لم تصب فكأن قد، فكيف يشمت بالمحنة من لا يأمنها في نفسه، ولا يعدمها في جنسه؟ والشامت إن أفلت فلن يفوت، وإن لم يمت فسيموت، وما أقبح الشماتة بمن أمن الأمانة، فكيف بمن يتوقعها بعد كل لحظة، وعقب كل لفظة، والدهر غرثان، طعمه الخيار، وظمآن شربه الأحرار، فهل يشمت المرء بأنياب آكله، أم يسر العاقل بسلاح قاتله؟

التعليق:

لجأ «الصولي» في تصوير انفعاله بأحداث الدهر وعواديه إلى المحسنات البيانية من تشبيه واستعارة وكناية، فقد تخيل الدهر إنساناً جائراً متحاملاً عليه.... ربطه بمن لا يعرف فضله ولا يقدره قدره، ثم تركه هكذا أسيراً في قفصه، معلقاً في حباله، لا يفيء عليه برحمة ولا يخلي سبيله لرحمة غيره، بل تعقبه في كل سبيل، ليضع أمامه العوائق والعراقيل، ومع ذلك لم ييأس من رحمة الله؛ سائلا أياه جميل العقبى وجميل الصبر.

أما البديع والميكالي، فقد أضافا الى هذه الصور الخيالية، مجملات لفظية أخرى من سجع موقع وجناس متجانس، وطباق أو مقابلة فضلاً عن الاستواء وحسن التقسيم.

وأما ابن العميد فقد بذ الجميع في ذلك كله، ثم فرعهم «بالسجع الحالي»[1] والأسلوب المرصع[2] المتوازي كقوله:

* «دهرا خؤوناً غدورا، زمانا خدوعا غرورا»
* يبدو خيره لمعاً، ثم ينقطع، ويحلو ماؤه جرعا ثم يمتنع
* لا يجيء معذوره مصمتا بلا انفراج، ولا يأتي مكروهه صرفا بلا مزاج.
* نختلسه من غفلاته، ونسرقه من ساعاته

---

(١) السجع الحالي: إتفاق الفاصلتين وزناً وروياً.

(٢) المرصع: إتفاق جميع المتقابلات وزناً وتقفية «أنظر المثال: يبدو خيره لمعاً...».

ألوان الكتابة الأدبية

تفرعت هذه الكتابة إلى فرعين رئيسين؛ ولكل منهما فروع . . هما:

(١) الكتاب الإنشائية (٢) والكتابة الوصفية

ويراد بالأولى ما ينشئه الكاتب، لأول مرة، حينما تنفعل نفسه بمنظر جميل، أو حادث أليم. تعبيراً صادقاً عن إحساسه بهذا أو ذاك كالبلبل حينما يشدو أو الورقاء حينما تهتف وتنوح.

ويراد بالثانية تعبير السامع أو القارىء عن إحساسه بما أنشأه غيره فإذا قرأت رسالة ـ أو استمعت إلى قصيدة أو خطة فملأتْ نفسك إعجاباً بها أو نقمة عليها إن لم تكن كذلك. ثم أردت أن تصف هذا الاحساس؟ بإظهار محاسنها أو عيوبها كان ذلك النقد «أدباً وصفياً» فأنت لم تنشىء الرسالة أو القصيدة أو الخطبة وإنما أنشأها غيرك، وما زدت على أن وصفتها بما ترى. . . وكذلك إذا أرّخت لها وربطتها بزمانها ومكانها ليتضح أمرها في ظل بيئتها وجوّها. . . فالنقد إذن، وتاريخ الأدب، من قبيل الأدب الوصفي. . وكانا أول الأمر مختلطين بعضهما ببعض[1] ثم أخذا ينفصلان في أواخر القرن الرابع، وأصبح النقد. . فناً مستقلا قائماً بذاته حينما اتضحت علوم البلاغة التي كانت تسمى علم البيان حيناً، وعلم البديع حيناً آخر.

ولعل كتاب. . مجاز القرآن. . لأبي عبيدة معمر بن المثنى أول كتاب ظهر في ميدان البلاغة. . . ألفه أبو عبيدة دفاعاً عما ورد في القرآن الكريم من غير مألوف العرب. . كشجرة الزقوم. . . ورؤوس الشياطين مشيراً الى أن ذلك لمجرد التهويل جريا على سنن العرب. . الا تراهم يذكرون في أشعارهم

---

(١) انظر التوجيه الأدبي ص ٢ وتاريخ النقد الأدبي للحاجري ص ١٠ (ط روبال بالاسكندرية ١٩٥٣).

(٢) كان الجاحظ أحياناً يخطىء ما ليس بخطأ. . خطأ الوليد بن عبد الملك في قوله: علي بن أبي طالب لص بن لص بضم اللام فيهما، والحقيقة أنها مثلثة اللام وخطأ يوسف بن خالد التميمي في قوله. . حتى يشجه. . بكسر الشين، وفيها الكسر والضم معاً (البيان والتبيين جـ ٢١٣/٢ هرون).

الغول والعنقاء وهم لم يروا هذه ولا تلك؟

ثم تلاه الجاحظ (١٥٠ ـ ٢٥٥) فأفرد للبلاغة بحثاً ضافياً في البيان والتبيين. أحاط فيه بتعريف البلغاء لها، وذكر جملةً من آثارهم البليغة وأخرى مما لم تبلغ الغاية . . .

ومن ذلك التاريخ اتجه الأدباء الى البحث في أسرار البلاغة، فظهر كتاب البديع لابن المعتز وهو يريد بالبديع فروع البلاغة كلها. أحاط فيه بسبعة عشر لوناً من ألوانها كما ظهر كتاب نقد الشعر لقدامة، ونقد النثر المنسوب إليه أيضاً، وكذلك أمالي ابن دريد (٣٢١ هـ) التي نقل عنها أبو علي القالي، في أماليه، نتفاً من النقد مرجعه قواعد البلاغة.

وفي أواخر القرن الرابع ظهر كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (٤٩٥ هـ) تضمن الواناً مختلفة من مباحث البلاغة، كالفصاحة والبلاغة والإيجاز والإطناب والحشو والاستعارة والكناية . .

لم تكن هذه البحوث منظمة ولا مستوفاة ولا جارية على أساليب النظر الفني ومع ذلك فقد مهدت الطريق لواضعي عليه علم البلاغة كما يقول ابن خلدون.

ولما جاء إمام البلغاء والبلاغيين عبد القاهر الجرجاني (٤٧١ هـ) جمع متفرقها، ورتب أبوابها، وهذب بحوثها في كتابيه «أسرار البلاغة» و«دلائل الاعجاز» وبهما يرى الكثيرون أنه أول واضع لقيم البلاغة، من حيث إنه أحاط في كتابه الأول بالتشبيه والتمثيل، والاستعارة والكناية. ثم فصل ما اجمل هنا في كتابه الثاني، وأبان عن القيمة البلاغية في التعبير بهذه الأساليب ومدى رجحانها كفة التعبير. (بالحقيقة).

ولما تعرض للسجع والتجنيس والأخذ والسرقات وحسن التعليل وغيرها من مباحث البديع اشار إلى أنها من البيان الذي أراد ايضاحه للكشف عن سر الاعجاز في كلام الله تعالى.

وفي كتابه الثاني تعرض لكثير من مباحث علم المعاني، كالفصل والوصل، والقصر والايجاز والاطناب والحذف والذكر ثم أفاض القول في مباحث النقد

خاصة كباب اللفظ والنظم وتحرير القول في الاعجاز والبلاغة والفصاحة. ويمثل هذا أرسى قواعد البلاغة.

غير أن ابن خلدون يرى أن السكاكي (٦٢٦ هـ) هو الواضع لعلم البلاغة من حيث إنه في كتابه مفتاح العلوم زاد الأمر وضوحاً، وبه تميزت علوم البلاغة الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، ولكن فضل عبد القاهر كما رأينا جدير بألا يجحد.

ولما دالت الدولة العباسية سنة ٦٥٦ جمدت البحوث وما زاد علماء البلاغة على أن تناولوا كتاب المفتاح للسكاكي بالشرح والايضاح. كالخطيب القزويني (٧٣٩ هـ) الذي قام «بتلخيصه» فلما جاء سعد الدين التفتازاني تناول هذا التلخيص بالشرح والتفسير ولا يزال شرح السعد أوفى مرجع لعلوم البلاغة، وأعلام النقد..

الكتابة الانشائية

للكتابة الانشائية فرعان رئيسان: هما:

(١) الرسائل (٢) القصص والمقاومات، ولكل منهما فروع..

أولاً ـ الرسائل

يراد بالرسالة أصلا ما ينشئه الكاتب إلى غيره، في غرض من الأغراض، فتشمل الخطاب كما تشمل الجواب، ومنه «التوقيع»، وتشمل أيضاً المقالات الإنشائية كوصف الصديق لابن المقفع، والكتاب للجاحظ، كما تشمل المناظرات الأدبية، كمناظر البديع للخوارزمي، فإن صدرت عن الديوان وردت إليه متعلقة بشؤون الدولة كانت «رسمية» وإلا فهي الرسائل الشخصية الخاصة... وقد أفاض القلقشندي في الحديث عن نظم الرسائل، وآدابها، وما يجب أن يكون عليه الكتاب من الصفات.

الرسائل الرسمية

اقتضت سياسة الدولة، نتيجة لاتساع الملك، أن يُنشأ للرسائل ديوان

خاص كما ذكرنا، وعن هذا الديوان تنفذ الرسائل، معبرة عن رغبة السلطان أو من بيده الأمر، إلى الشعب أو الولاة في الأقاليم أو القواد في الميادين، وإليه ترد الإجابة. ومن ثم كانت مقيدة بالغرض والتقاليد الرسمية. وكانت أول أمرها خالية إلى حد كبير من التهويل والمبالغات والخيال الخصب، فلما أفتن الكتاب في أساليبها، واستبقوا في تجويدها لعب الخيال دوره وازدانت بغيرة من المحسنات، لفظية ومعنوية، وصارت مجالاً فسيحاً لأفانين البلاغة، وتفصح الكتاب. فأطنبوا حيث يجب البسط والتفصيل وأوجزوا إذا اقتضى ذلك المقام، وربما بلغوا بالإيجاز حد «التوقيع».

التوقيعات[1]

يراد بها التعليق على الرسائل الواردة إلى الديوان بما يناسبها، مع التعليل لذلك بآية قرآنية أو حكمة سائرة أو قول محكم، من إنشاء الكاتب بأسلوب موجز دقيق، ربما بلغ بالإيجاز حد الاعجاز.

في هذا العصر افتنَّ الموقعون وتجلت على أسلات أقلامهم ثمار البلاغة يانعة، وممن بلغ الغاية في ذلك جعفر البرمكي يقول الجهشياري: كان كاتباً بليغاً إذا وقع نسخت توقيعاته وتدورست بلاغته[2]. ومن ذلك توقيعه لعامل كثر التظلم منه: كثر شاكوك، وقل شاكروك؛ فإما اعتدلت وإما اعتزلت) وفي قصة محبوس يطلب العفو: العدل أوثقه والتوبة تطلقه). وحدث أن وقّع بين يديه عمرو بن مسعدة في شكوى عمال يريدون زيادة رواتبهم بقوله: (قليل دائم خير من كثير منقطع) فضرب على ظهره وقال: أي وزير في جلدك).

يقول القلقشندي: والتوقيع أمر جليل، ومنصب حفيل؛ إذ هو سبيل

---

(١) للتوقيع في اللغة معان عدة يمت أغلبها إلى المعنى الأدبي بصلة، منها: الطرق؛ والميقعة والمطرقة. يقال سيف موقع إذا طرقه الصيقل وحدده بمطرقته، والتوقيع في الرسالة يجعلها نافذة ماضية. ومن معانيه أيضاً التأثير، يقال ناقة موقعة الجنب من أثر الحبال، فما أشبه ذلك بآثار القلم على الصحيفة، وبعير موقع إذا دبر وأصابته قرحة من أثر الرحل ثم برئت وخلفت شامة بيضاء، والتوقيع في الرسالة يكون غالباً بمداد مخالف.

(٢) الجهشياري ص ٢٠٤.

الإطلاق والمنع، والوصل والقطع، والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السنية، واعلم أن التوقيع من يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء. فكان الخليفة هو الذي يوقع في الأمور السلطانية وفصل المظالم وغيرها.

فلما اتسع الملك كان الخلفاء يوقعون بأنفسهم حيناً، ويتركون ذلك لكتابهم حيناً آخر، كتب الى السفاح جماعة من أهل الأنبار يشكون من استيلاء الدولة على منازلهم ولم تعوضهم عنها، فوقع: (هذا بناء أسس على غير تقوى).

ووقع المنصور إلى عامله بمصر: طهِّرْ عسكرك من الفساد يعطِك النيلُ القياد، وكتب عامل أرمينية إلى المهدي يشكو إليه سوء طاعة الرعية. فوقع. (خذ العفو وأمر بالعرف، وأعرض عن الجاهلين).

ووقع الرشيد في مقتل جعفر البرمكي: أنبْتته الطاعة وحصدته المعصية). وكتب إليه يحيى بن خالد من السجن يستعطفه فوقع. (عظيم ذنبك أمات خواطر العفْو عنك).

كان الكثيرون يقتبسون توقيعاتهم من القرآن الكريم. وقع الصاحب بن عباد في قصة أعجبته «أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون»، ولبعض مخالفيه «فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون»، وفي رقعة رُفِعت إليه تضم الكثير من تعبيراته، «هذه بضاعتنا ردت إلينا»... فإذا استقل بنفسه لجأ إلى التصنيع في توقيعاته من سجع وجناس.. أليس من أعلام مدرسة ابن العميد، وصلته رسالة تنبئه أن أحد أعدائه يدخل داره في زمرة الداخلين فوقع. (دارنا هذه خان، يدخلها من وفى وخان).

«وبعد» فما أصل هذه التوقيعات...؟ أهي عربية صميمة أم منقولة عن الفارسية؟

اختلف الباحثون في ذلك منذ زمان، ولا يزالون مختلفين.. غير أن توقيعات الخلفاء الراشدين، وخلفاء بني أمية[1] تجعلنا نقول مع القائلين.

---

(١) أنظر العقد جـ ٢/١٨٥ وما بعدها

بعـربيتها الأصيلة، وإنها نبعت من الصـدور العربيـة، لأنها من ضرورات الملك واستبحار العمران، فضـلاً عن طابعهـا الموجـز الذي هـو من سمات الأسـاليب السامية لا الآرية المطنبة، والأمثال الجاهلية المأثورة تنـطق بهذا، وتؤيـد ما ذهبنـا إليـه من تقـريـر أصـالتهـا العـربيـة. . . . أليست هـذه الأمثـال ضـربـاً من «التوقيعات» وإن لم تكن محبرة؟

أمـا ظاهـرة «الإطناب» في تلك الـرسـائـل، فكـانت تتجـلى في «المنشـورات العـامـة» والعهـود المختلفـة، ورسـائـل الخميس، وغـير ذلـك من المـواقف التي تتـطلب الإفاضـة؛ فالمنشـورات كانت تقـرأ على الملأ، وتذاع في شتى البقـاع، متضمنة أمراً هاماً، أو قراراً عامـاً: سياسيـاً كان أم دينيـاً، وكتب العهود كـانت تتضمن العهد بالإمـارة أو القيادة أو القضـاء، وكلها تشـير الى مهام الأمـور التي سيضطلعون بها، والآمال المعلقة عليهم فيما فيه خير البلاد والعباد.

صاحب الديوان ومنزلته:

رئيس الـديوان هـو كـاتم سر الخليفـة، ومن ثم كـانت مـرتبتـه ـ كـما يقـول القلقشندي(١) ـ أرفـع مـرتبـة، ومحله أعـظم محـل، إليـه تلقى أسـرار المملكـة وخفاياها، وبرأيه يستضاء في مشكلاتها، وعـلى تدبيـره يعول في مهمـاتها، وإليـه تـرد المكاتبـات، وعنه تصـدر، ومن ديـوانـه تكتب [إلى] الـولايـات السلطانيـة كافة، ويقـوم توقيعـه على القصص في نفـوذ الأوامر مقـام توقيـع السلطان وجميع ما يعلّم عليه السلطان. . . وناهيك بذلك رفعة، وشرفاً باذخاً»(١).

قـال صاحب مـواد البيـان: «ليس في منـزلـة خـدم السلطان والمتصـرفـين في مهمـاته أخص من كـاتب الرسـائل؛ فـإنه أول داخـل على الملك، وآخـر خارج عنه، ولا غنى له عن مفـاوضته في آرائـه، والافضاء إليـه بمهماتـه، وتقريبـه من نفسه في آناء ليله، وساعات نهاره، وأوقـات ظهوره للعـامة، وخلواتـه واطلاعـه على حوادث دولته ومهمات مملكتـه، فهو بـذلك لا يثق بـأحد من خـاصته ثقتـه به، ولا يركن إلى قريب أو نسيب ركونه إليه»(٢).

---

(١) صبح الأعشى جـ ١٠٢/١.
(٢) المرجع السابق/١٠١.

من أجل هذا كان الخلفاء يتحرون الدقة في اختيار هذا الرئيس الذي كان في بعض الأحيان يقوم بشؤون الوزارة أيضا، ولعل من أبرز صفاته ـ فضلاً عن حصافة عقله وبلاغة قلمه ـ أن يكون أميناً على أسرار الدولة. . . قال الوليد بن عتبة لأبيه:

«إن أمير المؤمنين أسرّ إليّ حديثاً، أفلا أخبرك به؟ قال: يا بني: إن من كتم سره كان الخيار له، ومن أفشاه كان الخيار عليه، فلا تكن مملوكاً بعد أن كنت مالكاً».

كفى بالكتابة شرفاً أنها طريق الديوان، وكفى برئاسته فخراً أنها طريق الوزارة والحجابة.

الرسائل الخاصة:

هي تلك الرسائل الشخصية التي كانت تحبرّ بعيدة عن الديوان إلى أحد الإخوان في أمور خاصة لا تتعلق بشئون الملك، ولا بسياسة الدولة، أو تتعلق، بها بصفة غير رسمية ـ كالتهنئة، والتعزية، والشكوى، والعتاب والاستعطاف، وغير ذلك مما يصور العواطف الخاصة، بقدر ما بين الأفراد من روابط وصلات، ومن ثم كانت أدخل في الناحية الفنية من الرسائل العامة «الرسمية»؛ فهي أفسح منها مجالا، وأخصب خيالا، لا يحدها إلا ذوق الأديب. أغراضها جمة وأساليبها منوعة. . وكاتبها حر طليق؛ إن أردتها جادة كانت عينَ الجد، وإن أردتها مرحة كانت ذوب الفكاهة بل إن شئت كانت أرق من الماء وألطف من الهواء، وإن شئت كانت أقسى من الصخر، وأصلب من الحديد، فما أشبهها بالشعر إلا أنه موزون مقفى.

ثانياً ـ القصص والمقامات

أسفرت حركة الترجمة التي نمت وازدهرت في هذا العصر عن نقل طائفة من عيون القصص الفارسية والهندية إلى العربية:

فمن القصص الفارسية:

(١) هزار إفسانة: وهو أصل «ألف ليلة وليلة»
(٢) رزبة اليتيم
(٣) يوسفاس
(٤) رستم وإسفنديار
(٥) الكار مانج في سيرة أنوشروان
(٦) دارا والصنم الذهب
(٧) بهرام ونرسى
(٨) نمرود
(٩) الديك والثعلب
(١٠) مزدك

ومن القصص الهندية:

(١) السندباد الكبير والصغير
(٢) كليلة ودمنة
(٣) جوداسف

على أن أغلب هذه القصص هندية وفارسية، قد عدا عليها الزمان فضاعت أو حرقت، ولم يبق منها سوى أسمائها التي أشار اليها ابن النديم.

ولعل أروع ما وصلنا منها، وكتب له الذيوع والانتشار، كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة.

كليلة ودمنة:

كتاب أدب وحكمة، يحوي طائفة من القصص الهندية الهادفة. وضعه - على ألسنة الحيوان - بيديا الفيلسوف البرهمي للملك دبشليم الطاغية، وهو يرجو من ذلك أن يصرفه عما هو عليه، ويرده إلى العدل والانصاف[1]... وهكذا كان شأن هذا الكتاب، ظاهره التسلية، وباطنه الحكمة، والآداب التي

(١) كليلة ودمنة - المقدمة - ص ٥ ط الاميرية/١٩٣٩.

تعظ الملوك من طرف خفي.

فلما علم به الملك العادل كسرى أنوشروان جدَّ في طلبه، وأرسل في ذلك طبيبه «برزويه» الذي نقله إلى الفهلوية من احدى خزائن الكتب بالهند. ترجم بعضه الى الفرنسية فكان مددا لقصاص فرنسا، وبخاصة «لافونتين» La Fontaine الذي اقتبس منه عشرين حكاية في قصصه الطريف على لسان الحيوان [1].

وفي عهد أبي جعفر نقله الى العربية عبد الله بن المقفع، وكان موقفه من الخليفة موقف بيدبا من دبلشيم... وكان يرجو أن يقرأه الخليفة فيعدل، وتقرأه العامة فتغضب لظلمها، وتلك أراد...، وعن هذا الأصل العربي نقل إلى معظم لغات العالم شرقاً وغرباً.

ألف ليلة وليلة:

يدعى هذا الكتاب بالفارسية «هزار إفسانة» أي ألف خرافة، ولعل المسعودي ـ في مروج الذهب[2] ـ أول من أشار إليه.

نقل إلى العربية في القرن الثالث الهجري، وهو مجموعة ضخمة من القصص الشائقة، بعضها فارسي الأصل، وبعضها دخيل من وضع العرب.

أما الأصيل فمعزو إلى قاصيّة فارسية تدعى «شهرزاد» وكانت قد تزوجت من ملك ساساني طاغية، يقتل كل زوجة يقترن بها صباح اليوم التالي، بعد أن خانته زوجه الأولى. ذلكم هو الملك شهريار.

وإذ خشيت شهرزاد على نفسها، أخذت تقص عليه كل ليلة طرفاً من قصة مسلسلة، ليدركها الصباحُ قبل تمامها. فيبقي عليها لتكملها في الليلة التالية... ولما كانت الليلة الأولى بعد الألف استشفعت إليه بأبنائها الثلاثة أن يبقيها في عصمته، وكشفت له عن حيلتها فأكبر عقلها وأبقى عليها.

---

(١) الادب المقارن للدكتور محمد غنيمي هلال ص ١٨١.

(٢) مروج الذهب جـ ١٧/ ٨٩.

وأما الدخيل عليها فقد جاء ممثلاً في حلقتين: الأولى، بغدادية تدور حول الرشيد والبرامكة، والثانية: مصرية تدور حول القاهرة، ولياليها، وسمرها وما طبع عليه أهلها من روح الدعابة وعذوبة الحديث.

تُرجم هذا الكتاب أيضاً إلى معظم لغات العالم، ونال عناية المستشرقين في القرن التاسع عشر، وبخاصة «ديكنز Dackens » و« تنيسون ـ Tennyson» الذي نظم فيه إحدى قصائده.

القصص العربية

أقبل العرب على هذا التراث الشائق المنقول إليهم عن الفرس والهند والصين، وبخاصة ألف ليلة وليلة التي فتحت لهم آفاقاً جديدة خصبة الخيال فأخذوا ينسجون على منوالها حتى تمت لهم الملكة الفنية.. غير أنهم كانوا يمزجونها أحياناً بالنكت والنوادر؛ كما في قصص جحا، ونوادر ابي ضمضم، وابن الموصلي أشار إليه ابن النديم...

وجد العرب في تراثهم الجاهلي والإسلامي ما أمدهم بقصص الحماسة، والبطولة والغرام.. على أنها بالطبع لم تكن قصصاً بالمعنى الفني الصحيح، وإنما كانت بالسِّيَر أشبه.. ومن ذلك:

١ ـ قصة شيبان مع كسرى أنوشروان.

٢ ـ قصة بكر وتغلب.

٣ ـ قصة البراق.

٤ ـ قصة عنترة.

(١) قصة شيبان مع كسرى

طبعت في بمباي بالهند، وهي قصة تاريخية خيالية تدور حول ما وقع بين أنو شروان وبني شيبان من حروب. رواها بشر بن مروان الأسدي ولا يعلم من كتبها، ولا متى كتبت.

(٢) قصة بكر وتغلب

رواها محمد بن اسحاق صاحب السيرة النبوية، وفيها تتجلى أخبار كليب وائل وجساس بن مرة، كما تبدو فروسية العرب من خلال أشعارهم التي تضمنتها القصة. طبعت أيضاً في بمباي سنة ١٣٠٥ هـ .

(٣) قصة البراق

دونّها عمر بن شبة المتوفى سنة ٢٦٢، والبراق أحد فرسان العرب وشعرائهم في الجاهلية من أقرباء المهلهل وكليب.. أحاط ابن شبة في هذه القصة بمغامرات البراق، ووقائعه في حروب عدة، أهمها حرب البسوس وحرب الفرس لأسرهم ابنة عمة لُكيز ومخطوبته ليلى العفيفة.

(٤) قصة عنترة:

أمتع القصص المأثورة عن هذا العصر وأطولها حيث تقع في ٧٢ جزءاً يروى أنها وضعت في زمن العزيز الفاطمي: لتشغل الناس عن ريبة حدثت في البلاط، ومن ثم وضعت مسلسلة لتشوق القارىء وتشغل باله على نحو ما كانت تصطنعه شهرزاد في الف ليلة وليلة.

جاءت هذه القصة بعد قصة البراق تترسم خطاها، وقد حاول مؤلفها أن يطالع الناس يبطل لم تظفر بمثله الحروب، أين منه «البراق» ذو التاريخ الحربي المجيد؟

تضافرت الروايات على أن مؤلفها هو الراوية... يوسف بن اسماعيل المصري في القرن الرابع الهجري غير أن المستشرق هامر بيرجستال[1] قد إهتدى إلى نص في طبقات الأطباء[2] يشير إلى أن واضعها أحد أطباء العراق وشعرائها ابو المؤيد الصايغ الملقب بالعنتري في القرن السادس.

نالت هذه القصة إعجاب المستشرقين، أطلع عليها لامارتين Lamartine

---

(١) انظر Journal Asiatique Tome. V. 1838 P. 386

(٢) عيون الأبناء في طبقات الأطباء لابن أبي اصيبعة جـ ١/ ٢٩٠.

أثناء زيارته للشرق، وخصها ببحث قيم في كتابه Voyage en Orient كما قام بترجمتها إلى الفرنسية (كاردن دي كاردون Cardin de Cardonne) و(دي برسيفال De Percaval) و(دوفيك Dovie) ولعل أول من إهتم بها من المستشرقين الانجليز المستر تاريك هاملتون **Terrik Hamilton** سكرتير السفارة الانجليزية بالقسطنطينية، فقد نشر ترجمتها في أربعة مجلدات بعنوان Antar-A Bedween Romance .

وثمة ألوان أخرى من القصص التي عالجها العرب، كانت تهدف إلى أعراض أخرى: علمية فلسفية كرسالة الغفران، أو أدبية لغوية كالمقامات.

رسالة الغفران:

رحلة خيالية إلى العالم العلوي، جمعت بين العلم والأدب، والنقد والفلسفة، ألفها أبو العلاء المعري في عزلته رداً على رسالة ابن القارح الذي كان على شاكلته في العقيدة الدينية القلقة.

في هذه الرسالة تخيل أبو العلاء صديقه هذا يصعد إلى السماء، ويشهد الجنة ونعيمها، والنار وزفيرها.. ثم بدأ يقص علينا ما رأى وما سمع، وكان أول لقاء مع رضوان، خازن الجنة الذي منعه من الدخول حينما هَمّ بذلك؛ إذ كان لا يحمل جوازاً، غير أن ابن القارح تشبث بأحد الداخلين المقربين الذي جذبه معه.

وفي الجنة التقى بطائفة من شعراء الجاهلية فشاركهم سمرهم، كما أخذ يحاورهم حوار الأديب الناقد الخبير بشعرهم، البصير بأساليبهم.. ثم أخذ يطوف في الجنة، فلما التقى بعالم الجن سألهم عما ينسب اليهم من أشعار عربية، وقواف غير إنسية، وفي خاتمة المطاف، وعند مشارف النار يلتقي بالخنساء وهي تنظر إلى أخيها صخر في الجحيم، كما يلتقي بالحطيئة وبشار وإبليس وغيرهم ممن غفر الله لهم وأخيرا يشرب مع «الرجاز» كأساً من معين، لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون.

بهذا الأسلوب القصصي، وبهذا الخيال الخصب أخذ المعري يعرض آراءه

الأدبية، ومعتقداته الدينية، ونظراته الفلسفية.

ولما نشبت الحروب الصليبية بين الشرق والغرب، كانت هذه الرسالة من بين الآثار الأدبية التي نقلت إلى أوروبا، فألهمت الشاعرين العظيمين «دانتي» شاعر الطليان في رحلته الخيالية «الكوميديا الإلهية» وملتن شاعر الانجليز في روايته الخالدة «الفردوس المفقود»[1].

فن المقامات

المقامة لغة المجلس، قال تعالى: ﴿أيّ الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً﴾، وقال زهير بن أبي سلمى.

وفهم مقامات حسان وجوُهها وأندية ينتابها القولُ والفعل

أطلقت مجازاً على ما يقال في المجلس من حديث، أو خطبة أو خبر يستوعب جلسة واحدة ـ ومثلها في هذا الإطلاق كلمة . . المجلس التي تطلق على ما يدور فيه من حديث، كمجالس ثعلب، ومجالس الزجاجي وبهذا المعنى استعملها بديع الزمان في مقامته الوعظية. . ثم غلب استعمالها على هذا اللون الظريف من القصص الأدبية القصيرة المقرونة بنكتة أدبية أو لغوية والتي يغلب عليها السجع والبديع والغريب، وبهذا القيم فرعت غيرها من فنون الكتابة، ولفتت أنظار المشارقة والمستشرقين، وبخاصة مقامات الحريري التي ترجمت إلى الفارسية، والتركية، والإيطالية، والألمانية والفرنسية والانجليزية.

ومع أن المقامة ـ من غير شك ـ تشوق القارىء أو السامع بأسلوبها الحواري القصصي فإن هذه الناحية لم تكن هدفها الأسمى بقدر ما كانت ترمي أولاً إلى تعليم الناشئين أساليب اللغة، وإمدادهم بالغريب من مفرداتها فضلاً عن إظهار بلاغة المنشىء ومدى ما بلغت حصيلته اللغوية، ومن ثم خلت إلى حد ما ـ من «العقدة» أو الحبكة الفنية، على نحو ما نرى في روائع القصص

---

(١) ص ١٧٢ (ط المعاهد)

أصل المقامات ونشأتها:

اختلف الباحثون في أصلها: أعربي هو أم فارسي[1]؟ كما اختلفوا في نشأتها: أهي من إبتكار بديع الزمان كما ذهب الحريري[2] والقلقشندي[3] أم من إبتكار أستاذه ابن فارس كما يرى جرجي زيدان[4]؟ أم سبقهما إليها ابن دريد، كما يفهم من نص صريح للحصري[5]؟

ونرى أنها عربية الأصل لسببين:

(١) أن المقامات الفارسية لم تزدهر إلا في أواسط القرن السادس الهجري على يد القاضي.. حميد الدين أبي بكر بن عمر البلخي[6] المتوفى سنة ٥٩٩ هـ. فالرواة يشيرون إلى أنه في جميع مقاماته كان يحذو حذو الحريري.

(٢) إن المقامات العبرية والسريانية نقلت عن الأصول العربية، وأن مقامات الحريري أول ما ترجم إلى هذه وتلك[7]، فلو كان للمقامات الفارسية فضل السبق لكانت أولى بهذه الترجمة ولكان شأنها شأن كتاب كليلة ودمنة الذي نقل الى السريانية قبل أن تعرفه العرب.

ولهذا نرى «بروكلمان» في الدائرة يشير إلى أصالتها العربية، كما يشير أيضاً إلى أن «البديع» أول من نقلها إلى الفارسية[8].

* * *

(١) النثر الفني جـ ١ ص ٢٠٣.
(٢) مقامات الحريري ص ١٥.
(٣) صبح الأعشى ١٤/ ١١٠
(٤) تاريخ آداب اللغة ٢/ ٣٠٩
(٥) زهر الآداب ١/ ٣٠٧
(٦) النثر الفني جـ ١/ ٢٠٣.
(٧) دائرة المعارف الإسلامية/ ١٧٣ من [Livrison-30].
(٨) المرجع السابق.

وإذا طفقنا نبحث عن منشئها الأول، سيطول بنا البحث، وسوف لا نظفر بأمر قاطع، لأنها مسألة نضجت على نار الزمن، وليس من المعقول أن تولد على يد البديع كاملة النضج، تامة الاستواء، ولا بد أن تكون مسبوقة حقا بما مهد لها الطريق...

وإذا كان الحريري[١]. والقلقشندي[٢] قد عزوا نسبتها بصريح اللفظ «الى البديع، والأول نده وقريعه، فإن الحصري قد أرجعها إلى ابن دريد وساق في ذلك نصا صريحاً أيضاً[٣].

ولئن سلمنا برأي الحصري فمن حقنا أن نسأل كذلك من ذا الذي مهد الطريق لابن دريد؟

يرى الدكتور شوقي ضيف أنه أبو عثمان الجاحظ وعقد لذلك مقارنة علمية مجدية بين مقامات البديع وأحاديث الجاحظ عن «أهل الكدية» التي رواها له البيهقي في كتابه «المحاسن والمساوىء»[٤] فانجلى وجه الشبه واضحاً بين هذه وتلك، كما عقد المقارنة أيضاً بينها وبين أحاديث ابن دريد التي رواها القالي في أماليه، وخرج من ذلك كله إلى أن أحاديث الجاحظ وابن دريد هي التي ألهمت البديع[٥].

---

(١) يقول في المقدمة (وبعد. فإنه قد جرى ببعض أندية الأدب الذي ركدت في هذا العصر ريحه، وخبت مصابيحه، ذكر المقامات التي إبتدعها بديع الزمان، وعلامة همذان... فأشار من إشارته حكم، وطاعته غنم إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالع شأو الضليع) ص ٥، ٦ ط الحلبي سنة ١٩٣٦.

(٢) يقول القلقشندي: (إن أول من فتح باب عمل المقامات علامة الدهر، وإمام الأدب البديع الهمذاني، فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه) صبح الأعشى جـ ١٤ ص ١١.

(٣) يقول الحصري عن بديع الزمان (... ولما رأى أبا بكر بن دريد الأزدي أغرب بأربعين حديثاً، وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره، واستنتجها من معادن فكره، وأبداها للابصار والبصائر، وأهداها للافكار والضمائر، في معارض عجمية، وألفاظ حوشية، فجاء أكثر ما أظهر تنبو عن قبوله الطباع، ولا ترفع له حجبها الأسماع، وتوسع فيها إذا صرف ألفاظها ومعانيها في وجوه مختلفة، وضروب متصرفة، عارضها بأربعمائة مقامة في الكدية تذوب ظرفاً، وتقطر حسناً) زهر الآداب جـ ١/٣٠٧.

(٤) ص ٦٢٢.

(٥) المقامة ص ١٨/٢٠.

. . . ويرى السندوبي أن رسالة التربيع والتدوير، التي أنشأها الجاحظ فيمن يدعى أحمد بن عبد الوهاب هي التي وجهت النفوس إلى هذا اللون الجديد من الأساليب، وهي وإن لم تكن نصاً في الكدية والسجع فيها بقدر، فيها النوادر النادرة، والدعابة الساخرة والأسلوب الحواري الشائق، حذا حذوها الخوارزمي في رسالته إلى أبي الحسن البديعي، وعلى منوالها نسج ابن فارس أستاذ البديع[1]. وعلى كل فإذا كان الجاحظ صاحب الفكرة وصاحب البذرة، فإن ابن دريد هو الذي أنبتها نباتاً حسناً، غير أن ثمارها لم تنضج إلا على يد البديع، الذي نفخ فيها من روحه، وأضفى عليها من فنه، كما سنرى:

على أن الدكتور شوقي ضيف لم يقف في بحثه ـ في هذه القضية ـ عن حد الأساليب النثرية، بل عرج على أساليب الشعر أيضاً، فأشار إلى شعراء الكدية المعروفين إذ ذاك «بالساسانيين» نسبة إلى ساسان بطلهم الأول. وكشف في يسر وسهولة عن وجه الشبه الكبير بين بعض مقامات البديع وبعض القصائد للشاعرين: الأحنف العكبري وأبي دلف الخزرجي يقول. . ومن يقرأ المقامة الرصافية للبديع يشعر أنه نثر فيها قصيدتي الأحنف وأبي دلف اللتين صورا فيهما حيل المكدين[2].

ومن ذلك كله يتضح لنا أن البديع لم يستمد مقاماته من معين واحد، غير أنه جمع الروافد، وعمّق المجرى، ومن نميره الصافي نهل الحريري، وعنهما أخذ الكثيرون عبر القرون كابن نباتة السعدي، والزمخشري. . فلما كان القرن الماضي تألقت العواصم العربية بأعلامها الثلاثة: الألوسي في بغداد، واليازجي في لبنان، وعبد الله فكري في مصر. . ولا تزال مقاماتهم خالدة على الأيام، شاهدة بفضل الحريري والبديع.

---

(١) أدب الجاحظ ص ١٩٩

(٢) المقامة/ ٢١.

الفصل الثالث

دواعي الكتابة وأغراضها

ازدهرت الكتابة في هذا العصر؛ لكثرة الدواعي اليها، وقوة الحوافز عليها. . . وفي ميادينها الفسيحة، انطلقت الأقلام، وتأنق الكتاب؛ حتى أخملوا الخطباء، وزاحموا الشعراء، وشاركوهم فنونهم الوجدانية التي كانت من قبل خاصة بهم، مقصورة عليهم. . ومن ثمّ عرف هذا العصر «بعصر الكتابة» كما ذكرنا.

ولعل من أظهر هذه الدواعي وأقواها ما سوف نحمله في ما يلي:

(أ) دَعم الخلافة:

كانت الخلافة العباسية أول الأمر ـ كما نعلم ـ محفوفة بالمخاطر؛ فالأمويون أصحاب وتر، والعلويون طلاب حق، والأعاجم ذوو حفيظة وموجدة. . فقد ضاعت آمالهم في إعادة الكسروية ـ فردوسهم المفقود ـ أمام حزم الخلفاء ويقظة العيون، ومن ثم كانوا يمالئون العلويين حينا والناقمين من الدولة حيناً آخر، مما حدا بالخلفاء أن يصانعوهم في بعض الأحوال.

كتب أبو مسلم إلى المنصور غاضباً معاتباً وقد بلغه أمر بُيِّت بليل ثم عدل عنه.

(أما بعد. فاني كنت اتخذت أخاك[١] إماماً ودليلاً على ما افترض الله الى خلقه، وكان في محله من العلم وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم بحيث كان، فقمعني بالفتنة، واستجهلني بالقرآن، فحرّفه عن مواضعه طمعاً في قليل قد نعاه الله إلى خلقه، فمثل الضلالة في صورة الهدى، فكان كالذي ضل بغروره حتى وترتُ أهل الدين والدنيا في دينهم، واستحللتُ بما كان ذلك من الله النقمة، وركبتُ المعصية في طاعتكم وتوطيد سلطانكم حتى عرفكم من كان يجهلكم وأوطأتُ غيركم العشواء[٢] بالظلم والعدوان حتى بلغت في مشيئة الله ما أحب.

ثم إن الله بمنّه وكرمه أتاح لي الحسنة، وتداركني بالرحمة، واستنقذني بالتوبة، فان يعْفُ فقديما عرِف بذلك، وإن يعاقب فبما قدمت يداي وما الله بظلام للعبيد.

فكتب إليه أبو جعفر.

«أروم ما رمت، وأزول حيث زلت، ليس لي دونك مرمى، ولا عنك مقصر، الرأي ما رأيت، إن كنت أنكرت من سيرته شيئاً، فأنت الموفق للصواب، والعالم بالرشاد، أنا من لا يعرف غير يديك، ولا يتقلب إلا في فضلك، فأنا غير كافر بنعمتك، ولا منكر لإحسانك. لا تحمل عليّ إصر غيري، ولا تلحق ما جناه سواي بي، إن أمرتني أن أشخص اليك وألحق بخراسان فعلت. الأمر أمرك، والسلطان سلطانك والسلام[٣].

ومن الرسائل التي دارت بين العباسيين والعلويين رسائل أبي جعفر إلى النفس الزكية والرد عليها[٤]. . وكذلك رسائله إلى عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب التي تفيض بالعتاب مرة، وبالتهديد أخرى[٥].

---

(١) ابراهيم الامام بن محمد بن علي.
(٢) العشواء: الظلمة
(٣) الإمامة والسياسة جـ ٢/ ١١٠.
(٤) جمهرة الرسائل جـ ٣ من ص ٨٤ إلى ص ٩٦.
(٥) المرجع السابق ص ٨١، ٨٢.

ومن المجالات الكتابية التي تتصل بالخلافة، والتي عصرت عقول الكتاب وأقلامهم رسائل الخميس، وكتب الأمان وولاية العهد، والعهود بالامارة أو القيادة أو القضاء، ثم المنشورات الرسمية التي تصدر عن الديوان إلى الولاة في الأقاليم. .

أما رسائل الخميس فهي مطولة، هدفها الدعوة لبني العباس، وإثبات أنهم أولى الناس بالخلافة، لمنزلتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم إثبات أولوية الخليفة القائم بالإشادة بذكره والإشارة إلى مواهبه وسجاياه.

كانت هذه الرسائل يكتبها أبلغ كاتب على لسان الخليفة، لتتلى على أهل خراسان، الذين يحشدون لسماعها إجلالا للخليفة وإعظاماً لشأنه، وتجديداً منهم للبيعة والولاء، ولعل عمارة بن حمزة ـ كاتب المنصور ومولاه ـ أول من قام بهذا. . . فلما كانت الفتنة بين الأمين والمأمون، وكان أحمد بن يوسف بخرسان كاتباً للفضل بن سهل، نهض بهذا العمل دعاية للدولة العباسية وللمأمون، متلمساً الحجج التي بررت قتل أخيه، ولما غضب أهل بغداد لمقتل الأمين، وثاروا على المأمون، وبايعوا عمه ابراهيم بن المهدي وكان أديباً أريباً أنشأ بنفسه رسالة الخميس. . على أن آخر ما أنشىء في هذا الصدد كانت رسالة إبراهيم بن العباس الصولي في خلافة المتوكل، لقيام الأتراك بالأمر، وإهمالهم ذكر الخليفة، وقد أشار ابن النديم[1] إلى رسالتي[2] عمارة وأحمد بن يوسف[3] مقرراً أنهما من الكتب المجمع على جودتها.

وأما كتب «الأمان» فكانت تكتب بصيغة متينة دقيقة محكمة تؤمن الخائف، وتحفظ له ـ هو وأتباعه ـ حق الحياة، مشهدين الله على ذلك.

ولعل أدق أمان وأحكمه أمان عبد الله بن علي عم المنصور، الذي كتبه ابن المقفع[4]، وقد تشدد فيه إلى حد أنضج عليه قلب الخليفة. وربما كان

---

(١) الفهرست ص ١٨٣.

(٢) إختيار المنظوم والمنثور ١٢/١٦٣.

(٣) المرجع السابق ١٣/١٧٣.

(٤) حينما هرب إلى البصرة عم «الخليفة» الثائر عبد الله بن علي، نزل على أخويه سليمان وعيسى، =

ذلك من أسباب قتله.. ومما ورد فيه قوله: (ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله بن علي فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته،) ومما شق على الخليفة أيضاً شرطه أن يوقع بخطه في أسفل الأمان.

« وإن أنا نلت عبد الله بن علي أو أحداً ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير، أو أوصلت إلى حد منهم ضرراً: سراً أو علانية، على الوجوه والأسباب كلها، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل، فأنا نفيٌّ من محمد بن عبد الله، ومولود لغير رِشدةٍ، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين، ولا عهد ولا ذمة، وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق، ولا موالاة بيني وبين المسلمين.

وهو متبرىء من الحولِ والقوة، ومدع، إن كان، أنه كافر بجميع الأديان، ولقي ربه على غير دين ولا شريعة، محرم المأكل والمشروب والمناكح، والمركب، والرق، والملك، والملبس، على الوجوه والأسباب كلها».

وكتبت بخطي ولانية لي سواه، ولا يقبل الله مني إلا إياه والوفاء به [1]

على أن خلفاء بني العباسي أحياناً كانوا ينقضون الميثاق، وقد أشار إلى ذلك متهكماً محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الذكية) في رده على ابي جعفر حينما عرض عليه الأمان، فقد كتب إليه يقول: (... وأنا أولى بالأمر منك، وأوفى بالعهد، وأنت أحرى بقبول الأمان مني، فأما الأمان الذي عرضت فأي الأمانات هو؟ أأمان ابن هبيرة؟ أم أمان عمك عبد الله بن علي؟ أم أمان ابي مسلم؟ والسلام»[2].

= فشفعا فيه لدى المنصور، وطلبا له الأمان، وأتفقوا أن يكتبوا له أماناً منه، وكان ابن المقفع كاتباً لعيسى، فكتب الأمان وشدد فيه حتى لا يجد الخليفة معه حيلة في نقضه ـ قيل: لما ورد الأمان إلى الخليفة سأل عن كاتبه، ودبر الأمر لقتله، على أنه قد حبس عمه عبد الله حتى مات في حبسه.

(١) الوزراء والكتاب ص ١١٠

(٢) الكامل للمبرد ٢٩٤/٢، صبح الأعشى ٢٣٢٢/١. الكامل لابن الاثير ١٩٩/٥ والطبري ٢١٠/٩.

أما كتب العهود فكانت تختلف باختلاف المهمة المعهود بها، وما اشبهها بدستور يرسم الخطة لمن يناط به العمل: من الاستمساك بالدين، والعدالة، والحزم والعفة إن كان عهداً بالولاية، فإن كان خاصاً بامارة الجيش نصّ الخليفة على ما يلزم لذلك من الصفات الحربية كالشجاعة والتضحية والإقدام والمباغتة، وإن كان خاصاً بالقضاء يذكره الخليفة بالتقوى والعدالة والعلم والنزاهة، ويوصيه خيراً باليتامى والدقة في توزيع المواريث ومناقشة الشهود.

أما المنشورات الديوانية فكانت عامة حيناً وخاصة حيناً آخر، وهدف الأولى إظهار رأي الخليفة في أمر معين من الأمور الهامة في الدولة: سياسية أم دينية، وهدف الثانية: إبلاغ أحد الولاة أو القواد أمراً يتعلق بدائرة نفوذه، لإنفاذه، والأمثلة على كل هذا كثيرة، تفيض بها كتب الأدب والتاريخ.

(ب) الاستعطاف:

واجهت الدولة العباسية بعض المؤامرات السياسية، والفتن الدينية.. ولولا يقظة الخلفاء الأُول لسقطت الدولة في مهدها، وهكذا كانت الخلافة محفوفة بالمطامع والمخاطر، وفي سبيلها كم أريقت دماء، وكم أزهقت أرواح، ومن نجا من السيف لم ينج من الأسر، حتى غصت السجون بالكثيرين من الطامعين.

وبين ضمة السجن ووطأة القيد كان الأدباء يئنون بما يذيب المرائر، ويستعطفون بما يلين من اجله الحديد ليطلق الخلفاء سراحهم، ولكن هيهات فلا ينقطع لهم شعر، ولا ينقطع لهم نثر، ولا ينقطع لهم أنين...

ولعل هذا النوع من البيان كان، من الناحية الفنية، أخصب أنواع الأدب، لأنه صادر عن نفس ملتاعة مسها القيظ تعبر عن ذاتها وتترجم عن نفسها لا عن نفس غيرها.

أرأيت مأساة البرامكة وما خلّفته من أدب حزين مجلل بالسواد؟

كتب يحيى بن خالد من الحبس إلى الرشيد.

(يا أمير المؤمنين. إن كان الذنب خاصاً فلا تمعن بالعقوبة، فإن الله عز وجل يقول: ولا تزر وازرة وزر أخرى). .

كما كتب إليه أيضاً يقول:

لأمير المؤمنين، وخليفة المهديين، وإمام المسلمين، وخليفة رب العالمين. من عبد أسلمته ذنوبه، وأوبقته عيوبه، وخذله شقيقه ورفضه صديقه، ومال به الزمان، ونزل به الحدثان فحل في الضيق بعد السّعة، وعالج البؤس بعد الدعة، وافترش السخط بعد الرضا، واكتحل السهاد بعد السجو، ساعته شهر، وليلته دهر، قد عاين الموت، وشارف الفوت. جزعاً لموجدتك يا أمير المؤمنين، وأسفاً على ما فات من قربك، لا على شيء من المواهب، لأن الأهل والمال إنما كانا لك وبك. وكانا في يدي عارية، والعارية مردودة.

وأما ما أصبت به من ولدي فبذنبه، ولا أخشى عليك الخطأ في أمره، ولا أن تكون تجاوزت به فوق حده، فتذكر يا أمير المؤمنين كبر سني، وضعف قوتي، وأرحم شيبتي وهب لي رضاك بالعفو عن ذنب إن كان، فمن مثلي الزلل ومن مثلك الإقالة. وإنما إعتذار إليك باقرار ما يجب به الإقرار حتى ترضى عني فاذا رضيت رجوت إن شاء الله أن يتبين لك من أمري وبراءة ساحتي ما لا يتعاظمك بعده ذنب أن تغفره ـ مد الله لي في عمرك، وجعل يومي قبل يومك. ثم ختم الرسالة بهذه الأبيات.

قل للخليفة ذي الصنيـ ـعة والعطايا الفاشيهْ
وابن الخلائف من قريـ ـش والملوك العاليه
إن البرامكة الذين رمُوا لديك بداهيه
صفر الوجوه عليهمو خلع المذلة باديه
فكأنهم مما بهم أعجاز نخل خاويه
عمتهمُ لك سخطةٌ لم تُبقِ منهم باقيه
بعد الإمارة والوزا رة والأمور الساميه
ومنازل كانت لهم فوق المنازل عاليه
أضحوا وكل مناهمو منك الرضا والعافيه

يا من يود لي الردى | يكفيك مني ما بيه
يكفيك ما أبصرتَ من | ذلي وذل مكانيه
وبكاء فاطمة الكئيـ | ـبة والمدامع جاريه
ومقالها بتوجع | يا سوءتي وشقائيه
من لي وقد غضب الزما | ن على جميع رجاليه
يا لهف نفسي لهفها | ما للزمان وماليه
يا عطفة الملك الرضا | عودي علينا ثانية

فلم يكن له جواب من الرشيد:

يقول الرواة: واعتل يحيى في الحبس فلما أشفي دعا برقعة وكتب في عنوانها: ينفذ أمير المؤمنين أبقاه الله عهد مولاه يحيى ابن خالد وفيها مكتوب:

«بسم الله الرحمن الرحيم: قد تقدم الخصم إلى موقف الفصل، وأنت على الأثر والله حكم عدل. وستقدم فتعلم».

فلما ثقل، قال للسجان هذا عهدي توصله إلى أمير المؤمنين، فإنه ولي نعمتي، وأحق من نفذ وصيتي، فلما مات يحيى أوصل السجان عهده إلى الرشيد.

ولعل من أرق أساليب الاستعطاف وأشجاها ما دار بين أم جعفر ـ زوج يحيى البرمكي ـ وبين الرشيد، من حوار، حينما أرادت أن تستعطفه ـ بعد إيقاعه بجعفر ـ ليطلق سراح زوجها يحيى، وكانت له ظئراً، وكان الرشيد قد رُبّيَ في حجرها، وغُذِيَ بِرِسْلها؛ لأن أمه ماتت عن مهده فكان الرشيد يشاورها مظهراً لإكرامها، والتبرك برأيها، وكان قد آلى على نفسه وهو في كفالتها ألا يحجبها وألا تستشفعه لأحد إلا شفعها، وآلت عليه أم جعفر أن لا دخلت عليه إلا مأذوناً لها، ولا تشفعت لأحد لغرض دنيا، فكم من أسير فكّت، ومهم عنده حلت، ومنغلق منه فتحت، ومنبهم أمامه كشفت، وكربة فرّجت، وضيق وسّعت، ومظلوم أنصفت.

واحتجب الرشيد بعد قدومه من الحج، فطلبت الإذن عليه من دار البانوقة

اخته ومتّت بوسائلها إليه، فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها، واضعة لثامها، محتفية في مشيتها، حتى صارت بباب قصر الرشيد فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب؛ فقال: ظئر أمير المؤمنين بالباب. في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد .وشفقة أم الواحد، فقال له الرشيد: ويحك يا ابن الفضل! أو ساعية؟ فقال نعم. أصلح الله أمير المؤمنين، وحافية. فقال أدخلها يا عبد الملك فربّ كبد كريم غذتها، وكربة كشفتها وفرجة فرجتها، وعورة سترتها، فلما دخلت ونظر إليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس فأكب على تقبيل رأسها ومواضع ثدييها، ثم أجلسها معه فقالت: يا أمير المؤمنين أيعدو علينا الزمان ويجفونا خوفاً لك الأعوان، ويحردك بنا البهتان ويوسوس لك بإيذائنا الشيطان، وقد ربيتك وأخذت من رضاعي لك الأمان من دهري؛ فقال لها: وما ذلك يا أم الرشيد؟! قالت له: ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك، ولا أرشحه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته له، وإشفاقه عليه، وتعرضه للحتف في شأن موسى أخيه فقال: يا أم الرشيد: قدر سبق، وقضاء حُمّ، وغضب من الله نزل.

قالت: يا أمير المؤمنين: يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب فقال الرشيد: صدقت، فهذا مما لا يمحوه الله، فقالت: الغيب محجوب عن النبيين فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ فأطرق الرشيد يسيرا ثم قال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فقالت بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين، وقد قيل:

وإذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله: والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين، فأطرق هرون قليلا ثم قال.

إذا أنصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه يوجه آخر الدهر تقبل

فقالت: يا أمير المؤمنين، وهو يقول:

ستُقطع في الدنيا ـ إذا ما قطعتني يمينُك، فأنظر أيّ كف تبدل؟

فقال الرشيد: رضيت فقالت: يا أمير المؤمنين. فهبه لله تعالى فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ترك شيئاً لله لم يوجده الله.

فأكب الرشيد ملياً ثم رفع رأسه وهو يقول: لله الأمر من قبل ومن بعد، قالت يا أمير المؤمنين: ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم، ثم قالت أذكّرك يا أمير المؤمنين بأليتك أن لا استشفعتك إلا شفعتني فقال: وأنا أذكرك يا أم الرشيد بأليتك أن لاشفعت لأحد لغرض لدُنيا:

فلما رأته صرّح بمنعها وما ذعن لمطلبها، أخرجت حقا من زمردة خضراء فوضعته بين يديه، فقال الرشيد: ما هذا؟ ففتحت عنه قفلا من ذهب، فأخرجت منه حذاءه وحفضته، وذؤابته وثناياه وقد غمس ذلك بمسك نثير في الحق، فقالت: يا أمير المؤمنين استشفع اليك، واستعين بالله، وبما صار معي من كريم جسدك، وطيب جوارحك ليحيى عبدك وظئرك.

فأخذ الرشيد جميع ذلك فلثمه ثم استعبر وبكى بكاء شديداً، وبكى أهل المجلس، ومضى البشير إلى يحيى فلم يظن إلا أن البكاء رحمة عليه، ورجوع الرشيد عنه، فلما أفاق من بكائه رد جميع ذلك في الحق، وقال لها لحسن ما حفظت الوديعة فقالت: فأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين فسكت وضم الحُقّ، ورفعه إليها. وقال: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) قالت: وقال عز وجل ﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾ وقال تعالى ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾

فقال لها: وما ذاك يا أم الرشيد؟! فقالت: ما أقسمت لي به يا أمير المؤمنين، ألا يحجبك عني حاجب.

فقال لها: يا أم الرشيد أحب أن أشتريه محكمةً فيه. قالت: أنصفت يا أمير المؤمنين، وقد فعلت غير مستقيلة لك، ولا راجعة عنك، قال: بكم؟ قالت: برضاك عمن لم يسخطك.

قال: يا أم الرشيد: أما لي عليك من الحق مثل الذي لهم؟ قالت: بلى يا أمير المؤمنين. إنك لأعز علي وهم أحب إليّ، قال لها: فتحكمي في ثمنه بغيرهم قالت: بلى قد وهبتكه، وجعلتك في حل منه، وقامت عنه، فبقي الرشيد مبهوتاً، ما يحير لفظة. وخرجت عنه فلم تعد إليه.

ومن أساليب الاستعطاف الممزوجة بالعتاب، كتاب السيدة زبيدة إلى المأمون بعد أن قتل «طاهر بن الحسين» ابنها الأمين، وخرّب ديارها.

كل ذنب يا أمير المؤمنين، وإن عظم، صغير في جنب عفوك، وكل زلل، وإن جل، حقير عند صفحك، وذلك الذي عودك الله فأطال مدتك، وتمم نعمتك، وأدام بك الخير، ودفع بك الشر.

هذه رقعة الواله التي ترجوك في الحياة لنوائب الدهر، وفي الممات لجميل الذكر، فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي، وقلة حيلتي، وأن تصل رحمي، وتحتسب فيما جعلك الله طالباً، وفيه راغباً فافعل، وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك.

فكتب إليها المأمون:

وصلت رقعتك يا أماه، حاطك الله وتولاك بالرعاية، ووقفت عليها، وساءني ـ شهد الله ـ جميع ما أوضحت فيها. لكن الأقدار نافذة، والأحكام جارية، والأمور متصرفة، والمخلوقون في قبضتها لا يقدرون على دفاعها، والدنيا كلها إلى شتات، وكل حي إلى ممات، والغدر والبغي حتف الإنسان، والمكر راجع إلى صاحبه، وقد أمرت برد جميع ما أخذ لك، ولم تفقدي ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه، وأنا بعد ذلك أكثر مما تختارين والسلام.

(جـ) الوصايا والنتائج:

حرص الخلفاء على أن يتركون لأولياء عهودهم وصية يلتزمونها ويترسمون خطاها بعد مماتهم، وكانوا يودعونها كل نصيحة تعصمهم من الزلل، وتنير أمامهم السبل، وتأخذ بيدهم في الحياة. . .

كـذلـك كـان ذوو الأقـدار في الـدولـة يسـدون النصيحـة لأبنـائهم وذوي قـرابتهم. . استمع إلى بـديع الـزمان يـوصي ابن أخته بـالعلم، والمواظبـة عـلى الدراسة بقوله: «أنت ابني ما دمت والعلم شأنك، والمدرسـة مكانـك، والدفـتر أليفك والمحبرة حليفك، فإن قصرت ـ ولا إخالك ـ فغيري خالك».

وكتب بشر البلوي[1] ينصح بشار بن ضبابة بقوله:

«بسم الله الـرحمن الرحيم. أمـا بعد: فـإني رأيتك في أول زمـانك تغـدو على العلماء، وتـروح عنهم، وتحـدث عن الله وعن مـلائكتـه ورسله، وقـد أصبحت تحدث عن معن[2] وعن عمالـه، وعن أبي مسلم وعن أصحابـه. فبئس للظالمين بـدلا، فمن خلفت عـلى أهلك؟، أم عـلى من تتكـل في هـول سفـرك؟ أم بمن تثق في حـال غـربتـك؟ أبـا لله أم عليـه؟ وكيف؟ ولست أخشى عليـك إلا من قبله: لأنـه قد أعـذر إليك وأنـذر، فعصيت أمرهً، وأطعت أعـداءه، وخـرجت مغاضباً تظن أن لن يقدر عليك، فاتق عـلى نفسك الـزلل، وأنـزل عن مطيتـك في كل جبل[3]، فاذا استويت أنت ومن معك على ظهورها[4] فـلا تقل سبحـان من سخـر لنا هـذا، لأن الله تبارك وتعـالى قد كـره أن يحمد عـلى ما نهى عنـه، ولكن قل: ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار»[5].

(د) مصانعة الحكام:

اضـطر الكثيرون، ممن يتصلون بـالبـلاط من قـريب أو بعيـد، أن يصـانعـوا

---

(١) كاتب سليط اللسان على أيام الرشيد أطلقه في الوزراء والـولاة الذين يسـامرون الأمـراء والخلفاء ويأخذون القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ويبيت هو على الطوى.

(٢) معن بن زائدة الشيباني من صنائع ابن هبيرة

(٣) كني بالجبل عن المهـالك: يـريد بهـذا ألا يظل راكبـاً دابة الغـواية وهي تتنقـل به بـين المهالـك، حتى لا يهلك.

(٤) من قـوله تعـالى: ﴿فاذا استـويت أنت ومن معك عـلى الفلك فقل الحمـد لله الـذي نجـانـا من القوم الظالمين﴾.

(٥) اقتبسـه من قولـه تعالى: قـالوا: «ربنـا من قدم لنـا هذا فـزده عذابـاً ضعفاً في النـار». (المواهب الفتحية ٢/١٤٢).

الحكام رغبة أو رهبة، فكانوا يتقربون اليهم بالمديح الذي يدنيهم من الخليفة، بخلاف الشعراء الذين كانوا يمدحون غالباً للعطاء.. ومن مدح لغرض ففي قلبه مرض.. الا ترى إسماعيل بن يسار، شاعر الشعوبية في العصر الأموي، يدخل على الغمر بن يزيد يبكي، بعد أن حجبه ساعة، ويقول: كيف أحجَب عنك وأنا على مروانيتي ومروانية أبي؛ وظل يبكي حتى تأثر الغمر واعتذر اليه. ولما خرج قيل له: أخبرنا. ويلك يا اسماعيل أي مروانية كانت لك ولأبيك؛ قال بغضنا لهم، امرأته طالق إن لم يكن يلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح.

غير أن الخلفاء كانوا يفطنون إلى ذلك أحياناً، الا ترى المأمون حينما كتب إليه عبد الله بن طاهر من خراسان يقول:

«بعدت داري عن أمير المؤمنين، وعن ظل جناحه وعن خدمته، وإن كنت حيث تصرفت لا أتفيأ إلا به، وقد اشتد شوقي إلى النظر إلى رؤيته المباركة والتزيين بحضور مجلسه، وتلقيح عقلي بحسن رأيه، فلا شيء عندي أحسن من قربه، وإن كنت في سعة من عيش وهبه الله جل ذكره لي به، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن له في المصير إلى «دار السلام» لأحدث عهداً بالنعم علي، وأتهنا بالنعمة التي أقرها لدي، فعل.

أجابه بقوله:

قربك إلي يا أبا العباس حبيب، وأنا إليك مشتاق، وإنما بعدت دارك عن أمير المؤمنين بالنظر لك والتخير لحسن العاقبة فيك. فالزم مكانك واتبع قول الشاعر:

رأيت دنوَّ الدار ليس بنافعي إذا كان ما بين القلوب بعيداً

(هـ) شكوى الزمان:

كم حمل الأدباء على الدهر الدائر، والزمان الجائر، فوصفوه بالغدر والخيانة وأنه لا يهب نفيساً إلا ليسترده، ولا يرفع إلا ليخفض، والدهر لا يعطي ولا يمنع ولا يسر ولا يفجع، وإنما هو ظرف لما تجري به المقادير غير أنها خطرة من

خطرات النفس جرت بها الألسنة والاقلام من غابر الأيام. . . كتب ابو الفضل الميكالي إلى بعض إخوانه:

(إنما أشكو إليك زماناً سلب ضعف ما وهب، وفجع بأكثر مما أمتع، وأوحش فوق ما أنس، وعنف في نزع ما ألبس؛ فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع حتى جرعنا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس الفراق حتى غادرنا رهن التلهف والاشتياق) كما كتب أيضاً يقول:

(يأبى الدهر إلا ولوعاً بشمل وصل يشرده، ونظام أنس يبدده، ومخلب ظلم يحدده، ولو انبسطت فيه يدي لكسرت جناحه، وخفضت جماحه، ولكنه الحية الصماء، لا تستجيب لراقي، والداء العضال لا يشفى منه طبيب ولا واقي[1].

وكذلك الصولي، شكا إلى بعض إخوانه تحامل الأيام عليه، وسوء أثر الدهر عنده وابن العميد شكا أيضاً دهره الخؤون الغدور، وزمانه الغرور الذي فرق بينه وبين الأخوان فنبذوه نبذ النواة، وطرحوه طرح القذاة وهو الحلال الحلو، والبادر العذب[2].

(و) الشوق والحنين:

كم من عزيز طرحته النوى مطارحها، وحبيب نأى به الزمان فلج به الشوق. . . وكلهم إذا هزهم الشوق دائمو الذكرى، موصولو الحنين، عن عاطفة صادقة، سيان في ذلك الشعراء والكتاب، فمن ذلك ما كتبه الجاحظ إلى صديقه (قليب) وكذلك[3] العتابي وأحمد بن يوسف[4] وأبو الفضل الميكالي.

كتب أبو الفضل الميكالي إلى صاحبه أبي منصور الثعالبي يقول:

«كتابي. وأنا أشكو إليك شوقاً لو عاجله الأعرابي لما صبا إلى رمل عالج،

(١) يتيمة الدهر جـ ٤/٢٥٥.
(٢) زهر الآداب ٢/٢٤٤
(٣) زهر الآداب جـ ٣/٣٢٦.
(٤) إختيار المنظوم والمنثور ١٣/٣٩٦، جـ ٣ رسائل/٤٥٥

أو كابده الخلي لانثنى على كبير ذات حرق ولواعج . . وأذم زماناً يفرق فلا يحسن جمعاً، ويخرق فلا ينوي رقعاً؛ ويوجع القلب بتفريق شمل ذوي الوداد، ثم يبخل عليهم بما يشفي الصدور والأكباد، قاسي القلب، فلا يلين لاستعطاف، جائر الحكم فلا يميل إلى إنصاف، وكم استعدى علب صروفه واستنجد، وأتلظى غيظاً عليه وأنشد:

متى وعسى يثني الزمانُ عنانه بعثرة حال. والزمانُ عثور
فتدرك آمالٌ وتقضىَ مآربٌ وتحدث من بعد الأمور أمور

وكلا. فما على الدهر عتب. ولا له على أهله ذنب، وإنما هي أقدار تجري كما شاء مجريها وتنفذ كالسهام إلى مراميها، فهي تدور بالمكروه والمحبوب على الحكم، المقدور والمكتوب، لا على شهوات النفوس، وإرادات القلوب، وإذا أراد الله تعالى، أذن في تقريب البعيد النازح، وتسهيل الصعب الجامح، فيعود الأنس للقاء الأخوان كأتم ما لم يزل معهوداً، ويجدد للمذاكرة والمؤانسة رسوماً وعهوداً. إنه المليي به والقادر عليه[1].

(ز) المناقضة:

هذا لون من ألوان الجدل الذي شاع في هذا العصر بذيوع الفلسفة اليونانية، غايته نقض الحقائق الثابتة أو ما تعارف القوم عليه، بالدليل والبرهان، وذلك لا يتأتى إلا لذوي اللدد والمقدرة اللسانية. فالجاحظ يمدح «النبيذ» في رسالة، ويذمه في أخرى، وسهل بن هرون ـ لنزعة شعوبية ـ يذم «الكرم» الذي تغنى به العرب في منظومهم ومنثورهم، ويمدح «البخل» الذي هو عنوان الحكمة والتدبير والإقتصاد. وليس كذلك الكرم الذي هو عنوان السفه والتبذير، ثم هو أيضاً يفضل الزجاج على الذهب، والمال على العلم، وفي الأمر مغالطات نكشف عنها عند الحديث عن رسائله.

ومهما يكن من أمر فان الكتابة هنا قد استخدمت للتفصح وإظهار البراعة التي تجعل الفاضل مفضولاً، والمفضول فاضلاً.

---

(١) زهر الآداب ٢/ ١٨٩

(ح) التندر والتهكم:

من الأدباء من كان يراوح في رسائله بين الجد والهزل، ليدفع الملل والسآمة عن القارىء أو السامع، وهذا مذهب نفسي سديد، أخذ الجاحظ به نفسه في بعض رسائله فإذا زعم الفقهاء أن الحجر الأسود كان أبيض فسودته سيئات الفاسقين قال ولم لم تبيضه حسنات الصالحين؟ وإذا قرءوا قوله تعالى ﴿عينا فيها تسمى سلسبيلاً﴾ بالفصل هكذا «سل سبيلا» يعنون بذلك سل سبيلاً إليها يا محمد، قال: وما موضع كلمة «تسمى»؟

أتاه يوماً أحد الثقلاء وقال له: سمعت أن لك ألف جواب مسكت، فعلمني منها فقال: نعم. قال الرجل: إذا قال لي شخص يا زوج القحبة؛ يا ثقيل الروح فأي شيء أقول له؟ قال:قل له صدقت.

على أن رسالة التربيع والتدوير- والكتاب يقرأ من عنوانه - كلها سخرية وتندر بأحمد بن عبد الوهاب الذي كان قصيراً مفرطاً في القصر. جعد الأصابع. كبير السجن، مربع الجسم ومع هذا يدعى السباطة والرشاقة... وكذلك كتاب البخلاء كله تندر ببخل أهل خراسان كما سنرى.

ومن ذلك اللون أيضاً تندر الخوازمي بحديقته الضيقة يقول: (طولها باع وعرضها ذراع. أعني باع البقة وذراع الذرَّة، وأقل من «لا» وأصغر من الجزء الذي لا يتجزأ، لو طارت عليها ذبابة لغطتها، أو دخلتها نملة لسدتها، تسقى بالمسعط صباحا، وتنكث بالخلال مساء. أشجارها مائة إلا تسعة وتسعين، وأنهارها خمسون إلا تسعة وأربعين)[1].

ومن طرائف الأدب كذلك ما رووا عن السيدة زبيدة- أم الأمين حينما مات لها قرد صغير مستأنس، وأصابها من الغم ما عرفه الصغير والكبير، فقد قصد إضحاكها أبو هرون العبدي برسالته إليها، التي كتب فيها: «أيتها السيدة الخطيرة. إن موقع الخطب بذهاب الصُغير المعجب كموقع السرور بنيل الكثير المفرح، ومن جهل قدر التعزية عن التافه الخفي عمي عن التهنئة بالجليل

---

(١) زهر الآداب جـ ٢٩٧/٣

السني، فلا نقصك الله الزائد في سروك، ولا حرمك أجر الذاهب من صغيرك» فأمرت له بجائزة[1].

(ط) الهجاء:

كما طبعت النفوس على المدح والتقريظ عند الرضا طبعت كذلك على الذم والهجاء عند الغضب.. كتب بشر البلوي الى الشافعي بهجوم عبد الله بن مصعب الزبيري (أما بعد فانك كتبت إلي تسألني عن عبد الله بن مصعب كأنك هممت به إذ سرك القدوم عليه. فلا تفعل - أمتع الله بك - فإن حسن الظن به لا يقع في الفهم الا بخذلان الله، وأن الطمع فيما عنده لا يخطر على القلب إلا من سوء التوكل على الله عز وجل، وإن الرجاء لما في يده لا ينبغي إلا بعد اليأس من روح الله. ؛ لأنه يرى أن الاقتار الذي نهى الله- عز وجل - عنه هو التقتير الذي يعاقب الله فيه، وأن الاقتصاد الذي أمر الله به هو الاسراف الذي يعذب الله عليه، وأن بني إسرائيل لم يستبدلوا العدس بالمن، والبصل بالسلوى إلا لفضول أحلامهم، وقديم علم توارثوه عن آبائهم، وأن الضيافة مرفوعة، وأن الصلة موضوعة، وأن الهبة مكروهة، وأن الصدقة منسوخة، وأن السلف رأى الفرض بدعة، وأن التوسع ضلالة، وأن الجود فسوق، وأن السخاء من همزات الشياطين... وكأن لم يسمع بالمعروف إلا في الجاهلية الأولى الذين قطع الله دابرهم، ونهى المسلمين عن إتباع آثارهم. وكأن لم تأخذ الرجفة آل مدين عنده إلا لسخاء كان فيهم ولم تهلك الريح العقيم عادلاً إلا لتوسع ذكر عنهم؛ فهو يخشى العقاب على الانفاق، ويرجو الثواب على الاقتار ويعد نفسه الفقر، ويأمرها بالبخل خيفة أن تنزل به قوارع الظالمين، أو يصيبه ما أصاب القرون الأولين. فأقم يرحمك الله على مكانتك، واصطبر على عسرتك، وتربص به الدوائر، عسى الله أن يبدلنا خيراً منه زكاة وأقرب رحماً»[2].

---

(١) رسائل الخوارزمي/١١

(٢) مفتاح الأفكار ٢٧٨

ولعل أقذع هجاء وأوجعه ما وجهه أحمد بن يوسف إلى بني سعيد بن مسلم، غير أن الكاتب الأديب قد صاغه في عبارة أدبية بارعة، خففت من فحشه وما خفّفت من حدته. . استمع إليه يقول: «لولا أن الله تعالى ختم نبوته بمحمد وكُتبه بالقرآن، لأرسل إليكم نبي نقمة، وأنزل فيكم قرآن غدر، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوي السفل، ومساويهم فضائح الأمم وألسنتهم معقودة بالعي، وأيديهم معقودة بالبخل وهم كما قال الشاعر:

لا يكبرون وإن طالت حياتهمُ ولا تبيد مخازيهم وإن بادوا[1]

(ي) الوصف:

لم يكن لهذا الفن - في العصور السابقة- شأن يذكر بين الكتاب، وما أثر منه عن العصر الإسلامي مشكوك فيه تارة، أو نتف منه مبثوثة في بعض الرسائل تارة أخرى. . . والرسالة الفنية حقاً، والجديرة بالذكر في هذا المقام فهي رسالة عبد الحميد الكاتب في وصفه لرحلة صيد.

أما في هذا العصر فقد حفلت الكتابة بالكثير من رسائل الوصف التي انعكست على مرآتها صورةُ المجتمع العباسي، في جده ولهوه ومغانيه وأغانيه والمقامات على طولها تكاد تكون صفحة من صفحات الوصف المقصود لمعالم هذه الحياة الراهنة.

فهم قد وصفوا الدور والقصور، والمروج الخضراء، والغدران الجارية والقطوف الدانية، والجواري والقيان والذهب والزجاج والكأس والأبرق، والصديق، كما وصفوا العلم والكتاب والقلم.

فمن الوصف الحسي ما رواه صاحب العقد عن إحدى جواري المأمون وقد أهدت إليه تفاحة وكتبت إليه تقول.

(إني يا أمير المؤمنين لما رأيت تنافس الرعية في الهدايا إليك، وتواتر ألطافهم عليك. فكرت في هدية تخف مؤونتها، وتهون كلفتها، ويعظم خطرها، ويحل موقعها فلم أجد ما يجتمع فيه هذا النعت، ويكمل فيه هذا الوصف إلا «التفاح» فأهديت إليك منها واحدة في العدد، كثيرة في التقرب، وأحببت يا

---

(١) زهر الآداب حـ ٢/ ٤٠

أمير المؤمنين أن أعرب لك عن فضلها، وتفنن الشعراء في أوصافها، حتى ترمقها بعين الجلالة، وتلحظها بمقلة الصبابة، فقد قال أبوك الرشيد رضي الله عنه «أحسن الفاكهة التفاح. اجتمع فيه الصفرة الدريّة، والحمرة الخمرية، والشقرة الذهبية، وبياض الفضة ولون التبر.

يلذ بها من الحواس: العين ببهجتها، والأنف بريحها، والفم بطعمها، وقال ارسطاليس الفيلسوف عند حضوره الوفاة، واجتمع إليه تلاميذه «التمسوا لي تفاحة أعتصم بريحها»، وأقضي وطري من النظر إليها» وقال ابراهيم بن هانيء: «ما علل المريض المبتلي، ولاسكنت حرارة الثكل، ولاردت شهوة الحبلى، ولا جمعت فكرة الحيران، ولاسكنت حنقة الغضبان، ولا تحببت الفتيان في بيوت القيان بمثل التفاح».

حمرة التفاح مع خضرته ... أقرب الاشياء من قوس قزح
فعلى التفاح فاشرب قهوة ... واسقنيها بنشاط ومرح
ثم غنني لكي تطربني ... طرفك الفتان قلبي قد جرح

فإذا وصلت إليك يا أمير المؤمنين، فتناولها بيمينك، وأصرف إليها بغيتك، وتأمل حسنها بطرفك، ولا تخدشها بظفرك، ولا تبعدها عن عينك ولا تبذلها لخدمك، فإذا طال لبثها عندك، ومقامها بين يديك، وخفت أن يرميها الدهر بسهمه، ويقصدها بصرفه؛ فتذهب بهجتها، وتحيل نضرتها فكلها[1]. «هنيئاً مريئاً غير داء مخامر» والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

ومن الوصف المعنوي ما كتبه بديع الزمان في صفة «العلم» في رسالة إلى القاضي أبي القاسم علي بن أحمد.

(. . . والعلم أطال الله بقاء القاضي - شيء كما تعرفه بعيد المرام، لا يصاد بالسهام ولا يقسم بالأزلام، ولا يرى في المنام ولا يضبط باللجام، ولا يورث عن الآباء والأعمام، ولا يكتب للئام. وزرع لا يزكو في كل أرض

---

(١) العقد ٣/٣١٠

حتى يصادف من الحرص ثرى طيباً، ومن التوفيق مطراً صبيّاً، ومن الطبع جواً صافياً، ومن الجهد روحاً دائماً، ومن الصبر سقياً نافعاً، والعلم علق لا يباع ممن زاد، وصيد لا يألف الأوغاد، وشيء لا يُدرك إلا بنزع الروح وغرض لا يصاب إلا بافتراش المدر، واستناد الحجر، ورد الضجر، وركوب الخطر، وإدمان السهر وإصطحاب السفر، وكثرة النظر، وأعمال الفكر. ثم هو معتاض على من زكا زرعه؛ وخلا ذرعه، وكرم أصله وفرعه، ووعى بصره وسمعه، وصفا ذهنه وطبعه.

والعلم ثمر لا يصلح إلا للغرس، ولا يغرس إلا في النفس، وصيد لا يقع إلا في البذر، ولا ينشب إلا في الصدر، وطائر لا يخدعه إلا فقص اللفظ، ثم لا يعقله إلا شرك اللحظ، وبحر لا يخوضه الملاح، ولا تطيقه الألواح، ولا تهيجه الرياح وجبل لا يتنسم إلا بخطا الفكر، وسماء لا تصعد ألا بمعراج الفهم، ونجم لا يلمس إلا بيد المجد[1].

* * *

هذه هي أهم الأغراض التي جالت فيها أقلام الكتاب في هذا العصر، وثمة أغراض أخرى لا يتسع المقام لذكرها كالتهاني والتعازي والشكر والاستنجاز والاخبار، ولا شك أن هذه وتلك قد أفسحت مجال الكتابة، التي لم تعد في هذا العصر محصورة بين جدران الدواوين، وقصور الخلافة بل تعدتها أيضاً إلى المجالات الشعبية الحرة؛ التي أفسحت لها صدرها، ونوعت من أغراضها حتى شاركت الشعر في كثير من أغراضه التي كانت - فيما مضى - مقصورة عليه . . . ومن ثم كانت نهضة الكتابة العباسية، عامة وخاصة.

---

(١) رسائل البديع ص ١٠٥، ١٠٦ ط ٤ هندية ١٩٢٨.

الباب الثاني

مدارس الكتابة الفنية

تمهيد

كان المتقدمون ـ كما يقول ابن أبي الأصبع ـ لا يحفلون بالسجع جملةً، ولا يقصدونه بتّة، اللهم إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام، واتفق من غير قصد ولا اكتساب، وإن كانت كلماتهم متوازنة، وألفاظهم متناسبة، ومعانيهم ناصعة، وعبارتهم رائعة، وفصولهم متقابلة، وتلك طريقة الإمام علي عليه السلام ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام، كابن المقفع، وسهل بن هرون، والجاحظ وغيرهم من العلماء البلغاء»[1].

ثم ما لبث «النثر العباسي» كذلك، حتى زخر بتيارات أدبية أخرى؛ انفرد كل منها بسر من اسرار البلاغة، ولون خاص من ألوان البيان. . . هذه «التيارات الأدبية» هي التي مهدت لظهور **«المدارس الكتابية»** في هذا العصر؛ وقد التف كل منها حول إمام بارز من أئمة البيان. .. ينهجون نهجه، ويترسمون خطاه. . .

ففي بداية العصر كان الأسلوب السائد أسلوب «الترسل الطبيعي» وإمامه عبد الله بن المقفع والترسل الصناعي، الذي خلّفه عبد الحميد.

ثم ما لبثت الأساليب أن مالت إلى «التنويع والتفريع والتحليل» والتعليل، والاستقصاء على يد الجاحظ في القرن الثالث.

---

(١) أمراء البيان جـ ٣٣/١

أما في القرن الرابع فقد ظهرت «الصنعة البديعة المطبوعة» على يد ابن العميد. ثم ما لبثت أن أثقلت بالمحسنات التي أسرف فيها القاضي الفاضل، فظهر «التكلف البديعي» في القرنين الأخيرين من الدولة.

ومما هو جدير بالذكر، أن هذه المدارس ليس بينها حدود فاصلة وليست كذلك محدودة بزمان أو مكان، ففي عصر الجاحظ كان ابن عبد ربه يقلد ابن المقفع، وفي عصر ابن العميد كان الشريف الرضي يتفصح ببلاغة الإمام علي، وما مقامات اليازجي والألوسي وعبد الله فكري - في عصرنا الحاضر- إلا صدى لمقامات الحريري والبديع، وكذلك جاءت «مرآة البشرى» بظلالها الكاريكاتورية مرآة لنوادر الجاحظ ودعابته على الرغم من تقادم العهد وتعاقب السنين.

ترى.. ما الخصائص الفنية لهذه المدارس؟ ومن أعلامها؟ وإلى أي حد ترسموا خطاها؟

هذا هو ما سنكشف عنه فيما يلي..

(١) مدرسة «الترسل الطبيعي»

رائدها: عبد الله بن المقفع، زعيم الكتاب في عصره، وأحد مخضرمي الدولتين.. وقد أشار - في وصاياه للكتاب - إلى طريقته الفنية في الكتابة، يقول: (... وإياك والتتبع لوحشي الكلام؛ طمعا في نيل البلاغة، فإن ذلك هو العي لأكبر)[١] كما يقول: (عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة).

وحينما سئل عن البلاغة قال: (البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداء، ومنها ما يكون شعراً، ومنها ما يكون سجعاً، ومنها ما يكون رسائل، فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها، والاشارة إلى المعنى، والإيجاز هو البلاغة[٢].

وقال أيضاً: «البلاغة هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها»[٣] ولن يظن الجاهل ذلك إلا إذا رأى كلاماً مألوفاً واضح المعنى سهل الألفاظ لا تعقيد فيه ولا إبهام، فإذا حاول عجز.. وهذا هو «السهل الممتنع» كما يقولون...

هذا هو المذهب الأدبي الذي أخذ به نفسه، ورسم به حدود بلاغته وبالتالي رسم حدود مدرسته..؛ فهذه المعالم التي أقامها، وهذه الخطة التي اختطها، هي التي قامت عليها بلاغة الكثيرين؛ ممن سحروا ببيانه، وجالوا في ميدانه... فما طابع هذه المدرسة؟ ومن أشهر أعلامها؟ وإلى أي حد سايروها في خصائصها الأدبية؟

(١) أمالي المرتضى ١/٩٥.
(٢) البيان والتبيين ١/١٠٩ (السندوبي)
(٣) ابن المقفع/١٤٢.

طابعها:

قام أسلوب هذه المدرسة على «الترسل الطبيعي» وعماده الإيجاز والإرسال؛ فلا سجع ولا ازدواج إلا ما جاء عفوا، وإلا ما جاء في مجال «الحكم والامثال».

لقد كان رائدها «يميل إلى إرسال الكلام دون تقيد بازدواج أو توازن؛ فلا يخرج بذلك عن الأسلوب العام في القرن الأول[1]، كل هذا بلفظ سهل، وأسلوب سلس، متين الربط خال من المبالغات، وفي تقرير ذلك والتعليل له يقول الدكتور شوقي ضيف:

«فليس في أساليبه عناية بالأخيلة الدقيقة إلا ما جاء في كليلة ودمنة، وهو منقول عن الأصل، وكذلك ليس في أساليبه عناية بالسجع، ولا بهذا الترادف الصوتي.. وكأني به كان مشغولا عن أن يحدث لنفسه أسلوباً له خصائص أدبية واضحة من إتباعات وأصوات، أو من تشبيهات واستعارات إذ كان في شغل بالترجمة الدقيقة، وأن يؤدي ما يجدد في الأصل الذي يترجمه، لذلك خلت أساليبه جملة من حلية الصوت وحلية التصوير.. ومن أين يأتيه ذلك وهو لا يفكر في الجمال المادي للأسلوب وإنما يفكر في الجمال المعنوي[2].

وإذ كان ابن المقفع ملما بالثقافتين الفارسية واليونانية، عدا العربية، فقد طبع أسلوبه بطابع العقليتين: السامية والآرية يوجز تارة، ويطنب أخرى بحسب الظروف ومقتضيات الأحوال، وإن كان إلى الايجاز أميل، وتجلت في رسائله حكمة الهند وأمثالها، وآداب الفرس ومواعظها، كما تجلى في أسلوبه دقة المنطق اليوناني التي توقظ في القارىء فكره ولبه، وتغذي عقله وقلبه.

لم يحفل بالسجع ولا بغيره من المحسنات، لأن عنايته بتجويد المعنى كانت أكثر من إحتفاله بجمال الألفاظ.. ومن ثم قامت «صنعته الفنية» على التروي في انتقائها، والبراعة في اختيارها على قدّ المعاني وأجمل الألفاظ عنده وأبلغها ما كانت كذلك حتى أن القلم كان يتوقف بين أنامله، ولما سئل عن ذلك قال (إن الكلام يزدحم في صدري، فيقف قلمي لتخيره)[3].

---

(١) ١٥٦ ـ تطور الأساليب النثرية.

(٢) الفن ومذاهبه/٥١.

(٣) زهر الآداب حـ ٢/١٠٤.

لهذا كان يصطفي من الألفاظ أدقها تصويراً، وأصدقها تعبيراً ولا يهمه بعد ذلك أن جاءت قوية جزلة أم سهلة لينة، مسجوعة أم مرسلة، موجزة أم مطنبة، وهذا هو سر بلاغته، أفصح عن ذلك بقوله: (. . . فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لصناعة المعنى، وتصحيح اللفظ، والمعرفة بوجوه الاستعمال) ومن ثمّ كان يقال فيه: (كلامه معان، ومعانيه أحكام) بل كان كما يقول ابو العيناء: (كلامه صريح، ولسانه فصيح، وطبعه صحيح، كأن بيانه لؤلؤ منثور) استمع إليه يقول في وصف صديق له:

إني مخبرك عن صاحب لي كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظمه في عيني، صغر الدنيا في عينه. ، كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يتشهّى ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجاً من سلطان فرجه، فلا يدعو إليه ريبة، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً. ، كان لا يأشر عند نعمة. ، ولا يستكين عند مصيبة. ، وكان خارجاً من سلطان لسانه؛ فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما عدم، وكان خارجاً من سلطان الجهالة، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة، وكان أكثر دهره صامتاً، فاذا نطق بذّ القائلين، وكان يُرَى ضعيفاً مستضعَفاً، فإذا جدّ الجد فهو الليث عادياً، وكان لا يدخل في دعوى، ولا يشارك في مراء، ولا يدلي بحجة حتى يرى قاضياً فَهِماً، وشهوداً عدولاً. وكان لا يلوم أحداً، على ما قد يكول العذر في مثلة، حتى يعلم ما اعتذاره. وكان لا يشكو وجعه إلا إلى من يرجو عنده البرء. ولا يستشير صاحباً إلا من يرجو عنده النصيحة وكان لا يتبرّم ولا يتسخّط ولا يتشكى، ولا يتشهى، وكان لا ينقم على الولي، ولا يغفل عن العدو، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته.

فعليك بهذه الأخلاق إن أطقتها ـ ولن تطيق ـ ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع(١).

---

(١) الأدب الكبير ص ١٢٩، وزهر الآداب ٢٢٤/١. وقد وردت في نهج البلاغة جـ ١٤٧/٢ منسوبة إلى الإمام علي وفي عيون الأخبار (٣٥٥/٢) منسوبة إلى ابن الحسن، وربما كان ذلك من أثر التشبيع، على أن الفصل في ذلك ليس بالأمر الهين، لأن ابن المقفع كان حقاً مشغوفاً بأسلوب الإمام.

أعلامها:

جـذب أسلوب ابن المقفع ـ رئيس هـذه المدرسـةـ نحوه طـائفـة من الكتـاب فذهبوا مذهبه. ومن هؤلاء:

عمــارة بن حمـزة، ويحيى بن زيــاد، وأبـو نصر الـرقـاشي، وبشر البلوي، معاوية بن يسار، وأبو الربيع محمد بن الليث، ومطرف بن أبي مطرف.

كتب عمـارة بن حمـزة عـلى لسـان المنصـور، إلى أحـد عمـالـه في شـأن ابن ماهان:

(... وأمير المؤمنين لا ينكرُ قربَ الـطاعة من المعصيـة، قربَ بعضِ الأمـور من بعض، لسـرعة تقلّب القلوب، وإختـلافِ الحالاتِ عنـد ميـل الهـوى، ولا ينكـرُ جريَ المقـادير بغيب ذلـك عن العباد، واستئثـار الله بعلم مـا لم يـأتهم إلا بغتة، بل قـد علم أمير المؤمنـين أن أقواماً في قلوبهم ضغائن دونها الغـدرُ يظهـر أسـرارهم، ويخـرج أضغــانهم، ثم يبلغ بغضبه منهم مــا لم يكن ذلـك عنــده عزيزاً، ولم يكن بهم إمتناع، غير أنـه أنكر وأنعم أن نعْجَـلَ إلى ابن ماهــان. .ـ وإن كان محلا بارزاًـ بأمـر دون مؤامراتـه، ويكره لـك العجلة: فانها مـوكّل بهـا الندم.

وكتب ابن المقفع إلى يحيى بن زياد إبتداء في المؤاخاة:

(أما بعد، فـان أهل الفضـل في اللب، والوفـاء في الود، والكـرم في الخلق، لهم من الثنـاء الحسنَ في الناس لسـان صدق يشيـد بفضلهم، ويخبر عن صحـة ودهم، وثقـة مؤاخاتهم؛ فيتخـير اليهم رغبة الأخـوان، ويصـطفي لهم سـلامـة صدورهم، ويجبي لهم ثمرة قلوبهم، فـلا مُثني أفضل تقـريظاً، ولا مُخبـر أصدق أحـدوثة منـه، وقد لـزمت من الوفـاء والكرم فيـها بينـك وبـين النـاس طـريقـة محمودة، نسبت إلى مزيتهـا في الفضل، وجمـل بها ثنـاؤك في الذكـر، وشهد لـك بها لسان الصدق؛ فعرفت بمناقبها، ووسمت بمحـاسنها، فـأسرع إليـك الإخوان بـرغبتهم مستبقين، يبتـدرون ودّك، ويصلون حبلك، ابتـدار أهـل التنـافس في حظ رغيب.

فأجابه يحيى بن زياد[1].

(وقد فهمت كتابك إلي بالمودة، وإستحثاثك إياي في الآخوة، وما دنوت به من حرمة المحبة، فنازعتْ إليك نفسي بمثل الذي نازعت به إلى نفسك، فواثبتني عادة الاستعمال للتروية في الخبرة، والتخير للمغبة، فجلتُ عن كتابك جولة غير نافرة، ثم راجعت مقاربتك فقلت: ألقى إلى أسباب المودة قبل كشف الغطاء بالخبرة، فخشيت أن تعذر نفسك بالتقدم، وتحدث الزهادة للتعسف بالجهالة عند الخبرة، فجلت عن هذا جولة كالجولة الأولى ثم عاودت إسعافك وطاعة التشوق ومعصية التخير. ثم قلت ما حال من جعل الظن دون اليقين والتقدم قبل الوثيقة؟.

فلما كان الرأي لي خصماً، تنكبتُ[2] الوقوع في خلافه فلم اجد إلا الأدبار عن إقبالك سبيلاً، ولا مع ذلك في طاعة الشوق حجة، فتبينت السبيل بين ذلك إلى إعطائك طرف حبل الإخاء، في غير الخروج من سبيل التخير، وكرهت أن تستعبدني بالإخاء قبل أن أعرفك بحسن الملكة، وأن تستظهر[3] بي على الاعداء، قبل أن أعرفك بعدل السيرة. وأن تستضيء بي في ظلم الجهل، قبل أن أعرفك بعقد اللب، وأن تستمكن بي في المطالب قبل أن أعرفك بقصد الهمة، فقدمت إليك الترحيب والعدة، وأحسنت عنك المفاوضة والثقة، وتنظرت أن تثمر لي فأذوق جناك)[4].

وفي الإخاء أيضاً كتب ابو نصر الرقاشي[5] إلى يحيى بن زياد.

(أما بعد، أصلحك الله وأمتع بك، في ستر منه وكرامة دائمة، فإن خير ما استفاد المرء لنفسه، واستعان به على مروءته، واعتقد[6] لدنياه وآخرته، وإن

---

(١) شاعر مترسل، من بني الحارث بن كعب (الفهرست ١٧١) بدأه ابن المقفع بالإخاء فأجابه بهذه الرسالة.

(٢) تنكبت = تجافي

(٣) تستظهر = تستعين

(٤) اختيار المنظوم والمنثور ١٣/ ٤٠٢.

(٥) هو يونس بن أبي ذروة. كاتب عيسى بن موسى ابن أخي المنصور والسفاح (الفهرست ١٨١)

(٦) اعتقد مالاً = اقتناه وامتلكه.

كـان الله قد أكمـل عقله، وأحسن إليه في جميـع أموره ـ الأدب الصـالح الـذي بـه يكشف غطاء الجهـل، وتنجلي غشـاوة العمى، ويستنبط به مـذخـور العلم، ويستـدل به عـلى سبيل الـرشاد، وإني وجـدت الطريق إلى سبيـل الخير الأدب، لأن مـا سلف من عهد الله في المـاضين، وبقي في الغـابرين تـأديب لهم، وحجة عليهم، ولم أر من درجـات الخير درجـة، ولا في أعـلى الشـرف محلة إلا والأدب الصالح مفتاح بابها، والسلم إلى إحراز نبلها، قبل ذلك من قبله، فكان أسعد به، وضيعه من ضيعه فكان أشقى به.

وقد ابتليتَني في ذلك أحسن البـلا؛ ووليتني فيه بـأحمد الـولاية، فحملتَ مني المؤونـة، وقبلتني بـالأدب عـلى الصغيـرة: ورضيتني محـرمـاً عتيقـاً؛ لا تـدخـرني نصحاً، ولا تألوني رشداً، فعلمتني مـا لم أكن أعلم، وبصرتني مـا كنت أجهل، حتى وسمتني بعـد الإغفـال، ونـوهت بي بعـد خمـول ذكـري، وشهـرتني بعـد الأفول، بسطة من طولك، ويد من فضلك كأنـك تشكر لـذلك نعمـة أو تجزي منـة؛ فكنت في نعمتك إلى يـومي هذا قـد أعطيتني منـك النصف، مودة كـريم بنـا، وحفـظاً وإنعـامـاً. وليس المنعم كمحتمـل النعم، إفضـالاً بفـد إفضـال، وربـا[1] به بحسن بـلائك، وتنبيهـاً على كـريم فعلك، فعل ذي الشـرف بـذي الشـرف، والوالـد ذي النعمة، فـأصفيتني دون[2] لـطف بني الأخ، ولـطفت لي دون منزلة العمـوم، أخاً بـراً، لا بل أبـاً كريمـاً، فخلفت لي من سواك، ولست بمخلوف، وكفيني الهم بـاذن الله، وسددت عني ثلمـة البعـد، ثم لم يـأت عـلى يوم منذ أنزلني الله منك بحيث أنزلني، وأصفاني منك بما أصفـاني، إلا وأنا لـك فيه أحمد من الماضي قبله، وكذلك أنت لي في غدك إن شاء الله. . .)[3].

وفي التحميدات كتب ابن يسار[4].

---

(١) ربى النعمة: نماها وزادها وأتمها.

(٢) دون هنا بمعنى فوق

(٣) إختيار المنظوم والمنثور ١٣/٤٠٦، وفي صفحة ٤٠٧ نرى جواب يحيى.

(٤) معاوية بن يسار من موالي الأشعـريين. كـان على ديـوان الرسـائل أيـام المهدي، ثم صـار وزيراً له، غير أن الخليفة أخذه بجريرة ابنه حينما تبين زندقتهتوفي سنة ١٠٧ هـ

(. . . فالحمد لله على ما يحدث لأمير المؤمنين في دولته وسلطانه، ولعامة المسلمين من صنعه وكراماته في جسيم الأمور ولطيفها، وخاصها وعامها، بما يجعله للنعمة تماماً، وعلى ما يجل بعدوه من بأسه وقوارعه، ويوقع بهم من حوائجه واستئصاله ما يكون لموعوده إنجازاً، حمداً يبلغ رضاه، ويستوجب به مزيده[1].

وكتب محمد بن عبد الله بن حرب:

(أما بعد. فإني أحمد الله الذي توحد بالحمد لنفسه، وجعله غاية شكر عباده، وأول دعوة أهل جنته؛ إذ أذهب عنهم الحزن، وأصارهم إلى مغفرته وحلول دار المقامة من فضله، وأتبع ذلك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً؛ لما به من الضلالة هدينا، ومن حيرات العمى نجينا)[2].

وفي الإعتذار كتب أبو الربيع محمد بن الليث.

(كيف يسعك أن تأخذني بظن لو كنت فيه على حقيقة علم لما وسعك أخذي، ولا عقابي عليه، ولو كانت العقوبة على الذنب الكامن في سويداء القلب واسعة لك في حكم الرب، لكان فيما حجبت الغيوب من العمل ما ينتقل في القلوب التي لا تثبت على حال إلا ريثما يتبعها إنتقال ما يدعوك إلى أن تمسك عني، وتقف حتى تعرف: أيمضي رأيي أم ينصرف)[3].

هذا طرف من أساليب هذه المدرسة التي حمل لواءها «ابن المقفع» في صدر الدولة.. تلك الأساليب المرسلة المطلقة التي لم تصطنع السجع أو الازدواج إلا بقدر، والتي خلت من الإطناب إلا ما دعا إليه المقام.

---

(١) إختيار المنظوم والمنثور ١٣/٢٩٥.
(٢) إختيار المنظوم والمنثور ١٣/٣٩٩
(٣) إختيار المنظوم والمنثور ١٣/٣٨٨

(٢) مدرسة «الترسل الصناعي»

تلك هي مدرسة «عبد الحميد الكاتب الذي طويت صحيفته ولم تطو طريقته، وقد رأينا أنها نقطة تحوّل بارزة في تاريخ الكتابة، فقد جنحت بها - إلى حد ما - إلى **الإطناب بعد الإيجاز، والازدواج[1] بعد الإرسال. . .** فضلا عن إطالة التحميدات بالازدواج.

سارت هذه المدرسة جنباً لجنب مع مدرسة ابن المقفع، غير أن روادها كانوا كثرة غالبة حتى زمن الجاحظ شيخ الكتّاب، بل إن الجاحظ نفسه كان علماً من أعلامها ثم انشعب عنها - بطريقته الجديدة التي ظلت وثيقة الصلة بهذه الجذور العميقة.

حملت هذه المدرسة لواء البيان في القرنين الأولين من الدولة، ولم تستطع مدرسة ابن المقفع أن تساميها، أو أن تسايرها إلا مدة قرن من الزمان، ويرجع ذلك إلى أمور.

١ - أن أسلوب ابن المقفع أسلوب مترجم حريص على المعنى، تعوزه الحيوية، والروح الأدبية.

أما أسلوب عبد الحميد فأسلوب أديب بصير بمحاسن الطريقتين العربية والفارسية يجمع بين السجع والازدواج من غير تكلف، ويستعين بالإطناب لإيضاح المعنى، **والإطناب من دواعي الحضارة.**

---

(١) الازدواج: هو إتحاد الفاصلتين في الوزن دون التقفية كقوله تعالى: ﴿ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة﴾ وهو السجع العاطل عند الرماني (صبح الأعشى جـ ٢/٢٧٣)، . . . وفي بلاغته يقول أبو هلال العسكري: «لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً لا يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلا عما تزاوج في الفواصل [الصناعتين ٢٠٠]، ويرجع سر جماله كما يقول ابن الأثير إلى الاعتدال، وإذا كانت مقاطع الكلام معتدلة، وقعت من النفس موقع الاستحسان [المثل السائر ١٦٩].

٢ ـ كانت بلاغة ابن المقفع القائمة على الحكم والأمثال تغذي العقل وتشبع الفكر. أما بلاغة عبد الحميد فتغذي العاطفة وتثير الوجدان، ومن ثم مال إليه الكثيرون، وعلى أوتاره عزف البرامكة وغيرهم من الكتاب الموالي.

وهاك مثلاً من الأسلوبين في غرضين متقاربين.

١ ـ كتب عبد الحميد إلى أهله وهو منهزم مع مروان طالباً المعونة.

(أما بعد. فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها، ومن عضّته بنابها ذمها ساخطاً عليها، وشكاها مستزيداً[١] لها، وقد كانت أذاقتنا أفاويق[٢] استحليناها ثم جمحت بنا نافرة، ورمحتنا مولية، فملح عذبُها، وخشن لينها؛ فأبعدتنا عن الأوطان، وفرقتنا عن الإخوان، فالدار نازحة، والطير بارحة. وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً وإليكم وجداً، فإن تتم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا، وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار من يليكم نرجع إليكم بذل الإسار، والذل شر جار. نسأل الله الذي يعز من يشاء أن يهب لنا ولكن أُلفة جامعة، في دار آمنة، نجمع سلامة الأبدان والأديان، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين[٣].

وكتب ابن المقفع إلى صديق يستعين به على حوادث الدهر:

«إن الناس لم يعدموا أن يطلبوا الحوائج إلى الخواص من الإخوان، وأن يتوصلوا بالحقوق، ويرغبوا إلى أهل المقامات، ويتوسلوا إلى الأكفاء وأنت بحمد الله ونعمته من أهل الخير، وممن أعان عليه، وبذل لأهل ثقته المصافين، وإن بذل النفوس فيه، وإعطاء الرغيب، ليس منك ببكر ولا طريف، بل هو تليد أتلده أولكم لآخركم، وأورثه أكابركم أصاغركم.

ومن حاجتي (كذا) وأنت أحق من طلبت إليه، واستعنته على حوادث

---

(١) مستزيداً: أي مستزيداً الشكوى والعتاب.

(٢) أفاويق: جمع فيقه بالكسر وهو ما تجمع من اللبن في الضرع بين الحلبة والحلبة.

(٣) سرح العيون ١٦٥

الـدهر، وأنـزلت به أمـري، لقرب نسبـك، وكـريم حسبـك، ونبـاهتـك وعلو منـزلتك، وجسيم طبـائعك، وعـوام أياديـك إلى عشيرتـك وغيـرهـا فليكن من رأيـك ما حملتـك من حاجتي عـلى قـدر قسم الله لـك من فضله ومـا عـودك من منة، ووسع غيري من نعمائك وإحسانك»[1].

الموازنة.

١ـ مهد ابن المقفع لطلبه بقيـاس منطقي صـدَّر به رسـالته... متى صـدقت مقـدماتـه وتحققت، وجب أن تتحقق نتيجته.. ألا تـراه يقول لصـاحبه مخـاطبـاً عقله وفكره.

(ا) إن الناس يطلبون الحوائج إلى أهل المقامات...

(ب) وأنت بحمد الله من أهل الخير

فماذا بعد هذا إلا إجابة رغبته، وتحقيق مطلبه...؟

٢ـ إن أسلوبه مرسل موجـز خال من السجـع، والازدواج فيه بقـدر ومن ثم كان خافت الجرس، فاتر الموسيقى.

٣ـ أمـا أسلوب عبد الحميـد فمجمل بـالسجع الـطبيعي والازدواج العذب. والتـوازن القـائم عـلى تعـادل الفقـرات... تلذ القـارىء بـاستـواء تقـاسيمهـا والسـامع بـوزنها وجرسهـا، فالسجـع واضح بـين الكلمات: «إخـوان وأوطـان ونازحة وبارحة، وبعداً ووجداً، وإسار وجار، وأبدان وأوطان...»

٤ـ كـما أنه مجمـل أيضاً «بـالحال» والتكملة المتـطابقة بـالجار والمجـرور وعـلى النحو الأول جاءت الكلمات ساخطاًـ مستزيداًـ نافـرةًـ موليـةًـ وكذلـك الجمل: تعالى، والأيام تزيدنا.. والذل شرجار.

وعلى الثاني جـاءت العبارات: سكن **إليهـا**، ساخـطاً **عليها**، مستـزيداً **لهـا**، الأيام تزيدنا منكم بُعـداً، **وإليكم** وجْداً، يكن آخـر العهد **بنـا وبكم**؛ يهب **لنا ولكم**.

---

(١) إختيار المنظوم والمنثور ١٣/٣٨٢

أعلامها:

ذكر ابن النديم أن المترسلين أخذوا عن عبد الحميد، ولطريقته لزموا. وهذا قول له دلالته، يؤيد ما ذهبنا اليه من رجحان كفته كفة ابن المقفع.

والواقع أن أساليب الرسائل في العصر العباسي الأول كانت دفعة بعيدة المدى لطريقة عبد الحميد، وأن شخصيته الأصيلة لتتراءى بمعالمها الواضحة من خلال هذه الرسائل التي سالت بها الأقلام: في الديوان وخارجه، نلمح ذلك جلياً في رسائل:

يوسف بن القاسم بن صبيح، وغسان بن عبد الحميد، وابن سيابة، والبرامكة: يحيى والفضل وجعفر، وأنس بن أبي شيخ، وأحمد بن يوسف والفضل بن سهل، وإبراهيم بن إسماعيل بن داود الكاتب، والعتابي، وعمرو ابن مسعدة، وابن عبد الملك الزيات وابراهيم الصولي.

كتب يوسف بن القاسم إلى محمد بن زياد.

(حفظك الله وحاطك، رأيتك أكرمك الله ـ في خرجتك هذه رغبت عن مواصلتنا بكتبك، وإبلاغنا خبرك، وقاطعتنا قطع ذي السلوة، أو أخي الملة حتى كأنك كنت إلى مفارقتنا مشتاقاً، والى البعد منا تواقا، فوقع بعدك بحيث تحب من جهتين: إحداهما حلاوة الولاية، والأخرى لذة الراحة منا، فإن يكن ذلك كما رجَّيناه، قاطعناك مجملين، أو لابسناك على يقين وإن لم يكن إدلالا بهدية أعددتها لنا من ناحية عملك، فليس قدر الهدايا وإن كثرت، ولا الفوائد وإن جلت، احتمال لوم الإخوان إذ كانت الهدايا ترد لهم. والفوائد إنما تنال بهم، والمباهاة بأعراض الدنيا تراد لخلطتهم. وما ادري ما أقول في اختيارك ترك الكتب المحدثة عن العتب بالأسرار المفهومة حتى كأنها محادثة الحضور، على تنائي الدور، والقلوب بها مشاهدة، وإن كانت الأبدان متباعدة، ولئن كذب فيك الرجاء لقديما عز الوفاء. وقد أصبتك من مرارة العتاب بما لا تقيم بعده على قطيعة ولا جفاء، ولا تتوهمن أني أردت إعناتك باعتابي ولا أزري

عليك بكتابي. فإن وصلت فمشكور وإن قطعت فمعذور والسلام)[1].

ومن تحميدات غسان بن عبد الحميد في المطر قوله:

«الحمد لله الذي نشر رحمته في بلاده، وبسط سعته على عباده، الذي لا يزال العباد في رزق منه يقتسمونه، وفضل ينتظرونه، لا ينقصه ما قبله، ولا ينقضي ما بعده».

وكتب ابن سيابة إلى يحيى بن خالد البرمكي:

للأصيد الجواد، الواري الزناد، الماجد للأجداد، الوزير الفاضل. الأشم الباذل، اللباب الحلاحل من المستكين المستجير؛ البائس الضرير؛ فإني أحمد الله ذا العزة القدير، إليك وإلى الصغير والكبير، بالرحمة العامة والبركة التامة.

أما بعد فاغنم واسلم؛ واعلم - إن كنت تعلم - أنه من يرحم يُرحم، ومن يحرم يحرم؛ ومن يحسن يغنم؛ ومن يصنع المعروف لا يعدم؛ وقد سبق إلى تغضبك عليّ؛ واطراحك لي؛ وغفلتك عني؛ بما لا أقوم له ولا أقعد؛ ولا أنتبه ولا أرقد؛ فلست بحي صحيح؛ ولا بميت مستريح؛ فررت بعد الله منك إليك؛ وتحملت بك عليك؛ ولذلك قلت:

أسرعتْ بي حثّا إليك خطائي ... فأناخت بمذهب ذي رجاء

راغب راهب إليك يرجِّي ... منك عفوا عنه، وفضلَ عطاء

ولعمري، ما من أصر ومن تا ... ب مقرا من ذنبه بسواء

فإن رأيت - أراك الله ما تحب، وأبقاك في خير - أن لا تزهد فيما ترى من تضرعي، وتخشعي، وتذللي، وتخضعي، إن ذلك ليس مني بنحيزة[2] ولا طبيعة، ولا على وجه تصنع، ولا تخدع، ولكنه تذلل وتخشع وتضرع، من غير ضارع، ولا مهين ولا خاشع لمن لا يستحق ذلك إلا لمن التضرع له عز ورفعة وشرف)[3].

---

(١) الأوراق للصولى ١/١٥٢

(٢) النحيزة = الطبيعة

(٣) البيان والتبيين ٣/١١٠، المنظوم والمنثور ١٣/٢٨٣

وكتب جعفر بن يحيى في العفو والمساحة لأحد عماله.

(عندنا الاغتفار لما اقترفت، وتصديق كل ما قلت واحتجت بذكره، واعتذرت بوصفه. والإسقاط لما جحدته، والإكذاب للجور الذي اقترفته والرجوع عما أنكرته، والزيادة فيما اخترته، استدعاء لك وإن انصرفت، وحياطة لما قدمت وإن ذممت، وإيثار للأغضاء والاحتمال، فإنهما أبلغ في الإصلاح، وأنجح في الاستنجاح، وأسرع في التعليم، وأكبر في التقويم، إن احتيج اليه في مثلك ممن تؤمن عليه قريحته، وترده إلى الاستقامة تجربته)[1].

ومن تحميدات أنس بن أبي شيخ قوله:

(الحمد لله الذي بالقلوب معرفته، وبالعقول حجته، الذي بعث محمداً صلى الله عليه وسلم أمينا فوفّى له، ومبلغا فأدّى عنه، فجمع به المنكر وتألف به المدبر، وثبت به المستبصر، إلى أن توفاه على منهاج طاعته، وشريعة دينه، ثم أورثكم عهده، وخصكم بكلمة التقوى، وجعلكم الأمة الوسطى)[2].

وكتب الفضل بن سهل إلى رجل وجه إليه بجائزة:

(قد وجهت إليك بجائزة، لا أعظمها تكثراً، ولا أقلها تجبراً، ولا أقطع لك بعدك رجاء، ولا استثيبك عليها ثناء والسلام)[3].

وكتب ابراهيم بن اسماعيل إلى علي بن الهيثم:

(بلغني ما أظهرت من الوعيد والحمية، فحملت ذلك منك على شرف الحسب، وكرم النسب؛ فإن لأشراف العرب سطوات لا يملكونها، وكل ما أتيت فشبيه بك وبموضعك، وقد قيل: «احذر صولة اللئيم إذا شبع» وأنت أبا حسن - مد الله في عمرك - منهم، ولك في معاداة الرجال لذة أرجو أن يجعلها الله سبيلاً لهلاكك، وقد ينبغي أن تعلم أن الذي أنت فيه لم يحدث لك نفسا

(١) إختيار المنظوم والمنثور ١٣/ ٣٨٦

(٢) إختيار المنظوم والمنثور ١٣/ ٢٧٥

(٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/ ٣٤٢

غير نفسك، ولا أبا غير أبيك. وقد تجري المقادير لكثير من السفلة بوجوه من الحظ - يجعلها الله عليهم وبالا، ولهم في الدنيا والآخرة نكالا، يهتك بها أسرارهم، ويخرج بها أضغانهم، إذا ضمتهم مضامن النعم، وهم مع ذلك يرون أنه لا يلحقهم بأهل الفضل غير التجبر والفخر، ووالله ما دعاني الى هذا أني أرى الانتقام منك حظا، ولكني أحببت أن أعرفك من نفسك ما أصبحت به جاهلا، وأصبح للناس باديا، ولئن أنكرت نصيحتي لقد وضعتها في غير موضعها، وبالله نستعين على ابتلائه الدنيا، وتدنيسه النعمة، وحطه المراتب والأقدار بك. أعاذنا مما ابتلاك به)[1].

وكتب العتابي إلى صديق له:

(أما بعد. أطال الله بقاءك، وجعله يمتد بك الى رضوانه والجنة. فإنك كنت عندنا روضة من رياضة الكرم، تبتهج النفوس بها، وتستريح القلوب إليها، وكنا نعفيها من النجعة استتماماً لزهرتها، وشفقة على قدرتها، وادخاراً لثمرتها، حتى أصابتنا سنة كانت عندي قطعة من سني يوسف، واشتد علينا كلها، وغابت قطتها، وكذبتنا غيومها، وأخلفتنا بروقها، وفقدنا صالح الأخوان فيها، فانتجعتك، وأنا بانتجاعي إياك شديد الشفقة عليك، مع علمي بأنك موضع الرائد، وأنك تغطي عين الحاسد، والله يعلم أني ما أعدك الا في حرمة الأهل، واعلم أن الكريم إذا استحيا من اعطاء القليل، ولم يمكنه الكثير، لم يعرف جوده، ولم تظهر همته وأنا أقول في ذلك.

ظل اليسار على العباس ممدود ... وقلبه أبدا بالبخل معقود
إن الكريم ليخفي عنك عسرته ... حتى تراه غنيا وهو مجهود
وللبخيل على أمواله علل ... زرق العيون عليها أوجه سود
اذا تكرمت عن بذل القليل ولم ... تقدر على سعة لم يظهر الجود
بث النوال ولا تمنعك قلته ... فكل ما سد فقرا فهو محمود

(١) المنظوم والمنثور ١٣/٤٢٢

فشاطره ماله حتى أعطاه احدى نعليه ونصف قيمة خاتمه[1].

* * *

في هذه الرسائل بدأ السجع والازدواج يخطان طريقهما في التعبير، غير أن السجع كان بقدر، أما الازدواج فقد غلب على الأساليب، بفقراته المتعادلة وكلماته المتوازنة وفواصله المقفاة حينا، الموزونة (صرفياً أو عروضياً) حيناً آخر، وفيها أيضاً غلب استعمال الحال وغيره من المكملات المجملات، كالتمييز والمفعول لأجله، والجار والمجرور، وهذا ما كانت عليه رسائل عبد الحميد.

---

(١) الامالي ٢/١٣٥.

(٣) مدرسة التحليل والتفريع والاستطراد

تلك هي مدرسة «الجاحظ» التي حملت لواء البيان عبر القرون، منذ أواخر القرن الهجري الثاني. . . ولم تستطع المدارس التالية - بتياراتها الجديدة - أن تطغى عليها أو تطوي صفحتها؛ بل كانت تسايرها زمناً وتكاد تغمرها ثم تنحسر عنها. . حتى في عصرنا الحاضر - الذي مل السجع وألغاز البديع، وساد فيه الأسلوب المرسل - لم تتوقف لها موجة، ولم ينقطع لها تيار، تلمحها في التوازن والازدواج عند الرافعي والزيات. والترديد والتكرار عند طه حسين، والتحليل والتعليل عند العقاد، والفكاهة والسخرية عند الشيخ عبد العزيز البشري، وقد يطول بنا الحديث هنا لو استطردنا في القول استطراد الجاحظ، فلنكتف بهذه الاشارة لنصل من الحديث ما انقطع:

طابعها:

استمدت هذه المدرسة أسلوبها من رافدين زاخرين

١ - طريقة عبد الحميد القائمة على الإطناب والازدواج.

٢ - طريقة سهل بن هرون، القائمة على التحليل والتعليل والجدل والحوار.

جمع الجاحظ في طريقته بين هاتين، وزاد على **الأولى** حسن التقسيم وجمال الايقاع والتقصي وكثرة الاستطراد. . . وزاد على **الثانية** جانب الفكاهة الساخرة وتوليد المعاني. . . ثم أوغل في كل هذا بقوة حتى كان في إيقاعه أوقع، وفي ازدواجه أمتع، وفي تحليله أدق وأبرع. . كما كان لبقا في حواره، قوي اللدد في جداله، مريراً في تهكمه، يسيل رقة في طرائفه ونوادره. . وبكل هذا طبعت هذه الطريقة التي عرف بها الجاحظ والتي ظهرت وبرهت، وذاعت وشاعت وطغت على غيرها من الطرائق.

أما العبارة فكانت متينة السبك، جزلة الألفاظ، محكمة الربط، وثيقة

الحلقات وربما كان من العسير ـ في بعض عبارات الجاحظ ـ أن ننزع لفظاً من موضعه أو تستبدل به غيره من ذوي قرابته، أو تقدمه على ما أخره؛ لأنه كان يرى لكل معنى لفظاً خاصاً لا ثاني له، ولا مناص منه لمن طلب البلاغة. . . لقد أفصح عن ذلك بقوله:

(ومتى شاكل ـ أبقاك الله ـ ذلك معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وفقاً، ولذلك القدر لفقاً، وخرج عن سماجة الاستكراه، وسلم من فساد التكليف. كان قمينا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع. . . . ولا تزال القلوب به معمورة، والصدور به مأهولة.

ومتى كان اللفظ أيضاً كريما في نفسه؛ متخيّراً في جنسه؛ وكان سليماً من الفضول؛ بريئاً من التعقيد؛ حبب إلى النفوس؛ واتصل بالأذهان، والتحم بالعقول؛ وهشت إليه الأسماع؛ وارتاحت إليه القلوب؛ وخف على ألسن الرواة وشاع في الآفاق ذكره؛ وعظم في الناس خطره[1].

ويبدو أنه كان يرى البلاغة في حسن الألفاظ ومن ثم كان يدعو إلى الدقة في اختيارها والتروي في انتقائها، ويذكرنا بموعظة أحد الأدباء.

(إن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً؛ وأعاره البليغ مخرجاً سهلا؛ ومنحه المتكلم دلا متعشقاً؛ صار في قلبك أحلى؛ ولصدرك أملا؛ والمعاني إذا كسيت الألفاظَ الكريمة؛ وألبست الأوصاف الرفيعة؛ تحولت في العيون عن مقادير صورها؛ وأربت عن حقائق أقدارها بقدر ما زينت؛ وحسب ما زخرفت، فقد صارت الألفاظ في معاني المعارض، وصارت المعاني في معنى الجواري[2].

وإذ كان الجاحظ من أئمة المعتزلة الذين تسلحوا بالفلسفة اليونانية. واصطنعوا أساليبها في الرد على خصومهم فمن الطبيعي أن يعتمد في أسلوبه على التحليل والتعليل وتوليد المعاني وغير ذلك مما يمكن له في المحاورة وقوة

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢/ص ٧، ٨ (تحقيق هرون)
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ٢٧٢/١ (هرون)

اللدد، دفاعاً وهجوماً.

وبهذه الخصائص انفردت مدرسة الجاحظ الأدبية، وتميزت من سائر الأساليب.

وإذا كان سهل بن هرون هو واضع حجرها الأساسي فإن الجاحظ هو الذي رفع القواعد وأعلى البناء.

أعلامها:

لا شك أن سهل بن هرون كان أول رائد لهذه المدرسة، بما مهد لها من طرق، واختط لها من نظم... فلما فرعه الجاحظ انتقلت من يده الريادة واستقرت في قلم أبي عثمان... وهذا سهل نفسه يعترف ببلاغته ويقر له بهذه المكانة بقوله: (إذا ثبت الجاحظ في الديوان أفل نجم الكتاب)[1].

وعلى أية حال فإن ابن هرون كان «علماً بارزاً من أعلام هذه المدرسة رائداً ومرتاداً كما سنرى»[2].

اقتدى بالجاحظ في أسلوبه كثيرون من المعاصرين واللاحقين:

كابن قتيبة المتوفى سنة (٢١٦) والمبرد المتوفى سنة (٢٨٦)
وقدامة المتوفى سنة (٣١٠) والصولي المتوفى سنة (٣٣٥)
والجرجاني المتوفى سنة (٣٩٢) والعسكري المتوفى سنة (٣٩٥)
وأبي حيان المتوفى سنة (٤١٤) والثعالبي المتوفى سنة (٤٢٥)

وغير هؤلاء كثيرون من ذوي الآراء والمواهب، أولئك الذين لا هم لهم إلا إبراز الفكرة، وإصابة النظرة، فجنحوا بأقلامهم إلى التحليل والتعليل بألفاظ دقيقة وصافة، لطيفة شفافة، قانعين من جمال الموسيقى بجمال الازدواج وتعادل الفقرات، وحسن التقسيم وهاك طرفاً من نثرهم المأثور.

---

(١) معجم الأدباء ٦/ ٧٩

(٢) أنظر الترجمة في الباب الثالث.

صدر ابن قتيبة عيون أخباره بقوله:

(وهذه عيون الأخبار نظمتها لمغْفل التأديب تبصرة، ولأهل العلم تذكرة ولسائس الناس ومسوسهم مؤدباً، وللملوك مستراحاً من كد الجد والتعب، وصنفتها أبواباً، وقرنت الباب بشكله، والخبر بمثله، والكلمة بأختها، ليسهل على المتعلم علمها، وعلى الناشد طلبها، وهي لقاح عقول العلماء، ونتاج أفكار الحكماء، وزبدة المخض وحلية الأدب)[1].

وفي أدب الكاتب يقول الصولي:

(من خدم السلطان بلا علم واستقلال، وتجربة وكمال، كان بمنزلة راكب فيل صعب، وسابح في بحر قد جف. ومع ذلك فإن الأتباع إذا أحسوا من الرؤساء بتفويض إليهم على قلة علم منهم، واضطرار إلى كفاءتهم ولم يحس الأتباع منهم حسن مجازاة على جميل إفادتهم، وسوء مكافأة على قبيح فعالهم؛ حتى يستوي عندهم محسنهم ومسيئهم، وخائنهم وأمينهم، وكافئهم وعاجزهم انتقل الأمين عن مر الوفاء إلى حلاوة الخيانة، وازداد الخائن بصيرة فآثر الإضرار، وقصر الكافي عن أتعاب النفس، وكد الانتصاح. فقد يرى الأمين صنيعه فيخون، ويرى الخائن جرماً فيعف؛ فيضطرب عند ذلك الحبل، وينشر الأمر، وتنعكس مساوي قوم محاسن آخرين)[2].

وفي الوساطة، يرسم الجرجاني طريق النظم للأدباء فيقول:

(... ولا آمرك بإجراء أنواع الشعر كله مجرى واحداً، ولا أن تذهب بجميعه مذهب بعضه، بل أرى لك أن تقسم الألفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ولا مديحك كوعيدك، ولا هجاؤك كاستبطائك، ولا هزلك بمنزلة جدك، ولا تعريضك مثل تصريحك؛ بل ترتب كلا مرتبته، وتوفيه حقه؛ فتلطف إذا تغزلت، وتفخم إذ افتخرت، وتتصرف للمديح تصرف مواقعه؛ فإن المدح باللباقة والظرف ووصف الحرب والسلاح، ليس

(١) عيون الأخبار (المقدمة)
(٢) أدب الكاتب/٢٦، تطور الأساليب/٢٠٣

كـوصف المجلس والمدام، فلكـل واحد من الأمـرين نهج هو أملك بـه، وطريق لا يشاركه الآخر فيه.

وليس مـا رسمته لـك في هذا البـاب بمقصور عـلى الشعر دون الكتـابـة، ولا بمختص بـالنظم دون النـثر؛ بل يجب أن يكـون كتابـك في الفتـح أو الـوعيـد، خـلاف كتابـك في التشوق والتهنئـة واقتضاء المـواصلة، وخـطابـك إذا حـذرت وزجرت أفخم منه إذا وعدت ومنيت. فاما الهجو فـأبلغه مـا جرى مجـرى الهزل والتهاتف(١)، وما قربت معانيـه وسهل حفـظه، وأسرع علوقـه بالقلب ولصـوقه بالنفس، فأمـا القذف والإفحـاش فسباب محض، وليس للشـاعر فيـه إلا إقامـة الـوزن وتصحيـح النـظم. وإذا أردت أن تعـرف مـوقـع اللفظ الـرشيق من القلب، وعـظم غنائـه في تحسين الشعـر، فتصفح شعـر جـريـر وذي الـرمـة في القـدماء، والبحتـري في المتأخـرين، وتتبع نسبيب متيمي العـرب ومتغزلي أهـل الحجـاز، كمعمر وكثـير وجميل ونصيب وأحـزابهم. وقستهم بمن هو أجـود منهم مشعراً، وأفصح لفظاً وسبكاً ثم انظر واحكم وأنصف)(٢).

وأبو حيان في رسالته إلى ابن العميد ينزع هذا المنزع. كتب إليه:

(أقول وخير القـول ما عقـد بالصـواب، وخير الصـواب ما تضمن الصـدق، وخير الصدق ما جلب النفع، وخير النفع مع تعلق بالمزيد، وخـير المزيـد ما بـدا عن الشكـر، وخير الشكـر ما بـدا عن إخلاص، وخـير الإخلاص مـا نشـأ عن اتفاق، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق.

لما رأيت شبابي هرماً بالفقر، وفقري غنى بالقنـاعة، وقنـاعتي عجزاً عن أهـل التحصيـل، عدلت إلى الـزمان أطلب إليـه مكاني فيـه، وموضعي منـه، فـرأيت طـرفة نـابياً، وعنانه عن رضاي منثنيـاً، وجنانـه في مرادي خشنـاً، وارتفاقي في أسبـابه سبباً، والشامت عـلى الحـدثـان متمـاديـاً. طمعت في السكـوت تجلداً، وانتحلت القنـاعة ريـاضة، وتـألفت شارد حـرصي متوقفـاً وطويت منشـور آمالي

(١) هذا هو «أيضاً» مذهب الجاحظ في الهجاء كما في رسالة التربيع والتدوير

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ص ٢٦ وما بعدها

متنزها، وجمعت رجائي سالياً، وادرعت الصبر مستمراً ولبست العفاف ضناً، واتخذت الانقباض صناعة، وكنت بالعلاء مجتهداً.

هذا. بعد أن تصفحت الناس فوجدتهم أحد رجلين: رجلا إن نطق نطق عن غيظ ودمنة، وإن سكت سكت عن ضغن وإجنة، ورجلا إن بذل كدر بامتنانه بذله، وإن منع حسن باحتياله بخله، فلم يطل دهري في أثنائه متبرجاً بطول الغربة، وشظف العيش، وكلب الزمان، وعجف المال، وجفاء الأهل وسوء الحال، وعادية العدو، وكسوف البال، متحرقاً من الحنق على ليئم لا أجد مصرفاً عنه، متقطعاً من الشوق إلى كريم لا أجد سبيلاً إليه(١).

* * *

التعليق

في هذه المقتطفات، نحس بصفة عامة جمال الازدواج، وحسن الإيقاع، كما نحس انغام الموسيقى الهادئة بين الفينة والفينة، فضلاً عن جمال التقسيم ودقة الترتيب.. وفي بعضها دعوة صريحة إلى ما دعا إليه الجاحظ من المراوحة بين الجد والدعابة، كما في رسالة الجرجاني الجامعة؛ بالاستيفاء والاستقصاء وكمال التفريع، وفي بعضها الآخر من دقة التحليل والتعليل ما هو بأسلوب الجاحظ أشبه، كما في رسالة الصولي... أما رسالة أبي حيان فما أظهر ما بها من توليد المعاني واستقصائها وتسلسلها تسلسلاً منطقياً يسلمك بعضه إلى بعض في هدوء واطمئنان... ألا تراه يقول: (أقول وخير القول ما عقد بالصواب، وخير الصواب ما يضمن الصدق، وخير الصدق ما جلب النفع، وخير النفع مع تعلق بالمزيد... وهكذا حتى يصل بك إلى ما يريد، بأسلوب مسلسل محكم الربط وثيق الحلقات.. ومن ثم تظهر بلاغة هذه المدرسة في النواحي العلمية، والمواقف الجدلية. التي تطلب دقة الألفاظ تبعاً لدقة المعنى. من أجل هذا رأينا لها انصاراً يصطنعون أساليبها في القرنين الرابع والخامس، على الرغم مما سادهما من موجات السجع والبديع؛ بل إن من عشاق السجع - في عصر

(١) المقابسات ط الرحمانية/١٠٥

السجع ـ من كانوا يصطنعون في كتاباتهم، وبخاصة في المواقف التي تتطلبه، قانعين من موسيقى الألفاظ بموسيقى التوازن والازدواج؛ فالثعالبي مثلا الذي عرف بميله إلى الصناعة اللفظية قد اعتمد عليه ـ في يتيمته. في الترجمة لأعلام الأدب. . كتب عن الخوارزمي يقول.

(باقة الدهر، وبحر الأدب، وعلم النثر والنظم، وعالم الفضل والظرف، وكان يجمع بين الفصاحة العجيبة، والبلاغة المفيدة، ويحاضر بأخبار العرب وأيامها ودواوينها، ويدرس كتب اللغة والنحو والشعر، ويتكلم بكل نادرة، ويأتي بكل فقرة ودرة، ويبلغ في محاسن الأدب كل مبلغ، ويغلب على كل محسن؛ بحسن مشاهدته، وملاحة عبارته، ونعمه، ونعمته، وبراعة جده، وحلاوة هزله. . . .[1].

وعن أبي فراس يقول:

(كان فرد دهره. وشمس عصره أدباً وفضلا، وكرماً ونبلاً، ومجداً وبلاغة، وبراعة، وفروسية وشجاعة. وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة. والسهولة والجزالة. والعذوبة والفخامة. والحلاوة والمتانة. ومعه رواء الطبع. وسمة الظرف. وعزة الملك. ولم تجتمع هذه الخلال قبله في شعر عبد الله بن المعتز. وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ونقدة الكلام. . .)[2].

وبمثل هذا وأظهر. كتب عن «البديع»[3] رائد السجع والبديع.

---

(١) يتيمة الدهر جـ ١٩٤/٤.
(٢) المرجع السابق جـ ٣٥/١.
(٣) يتيمة الدهر جـ ١٦٧/٤

(٤) مدرسة السجع والبديع

توطئة :

اضطرب القدامى في تعريف السجع: هل هو مجرد اتحاد الفاصلتين في الروي أو في الوزن فقط؟ أم أنه لا يتأتى الا باتحادهما وزناً وروياً معاً؟

كما اختلفوا في صلته بعلم البديع: أهو من أنواعه ومباحثه أم خارج عن دائرته[١]؟ وفي ميدانه: أهو مختص بالنثر دون الشعر؟ أم يتأتى فيهما معاً[٢]؟

كل هذا يحدونا أنا نقف هنا قليلا لنتبين حقيقة ما قالوا. ونتخير منها أنسبها حتى نساير عن بينة ـ هذه الأساليب المسجوعة التي طبعت بها رسائل هذه المدرسة في القرن الرابع للهجرة.

تعريف السجع :

السجع في الكلام: هو اتحاد الفواصل وزناً وروياً على نسق القافية مأخوذ من سجع الناقة إذا أطربت في حنينها. أو الحمامة إذا رجعت في هديلها. سمى بذلك لتماثل فواصله[٣] أو رويها، فأشبه ذلك الترجيع، يقول ابن الدمينة.

أإن سجعت ورقاء في رونق الضحا	على فنن غض النبات من الرند
بكيتَ كما يبكي الوليد، ولم تكن	جليداً. وأبديت الذي لم تكن تبدي

وهذا هو الأصل اللغوي القائم على توافق الأنغام والأوزان، ومن ثم كان اتحاد الوزن أو مقاربته شرطاً أساسياً لا محيص عنه كما نرى... غير أن علماء

---

(١) لم يذكره ابن المعتز وكذا أبو هلال وابن رشيق ـ ضمن أنواع البديع

(٢) يرى ذلك قدامة (نقد الشعر/٧٤) والعسكري (الصناعتين/٢٠٣) وابن رشيق (العمدة جـ ١/١٤٤ وجـ ٢/٢٢).

(٣) إعجاز القرآن للباقلاني/٦٠

اللغة قد أهدروا هذا الشرط، فالفيروزابادي والجوهري والزمخشري يقولون[1] السجع: هو الكلام المقفى، أو مولاة الكلام على روي واحد فالمقطع الأخير أغفل شرط الوزن وبمثل هذا أيضاً يقول جمهرة أهل البلاغة.

ألا ترى القلقشندي يقول في تعريفه: هو تقفية مقاطع الكلام من غير وزن[2] وابن الأثير[3] والقزويني[4] يقولان: هو تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد، وابن يعقوب المغرلي[5] يزيد الأمر إيضاحاً فيقول: هو توافق الكلمتين اللتين في آخر الفقرتين من النثر على حرف واحد، وكذلك الرماني[6] الذي عرفه بقوله: هو تكلف القافية من غير تأدية للوزن.

التعليق:

وفي مناقشة هذه الآراء والرد عليها، في تنكرها للوزن، نقول بمثل ما قاله ابن رشيق - في رده على من يرى أن القافية هي حرف فقط - إذا القافية في الشعر صنو الفاصلة في النثر - فابن رشيق ينكر عليهم ذلك (لأنه لو كان صحيحاً لجاز في قصيدة واحدة: فجر، وفجار، وفاجر، وفجور ومتفجر، ومنفجر، ومفجور. . وهذا لا يكون أبداً)[7] إذ إن القافية لا تستقيم إلا بالوزن العروضي، وهو المراد هنا في باب السجع، ولعل هذا ما حدا بأبي العباس المبرد أن يخرج على أجماعهم مقرراً «أن السجع من الكلام: أن تأتلف أواخره على نسق كما تأتلف القوافي»[8]، وهل تأتلف القوافي إلا بهذين، **الوزن والقافية معاً؟**

---

(١) مادة «سجع» + الاتقان للسيوطي ٢/١٦٤

(٢) صبح الأعشى ٢/٢٦٩.

(٣) المثل السائر ٧٤

(٤) الإيضاح ٢٧٨

(٥) مواهب الفتاح ٤/٤٤٥

(٦) نهاية الإيجاز للرازي ٣٤

(٧) العمدة (ط السعادة) جـ ١/١٥٣

(٨) الكامل للمبرد «شرح المرصفي» جـ ٥/٢٤١

ولما كان النثر أرحب صدراً من الشعر، المحدود بدقيق الوزن، فقد تأتي فيه شيء من التساهل في الوزن على نحو ما سنرى في «السجع المطرف».

أنواع السجع:

السجع نوعان: (أ) السجع العاطل ويسمى أيضاً الازدواج، وهو اتحاد الفواصل في «الوزن» دون «الروي»، وقد غلب على أسلوب القرنين: الثاني والثالث.

(ب) السجع الحالي: وهو الخطوة التالية لتطور الازدواج؛ فقد ضم إلى اتحاد الوزن اتحاد حرف الروي من الفواصل، وذلك ما طبعت عليه الكتابة منذ القرن الرابع الهجري، وفروعه ثلاثة:

المرصع:

هو أضيق الأنواع مجالاً، وأعزها منالاً، فهو الحلية اللفظية التي لا تقف عند تماثل الفاصلتين أو الفواصل؛ بل ترمي أيضاً إلى استواء ألفاظ القرينتين كلها، في الأوزان، واتحادها في الإعجاز؛ كقوله تعالى: ﴿إن الينا إيابهم، ثم إن علينا حسابهم﴾ وهذا هو الترصيع الكامل فإذا حدث التوافق في أغلب الألفاظ دون الكل كان الترصيع ناقصاً كقولنا: «على أفصح الخطباء لساناً، وأوضح الكتاب بياناً»؛ لانعدام المحاثلة بين كلمتي (الخطباء والكتاب). وهذا النوع أكثر من سابقه وقوعاً في الكلام؛ من حيث إنه أقل مؤونة وجهداً على الكاتب.

وإذا كان الترصيع بقسميه أفضل ضروب السجع وأعلاها مرتبة كما يقولون لائتلاف النغم وسريانه في كل أجزائه، فهذا أمر فطري محض إذ إنه يدعو إلى التكلف، ويستعصي على الأقلام، ولا يقدر عليه إلا الأفذاذ من الكتاب، القابضين على ناصية اللغة، الراغبين في استكمال النغم، وهيهات أن يتأتى ذلك لكل أديب، وعلى كل فقد غلب على أسلوب القرنين الخامس والسادس كما سنرى.

يقول الوطواط: إذا أراد شخص أن يجد خزانة مليئة بالمرصعات في النثر

العربي، وجب عليه أن يحصل على رسائل.. أبي الحسن الأهوازي. فإنها برمتها مرصعة كقوله: الحمد لله الدائم بقاؤه، الثاقب برهانه، الغالب سلطانه، الذي أيد الدين بعد ما ولت ولاته، واستولت عداته، وتفرقت أركانه، وتصعصعت[1] أعوانه، وانقضت كواكبه، وانفضت كتائبه، وذل نصيره، وقل مجيره، بغيث الحياء، وليث القضاء، وكنه الآمال، وجهد الأبطال، وقلب الإقدام، وقطب الإسلام، ولباب العلا، ونصاب التقى، الداعي إليه، وصلواته عليه حمداً لا يفني مدده، ولا يحصي أعدده...[2].

المتوازي:

هو ما اتفقت فواصله وحدها في الوزن والروي[3]، ومن ثم كان أقل عبئاً من الترصيع، وأخف جهداً على الكتاب، ويسمى أيضاً «الموازي» سمي بذلك لتوازي فواصله في الوزن والتقفية.

هذا وفي القرآن الكريم كثير من أمثلته... قال تعالى: ﴿فأما اليتيم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر﴾ وقال: ﴿فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة﴾ وقال: ﴿ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك. فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسرا، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب﴾.

وفي الأساليب المسجوعة كثير من هذا اللون الجميل، الذي يمتاز بجمال الموسيقى وتمام المماثلة بين الفواصل من غير قيود أخرى تؤود الكاتب، وتثقل الأساليب، ومن هنا كان أسهل في التناول من الترصيع.

المطرف:

عرفه علماء البلاغة[4] بأنه اتفاق الفاصلتين في حرف الروي دون الاتفاق

---

(١) تصعصعت = تفرقت

(٢) حدائق السحر/٩٠

(٣) حسن التوسل للحلبي/٥٠

(٤) حسن التوسل/٥٠، وحدائق السحر/١٠٦، ونهاية الأرب ٧/١٠٥.

في الـوزن أو عدد الحـروف، وهم بهـذا التعـريف قـد أهـدروا جـانب الـوزن، وأرى أن ذلك مردود بما مثلوا له من أمثله. . . قـال تعالى: ﴿مـالكم لا ترجـون لله وقـارا، وقـد خلقكم أطـورا﴾ فـإن مـوسيقى الـوزن بـين كلمتي «وقـارا، وأطورا لم تهدر كـما زعموا وإن نـالها بعض النشـاز. . . ألا تراهـا قد أسهمت بنصيب كبـير في جمال العبـارة لاتفاق الـوزن بين المقـطعين المتـطرفـين من كلتـا الفاصلتين؟

من أجـل هذا سمى «المطرف» أي مـزين الـطرف فقـد ورد في القـامـوس: طـرفت المرأة بنـانها إذا خضبته، ومعنى ذلـك أن مـوسيقى اللفظ لم تـأت إلا في الأطراف الأخيرة من الفواصل كما ذكرنا. . . هذه الموسيقى قائمـة بين المقـطعين «قارا» و«وارا».

ومن الأمثلة أيضاً التي ذكرهـا الفصحاء قـولهم: جنابـه محط الرحـال، ومخيم الآمال يقول الأستاذ علي الجندي في تحليله:

(. . فرحال وآمال متفقتان في حرف الروي كذلك، ولكنهـما مختلفتان وزناً، لأن الأولى متحـركة الثـاني والأخرى سـاكنته، فـوزن الأولى «فِعال» بـالكسر ثم الفتح. وأختها أفعال)[1].

وهو قول كما ترى قـد فصم الصلة بين وزني الفـاصلتين، والـواقع أن الصلة وثيقـة بينهما ولكن في المقـطعين الأخيـرين فقط، وهما [حـال] و[مال] وهـذا هـو سر جمـال التطريف فلو انعـدم هذا الـوزن أيضاً ـ عـلى ما يـرون ـ لجـاز لنـا أن نقول بالتطريف في العبارة السـابقة عـلى النحو الآتي (جنـابه محط الـرحال ومخيم الأمـل) وذلك لا يكـون أبداً عـلى حد تعبـير ابن رشيق فيما يشبـه هذا المقام[2] ونعني به مقام القافية.

---

(١) فن الاسجاع جـ١.
(٢) العمدة/ جـ ١/١٥٣

الخـــلاصة

١ ـ أنه لا بد من اتفاق حرف الروي بين الفواصل في جميع فروع السجع الحالي . .

٢ ـ ثم ينفرد التصريع . . . بمراعاة الوزن والتقفية بين سائر ألفاظ الفقرة أو معظمها وبين نظائرها من الفقرة الثانية .

٣ ـ ويكفي في «المتوازي» اتحاد الوزن بين الفاصلتين فقط .

٤ ـ أما المُطْرَف فيكفي اتحاد الوزن بين المقاطع الأخيرة فقط من الفواصل، ومن ثم كان أقل الأنواع قيوداً، وبالتالي أكثرها ذيوعاً، وبه طبعت الأساليب منذ القرن الرابع الهجري تعانقه الأسجاع المتوازية كما سنرى ويؤخذ من أشهر الأقوال أن السجع من أنواع البديع، وأنه مختص بالنثر دون الشعر.

بواعث السجع ومنزلته .

السجع كما يقولون، حلية فطرية موسيقية ينبع من صميم الفطرة الصافية؛ مترجماً عن آلامها وآمالها، وبهذه الموسيقى صار قريب الشبه بالشعر الذي يعتمد على موسيقى الأوزان والقوافي. . . ، فإذا ثارت الخواطر وجاشت بها النفوس، انطلقت بها الألسنة في أوزان كأنغام الموسيقى شعراً خالصاً أو نثراً يوائمه. . . وفي ذلك يقول الأستاذ علي الجندي[1]: (فالكلام الموسيقي المتوازن ـ على اختلاف ألوانه ـ هتاف النفس حين تضطرم بنوازع النشوة والألم، والسرور والحزن: والرضا والغضب، والبسط والقبض، تبعثه في يسر من أعماقها سيالا متداركاً، كأنما تجد في تناغم ألفاظه، ورنين أجراسه، وتعاطف حروفه، متنفساً لهذا الجيشان العنيف، وتلطيفاً لهذه الثورة الصاخبة. ولهذا كان معظم الشعراء المفلقين، والكتاب المجيدين من ذوي الأمزجة العصبية، والمشاعر المستعرة، وهم أقوى ما يكون على الإنتاج في هذه الحالات التي تتنزى فيها نفوسهم، وتغلي غليان المراجل، فيكون قصاراهم أن يسجلوا هذه

---

(١) فن الاسجاع ١/٥

الـدفقـات العـاطفيـة، ويصبـوهـا في قـوالب الألفـاظ، وينسقـوهـا، ويضمـوا منتشرها، ويحبسوا بعضها ويفسحوا الطريق لبعضها الآخر).

إن الانفعـال النفسي كما يقـول الأستاذ الـدروبي يملك علينـا كيـاننـا كله. . . وربمـا كـان «بتهـوفن» وهـو يؤلف سمفـونيـة البـطولـة التي أراد أن يهـديهـا إلى «بونابـرت» يعاني من الاضـطراب، بسبب انفعالـه النفسي، مثل مـا كان يعـاني «بونابرت» حينما يشهر حرباً أو يخوض معركة[1].

ومثل السجع مثل الموسيقى كلاهما لغـة العواطف، وكـلاهما متنفس الخـواطر ومن ثم كانت الأساليب المسجوعة، أرقى الأساليب وأبلغها، متى كانت متسقة اللحن، عـذبة الجـرس جميلة الإيقاع. . . ومن ثم كـانت أيضـاً مفـزع الكتـاب الذين لا يجدون في اللغة العاديـة متنفساً لهـذه الخواطـر التي تجيش بها الصـدر، ويفيض بها الوجدان.

دعاة السجع :

أدرك أئمة البلاغـة من قديم مـا لهذا الفن الـرفيع من عـظيم الأثر في تجميـل الأساليب، ورفيع المنـزلة في النفـوس. . . حتى إن الجاحظ، الـذي لم يصطنعـه إلا قليـلا وبقـدر، مـراعـاة لمقتضى الحـال ـ ليشـير إلى جمـالـه في لغـة العـرب، ويفاخر به العجم في معركـة الشعوبيـة. . يقول: (ونحن أبقـاك الله. إذا ادعينا للعـرب أصناف البـلاغة من القصيـد والأرجـاز، ومن المنثـور والأسجـاع، ومن المـزدوج ومـا لا يـزدوج، فمعنـا العلم عـلى أن ذلـك لهم شـاهـد صـدق من الديباجة الكريمة، والرونق العجيب، والسبك والنحت الذي لا يستـطيع أشعـر النـاس اليـوم ولا أرفعهم في البيـان أن يقـول مثـل ذلـك إلا في اليسـير والنبـذ القليل)[2] ثم يتبع ذلك بذكـر الكثير من الشـواهد المسجـوعة في بـاب خاص، ويـرى أبو هـلال العسكـري أن السجـع والازدواج إذا اتفقـا في عبـارة من غـير

---

(١) مقدمة مسائل الفن المعاصر للاستاذ الدروبي/٧.
(٢) البيان والتبيين ٣/١٣

استكراه، كان ذلك أحسن، كقولك «حتى صار تعريضك تصريحاً، وتمريضك تصحيحاً».

أما ابن الأثير فقد دافع عن السجع بحرارة وعقيدة وقوة إيمان، متهماً المناهضين له بالعجز عنه.

استمع إليه يقول مشيراً إلى شروطه ومنزلته.

(واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء، والنفس تميل إليه بالطبع، ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد؛ إذا لو كان ذلك هو المراد من السجع لكان كل أديب من الأدباء سجاعاً، وما من أحد منهم ولو شدا شيئاً يسيراً من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة، ويأتي بها في كلامه؛ بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حارة طنانة رنانة، لا غثة ولا باردة، وأعني بقولي غثة وباردة، أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة وما يشترط لها من الحسن، ولا إلى تركيبها وما يشترط له من الحسن، وهو في الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة، كمن ينقش أثواباً من الكرسف، أو ينظم عقداً من الخزف الملون، هذا مقام تزل عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد ومن أجل ذلك كله كان أربابه قليلاً. فإذا صفي الكلام المسجوع من الغثاثة والبرد، فإن وراء ذلك مطلوباً آخر: وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ؛ فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه، على باطن مشوه، ويكون مثله كغمد من ذهب، على نصل من خشب)[1].

وفيما ذكره ابن الأثير عن السجع يتضح لنا أنه جعله سراً من أسرار البلاغة وضرباً من ضروب الإعجاز في القرآن الكريم، كما يشير إلى أن القرآن الكريم، لا يخرج عن كونه سجعاً أو موزوناً كما في قوله تعالى: ﴿وآتيناهما

---

(١) المثل السائر ص ١٦، ١٧

الكتاب المستبين، وهديناهما الصراط المستقيم﴾ فقد اتحدت الفاصلة وزناً لا روياً، كما هو الشأن في قوله تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا. ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا، فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا﴾[1].

أثار ابن الأثير قضية حول سجع القرآن: لِـمَ لم يكن كله مسجوعاً ما دام السجع في ذروة البلاغة؟ ثم تصدى للفصل فيها، غير أنه لم يبلغ بدفاعه ما بلغ قدامة.

يقول ابن الأثير: إن أكثر القرآن مسجوع، حتى أن السور لتأتي كلها مسجوعة «وما منع أن يأتي القرآن كله مسجوعاً إلا أنه سلك به مسلك الإيجاز والاختصار، والسجع لا يواتي في كل موضع من الكلام على حد الايجاز والاختصار، فترك استعماله في جميع القرآن لهذا السبب[2].

ومن جهة أخرى أشار إلى أن الإعجاز بغير المسجوع أبلغ في ذلك من الإعجاز بالمسجوع.

أما قدامة فكان يشترط للسجع شروطاً ليكون من أسرار البلاغة، منها؛ أن يكون في موضعه ولكل مقام أسلوب، وأن يكون ـ حينما تسمح به القريحة ـ في بعض الكلام دون بعض، وكأنه يرى أن الإكثار من السجع في العبارة يضعف من شأنها ويذهب بجمالها، ومن ثم جاء النظم الكريم على هذه وتلك ليجمع إلى جمال التعبير جمال المراوحة. . . . . استمع إليه يقول (إن السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه، فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله وعي من قائله) ثم يقول:

ولو كان لزوم السجع في القول والإغراب فيه وفي اللفظ هما البلاغة لكان الله عز وجل أولى باستعمالهما في كلامه الذي هو أفضل الكلام، ولكان النبي

---

(١) المرجع السابق ١٧٠

(٢) المرجع السابق /١١٨.

صلى الله عليه وسلم والأئمة المهديون قد استعملوهما، ولزموا سبيلهما، وسلكوا طريقهما؛ فأما ولسنا واجدين فيها في أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا في المواضع اليسيرة فهم أولى بأن يقتدى بهم، ويحتذى بمنهاجهم، ممن قد نبت في هذا الوقت من هؤلاء الذين ليس معهم من البلاغة إلا ادعاؤها، ولا من الخطابة إلا التحلي باسمها[1].

إن شأن السجع في ذلك شأن كل حلية صناعية متى تجاوزت الحد، عرفاً أو ذوقاً، غاض ماؤها وقل بهاؤها، وما أشبهه في الكلام بالملح في الطعام. قد نستغني عنه متى اقتضى ذلك المقام استغناءنا عن الملح في بعض الألوان، وقد نحرص عليه بقوة - إذا أردنا أن نخاطب العواطف ونستفز الهمم - حرْصنا على الملح في المشهيات، وقد نقف بهذا وذاك عند حد المألوف بحسب الأحوال والظروف..

السجع في العصر العباسي

لم يكن السجع في هذا العصر حديث النشأة أو طارئاً على الأساليب، وإنما هو حلية فطرية قديمة قدم النثر الفني؛ فالعربي سجاع بطبعه؛ ومن قديم رقصت نفسه على جرسه وفواصله قبل أن ترقص على أوزان الشعر وقوافيه؛ إذ كان المتنفس الوحيد لأهل البادية حينما تنفعل عواطفهم بالمؤثرات، وتجيش صدورهم بالخواطر.

فلما اهتدوا إلى الشعر لم يهجروه بالكلية، بل ظلوا يمارسونه على قلة وفي أضيق نطاق.. نطاق النثر الكهاني[2] وبعض الحكم أو الأمثال[3]. وفي العهد

(١) نقد النثر/ ٩٢ وما بعدها

(٢) كانت الكهانة شائعة في عرب الجاهلية، وكان الكهان يعتمدون فيها يخبرون على رنين السجع لزيادة التأثير في النفوس من ناحية، وإلهاء السامع فلا يفطن لأسرارهم من ناحية أخرى، إذ كانوا يدعون أن لهم رئيا من الجن يسترق لهم السمع من الملائكة، ومن ذلك حديث الكاهنة زبراء لبني رئام أعداء بني راهن: «واللوح الخافق، والليل الغاسق، والصبح الشارق، والنجم الطارق، إن شجر الوادي ليأدو ختلاً، ويحرق أنياباً عصلا، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً، لا تجدون عنه معلاً...».

(٣) كقولهم أعذر من أنذر، اليوم خمر وغدا أمر، الإيناس قبل الإبساس.

الإسلامي تجلت سماته في أساليب «المتنبئين الكذابين من أمثال مسيلمة وطليحة والأسود العنسي... يقول مسيلمة الذي كان يعارض القرآن كثيراً: سبح اسم ربك الأعلى. الذي يسر للحبلى، فأخرج منها نسمة تسعى، من بين احشاء ومعي، فمنهم من يموت ويدس في الثرى، ومنهم من يعيش إلى أجل ومنتهى، والله يعلم السر وأخفى، ولا تخفى عليه الآخرة والأولى[1].

كما تجلت سماته كذلك في بعض أساليب القرآن الكريم[2]، وبعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم[3] والأرشاد كما تجلت كذلك بقدر، وبصفة غير لازمة في أساليب القرنين بله الثلاثة الأولى.

والواقع أن السجع الذي خفت صوته في العهدين الاسلامي والأموي قد بدأ يستعيد شأنه منذ القرن الثاني، في ثوب جديد هو «الازدواج» بعامل جديد هو الحضارة والواقع كذلك أن هذه الحضارة الطارئة التي جللت العرب في العصر العباسي، وتجلت في ملبسهم ومسكنهم ومأكلهم قد تجلت أيضاً في طباعهم وخواطرهم السانحة، كما تجلت كذلك في طريقة التعبير عنها بأسلوب حضري يوائم أذواق العصر وأسلوب العصر، فهم لم يعودوا ليقنعوا بالأساليب الموجزة المرسلة التي درج عليها كتاب القرن الأول وإنما عمدوا إلى الإطناب بالمترادفات المزدوجة حيناً، المسجوعة حيناً آخر.

وكلما تقدم بهم الزمن أوغلوا في هذه السبيل حتى رجحت كفة السجع سواها، وأصبح غالياً على الأساليب في القرن الرابع الهجري، وبصفة لازمة يقصد إليها لتجميل العبارة وزخرفة المقاطع والفواصل.

---

(١) ثمار القلوب للثعالبي/١١٥. ثم أنظر إعجاز القرآن للباقلاني/١٢٨، وإعجاز القرآن للرافعي ١٧٨

(٢) كما في أغلب السور القصيرة.

(٣) كقوله صلى الله عليه وسلم. (أفشوا السلام، واطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام الصناعتين ٢٥١) وقوله للانصار: إنكم لتكثرون عند الطمع، وتقلون عند الفزع، وقوله (المؤمن هين لين)، وقوله (ما ندم من استشار ،ولا شقي من استخار) (العقد الفريد ١/٣٣).

(٤) انظر ما ورد من ذلك من رسائل الحسن البصري في نهاية الأرب ٦/٣٧

وثمة عامل آخر مهد لظهور السجع في القرن الهجري الرابع.. هو العامل السياسي أو القومي، فإن الأعاجم الذين تداولوا النفوذ طول العصر العباسي كانوا يتجهون بالكتابة، منذ البداية، إلى ما كانت عليه أيام الأكاسرة؛ من إيثار اللفظ على المعنى، والميل بها ألى الزخرف والتنغيم الصوتي الذي يستميل الآذان بجرسه، ويهز النفس بموسيقاه... يقول الأستاذ علي الجندي: (ولما كان كبار الكتاب من الفرس، وهم مغرمون بالحلية والزينة والزخرف، وفي طباعهم تقديس أكاسرتهم وأمرائهم، والخضوع المطلق لهم والفناء في أشخاصهم، بثوا في الكتابة أنواعاً من القاب التفخيم والتعظيم، ونعوت التمجيد والتهويل؛ حتى ملئت بألفاظ العبادة والتألية الغريبة عن منازع العرب في العزة والكرامة والحرية والديمقراطية)(١).

وبعد فما طابع هذه المدرسة؟ ومن أعلامها؟ وأيهم كان الإمام الرائد؟

طابعها:

غلب السجع بأنواعه المختلفة على رسائل هذه المدرسة، وصار صناعة فنية أصيلة لتجميل العبارة وزخرفة الأساليب.. تلك التي لم تخل أيضاً من ألوان البديع الأخرى كالجناس والطباق والتورية أو غيرها من ضروب البيان التي يتجلى فيها عنصر الخيال كالتشبيه والاستعارة... ولكن هيهات أن يبلغ ذلك كله ما بلغه السجع من الذيوع والشيوع والسيطرة على هذه الأساليب التي اقتربت من أسلوب الشعر، وزاحمته في ألفاظه ومعانيه ودواعيه، حتى عمد الكتاب إلى أبيات الشعر يحلونها ويرصعون الأساليب بمنثورها، كما رصعوها بآيات الله البينات، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فضلاً عن الحكم البالغة والأمثال السائرة والإشارات التاريخية العابرة، ومن ورائها الأحداث الكبرى والقصص الطوال.

نلمح أكثر هذا كله في رسالة ابن العميد إلى أبي العلاء المعري، يشكو فيها شهر الصيام، وفيها يقول: كتابي - جعلني الله فداك - وأنا في كد وتعب

---

(١) فن الاسجاع جـ ١١٥/١

منذ فارقت شعبان، وفي جهد ونصب من شهر رمضان، وفي العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر، من ألم الجوع، ووقع الصوم، ومرتهن بتضاعيف.

حرور لوان اللحم يصلى ببعضها غريضا، أتى أصحابه وهو منضج[1]

وممتحن بهواجر يكاد أوارها يذيب دماغ الضب، وتصرف وجه الحرباء عن التحديق، ويزويه عن التبصر، ويقبض يده عن إمساك ساق وإرسال ساق.

ممنوّ بأيام تحاكي ظل الرمح طولا، وليال كابهام القطا قصرا، ونوم (كلا ولا) قلة، وكحسو الطائر من ماء الثماد دقة، وكتصفيقة الطائر المستحر خفة.

كما أبرقت قوما عطاشا غمامة فلما رأوها أقشعت وتجلتِ

وأحمد الله على كل حال، وأسأله أن يعرفني فضل بركته، ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته، وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره، ويقصر سيره، ويخفف حركته ويعجل نهضته، وينقص مسافة فلكه ودائرته، ويزيل بركة الطول من ساعاته، ويرد على غرة شوال فهي أسر الغرر عندي وأقرها لعيني ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان، ويعرض على هلاله أخفى من السر، وأظلم من الكفر، وأنحف من مجنون بني عامر، وأضنى من قيس بن ذريح، وأبلى من أسير الهجر؛ ويسلط عليه الحور بعد الكور[2] ويرسل على رقاقته التي يغشى العيون ضوءها، ويحط من الأجسام نوءها، كلفا يغمرها، وكسوفاً يسترها، ويرينيه مغمور النور، مقمور الظهور، قد جمعه والشمس برج واحد، ودرجة مشتركة، وينقص من أطرافه كما تنتقص النيران من طرف الزند، ويبعث عليه الأرضة، ويهدي إليه السوس، ويغري به الدود، ويبليه بالفار ويخترمه بالجراد، ويبيده بالنمل، ويجتحفه بالذر، ويجعله من نجوم الرجم، ويرمي به مسترق السمع، ويخلصنا من معاودته، ويريحنا من دوره، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه، ويفعل به فعله بالكتان، ويصنع به صنعه بالألوان، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتضح بضوئه، وتهتك بطلوعه، ويرحم

---

(١) الحرور واحدها حر، والغريض = النيىء وضده المنضج.

(٢) النقصان بعد الزيادة

الله عبداً قال آمينا. واستغفر الله جل وجهه مما قلته إن كرهه، وأستعفيه من توفيقي لما يذمه، وأسأله صفحاً يفيده؟ وعفوا يسيغة، وحالي بعد ما شكوته صالحة، وعلى ما تحب وتهوى جارية؛ ولله الحمد تقدست أسماؤه، والشكر).».

على أنهم قد بالغوا في ذلك، حتى كانوا يرصعون القول فقرة فقرة بروائع الشعر شطرا شطراً، كالذي كان من بديع الزمان في رسالته إلى الخوارزمي عند رحيله إليه بنيسابور. إستمع إليه يقول:

إنا لقرب دار الأستاذ «كما طرب النشوان مالت به الخمر»
ومن الارتباح للقائه «كما انتفض العصفور بلله القطر»
ومن الامتزاج بولائه «كما التقت الصهباء والبارد العذب»
ومن الابتهاج بمزاره «كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب»

فكيف ارتياح الأستاذ لصديق طوى ما بين قصبتي العراق وخراسان، بل عتبتي نيسابور وجرجان، وكيف إهتزازه لضيف في بردة جمال، وجلدة حمال.

رث الشمائل منهج الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب[1]
كمهلهل وربيعة بن مكدم وعيينة بن الحارث بن شهاب

وهو ولي إنعامه، بإنفاذ غلامه؛ لأفضي إليه بسرى إن شاء الله تعالى وحده»[2].

ولما كانت هذه المدرسة تنزع عن عروق فارسي عريق، فقد نقلت إلى العربية تقاليد الكتاب الفرس، ففي مخاطبة الخلفاء كانوا يغرقون في ألقاب التعظيم والتفخيم تزلفاً وتملقاً، كما كانوا يعترضون في رسائلهم بالجمل الدعائية، ثم خطوا في هذه السبيل ـ سبيل الخضوع والتزلف ـ خطوة أوسع، فلجأوا في مخاطبة الخلفاء والأمراء إلى الكناية بدل التصريح بأسمائهم

---

(١) أنهج الثوب = أخلق، يقال برد منهج أي قديم أنهجه البلى
(٢) الفن ومذاهبه/٩٢

وألقابهم، تنزيهاً لها عن التلفظ بها، ألا تراهم يكنون عن الخليفة بالحضرة المقدسة أو السدة العلية أو الأعتاب، كما يكنون عن الوزراء بالحضرة الوزارية، ولكل طبقة كناية خاصة ومقام معلوم، على أن الكتاب أنفسهم قد ظفروا من التعظيم بمثل ذلك، حيث لقبوا بالشيخ، والعميد، والرئيس والأستاذ وغيرها من رفيع الألقاب.

رائدها:

يعتبر «ابن العميد» بحق رائد هذه المدرسة الفنية الخالدة، التي كانت ولا زالت غرة في جبين النثر العربي، بطريقتها الفذة الجديدة التي سحرت ألباب الأدباء، وسيطرت على أقلام الكتاب.

كان ابن العميد «أول كاتب[1] احتكم إلى السجع في كتابه. كما احتكم إلى البديع، من جناس وطباق وتصوير» وكان نثره صلة وصل بين عهد السجع المتأنق وما سبقه من العهود، وعلى منواله نسج أعلام العصر.. مكن له في ذلك، سعة معارفه التي أحاطت بمختلف الآداب والعلوم فضلاً عن براعته في الرسم وفن الحيل «الميكانيكا» وكلها ترمي عن موهبة واحدة، يتجلى كل ذلك في رسالته إلى ابن بلكا بن ونداد، حينما استعصى على ركن الدولة، وهي من غرر كلامه كما يقول الثعالبي وواسطة عقده، بدأها بقوله:

«كتابي إليك، وأنا مترجح بين طمع فيك، ويأس منك، وإقبال عليك، وإعراض عنك، فإنك تُدل بسابق حرمة، وتمت بسالف خدمة، أيسرهما يوجب رعاية، ويقتضي محافظة وعناية، ثم تشفعهما بحادث غلول وخيانة، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية، وأدنى ذلك يحبط أعمالك، ويمحق كل ما يرعى لك.

لا جرم أني وقفت بين ميل إليك وميل عنك، أقدم رجلا لصدمك، وأؤخر أخرى عن قصدك، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك وأثني ثانية

---

(١) رسائل بديع الزمان/١٢٨

لاستبقائك واستصلاحك، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضناً بالنعمة عندك، ومنافسة في الصنيعة لديك، وتأميلاً لفيئتك وإنصرافك، ورجاء لمراجعتك وإنعطافك؛ فقد يعزب العقل ثم يؤوب، ونعرب اللب ثم يثوب، ويذهب الحزم ثم يعود، ويفسد العزم ثم يصلح، ويضاع الرأي ثم يستدرك، ويسكر المرء ثم يصحو، ويكدر الماء ثم يصفو، وكل ضيقة إلى رخاء، وكل غمرة فإلى إنجلاء. . .)[1].

ومنها. . «وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها، وإذا كنت كذلك فقد عرفت حاليها، وحلبت شطريها، فنشدتك الله لما صدفت عما سألتك، وكيف وجدت ما زلت عنه، وكيف تجد ما صرت إليه؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ونسيم عليل، وريح بليل، وهواء ندي، وماء روي، ومهاد وطي، وكن كنين، ومكان مكين وحصن حصين يقيك المتالف، ويؤمنك المخاوف، ويكنفك من نوائب الزمان ويحفظك من طوارىء الحدثان؟

عززت بعد الذلة، وكثرت بعد القلة، وارتفعت بعد الضعة، وأيسرت بعد العسر، وأثريت بعد المتربة، وأتسعت بعد الضيقة، وظفرت بالولايات وأخفقت فوقك الرايات، ووطىء عقبك الرجال، وتعلقت بك الآمال. . . »[2].

والقطعة كما ترى مليئة بالطباق والجناس عدا السجع الهادىء المطبوع أما الجناس ففي قوله: كن كنين، ومكان مكين، وحصن حصين، وإن كان جناساً ناقصاً. . وأما الطباق فيجلل الرسالة، كلها وتراه بادياً في قوله، بين: (طمع ويأس) و(إقبال وإعراض) و(ميل إليك وميل عنك) و(أقدم وأؤخر) و(أبسط وأثني) و(يعزب ويؤوب) و(يعزب ويثوب) و(يذهب ويعود) و(يفسد ويصلح) و(يضاع ويستدرك) و(يسكر ويصحو) و(يكدر ويصفو) و(ضيقة ورجاء) و(غمرة وإنجلاء) و(طرف ومتوسط) و(زلت عنه وصرت إليه) و(الأمن والخوف) و(العزة والذلة) و(الكثرة والقلة) و(الرفعة والضعة)، و(اليسر والعسر)و(الثراء والمتربة) و(الاتساع والضيق).

* * *

(١) اليتيمة ٣/١٦٣.

(٢) المرجع السابق /١٦٤.

لا غـرو أن يلقب بالـرئيس وبالجـاحظ الأخير[1]، ولا غـرو أيضاً أن يقـال. بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بأبن العميد[2].

أعلامها:

جذبت هذه الطريقة الجديدة ـ طـريقة ابن العميـد ـ أعلام العصر مـأخوذين بفنها، مفتونـين بسحرهـا، مشغوفـين بتقليدهـا، نخص بالـذكر منهم الصـاحب ابن عباد، والصابي، والثعالبي، والخوارزمي، وبديع الزمان.

* * *

وقع الصاحب بن عبـاد في رقعة لبعض العلويـين، وكان قـد كتب إليه يخبـره بأنه رزق مولوداً، ويسأله أن يسميه ويكنيه...

(أسعد الله بالفـارس الجديـد، والطالـع السعيد، فقـد ملأ والله العـين قرة، والنفس مسـرة مستقرة. والاسم «عـلي» ليعلى الله ذكـره، والكنيـة «أبـو الحسن» ليحسن الله أمره؛ فاني أرجو له فضـل جده، وسعـادة جده وقـد بعثت لتعويـذه دينـاراً من مائـة مثقال، قصـدت به مقصـد الفأل، رجـاء أن يعيش مائـة عام، ويخلص خلاص الذهب الابريز من نوب الأيام والسلام)[3].

ومما كتبه «الصابي عن الخليفة الطائع إلى رعية خرجت عن الطاعة».

(وتواترت إلى أمير المؤمنين أخبار أهمته، وأنبـاء أرمضته، من إجتمـاع طوائف من احـداثكم على أمـر خرجـوا فيه عن طـاعته، ونكثـوا بيعته؛ ممـا أظهروه من مشايعة من لم يجعـل أمير المؤمنـين له ولايـة عليكم، ولا سبيلاً إلى تقلد شيء من أموركم؛ بل هو مقيم من عنـاده، والعيث في بـلاده عـلى مـركب سيستـوعـره، ومشـرب سيستمره، وهـذه حال لا ينتـظم لكم معها نظام صـلاة ولا زكـاة) ثم يقـول: (ولو كنتم ـ والله يعصمكم ـ كفـاراً لأوجب أمير المؤمنـين على نفسـه أن

---

(١) الفن ومذاهبه/٩٢

(٢) يتيمة الدهر ١٥٥/٣، الوفيات ٥٧/٢ (م ـ ١٢).

(٣) يتيمة الدهر ١٩٤/٣.

يبدأكم في الدعاء إلى الحق بالقول الأحسن والطريق الألين، رجاء أن يعطف الله بكم إلى الهدى، ويشعركم شعار أهل الحجى، من حيث لا يُسفَك لكم دم، ولا ينتهك محرم، فأما وأنتم مسلمون مؤمنون، لكنكم مخطئون غالطون، فأحرى وأولى أن يصبر على عييكم لتنزعوا ويتأناكم لترجعوا، ويقيم في أنفسكم الحجة، ويردكم إلى سواء المحجة. لكن قد جعل الله لذلك حداً محدوداً، وأمداً معلوماً، ومتى قل انتفاع أمير المؤمنين منكم، وأطلتم عناءه فيه، ورآكم على المعصية مصرين، وللنقمة مشتجرين، فهل يجد بداً من تسريب العساكر إليكم، وإطلاق أعنتها عليكم، وهل يماز لها حينئذ بريئكم من سقيمكم، وبركم من أثيمكم؟

ألا ترون إلى قول الله: «واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة» وأي فتنة هي أعظم من طاعة الشيطان، ومعصية السلطان، والعيث في الدماء والديار، واتباع السفهاء الأغمار الذين يحملونكم على أشنع خطة، ويلجئونكم إلى أضيق ورطة؟ هيهات ما أضل ذلك من رأي، وأسوأه من إختيار وأبعده من سداد وصواب، وأخلقه بعائدة نكال ووبال!

وأمير المؤمنين يعذر وينذر، ويعظ ويزجر، ويخوف ويحذر، ويعيد ويكرر، إبقاءً عليكم، ورعاية للحق الذي يوجبه فيكم، فمن رجع القهقرى ونزع، وارعوى، فالتوبة تنفعه، والإنابة تنعشه والعفو يسعه، والحلم يغمره، ومن دام على لجاجه، وأصر على اعوجاجه، فجيوش أمير المؤمنين تطرقه؛ وعساكره ترهقه، والمعاصم تلفظه، والمعاقل تسلمه، والشقي من كان معه، والسعيد من بريء منه)[1].

ومما كتبه الثعالبي في صفة عبد الله الميكالي:

(. . . وأيم الله ما من يوم أسعفني فيه الزمان بمواجهة وجهه، وأسعدني بالاقتباس من نوره، والاغتراف من بحره، فشاهدت ثمار المجد والسؤدد تنتثر شمائله، ورأيت فضائل أفراد الدهر عيالاً على فضائله، وقرأت نسخة

(١) رسائل الصابي ص ١٩٨، ١٩٩

الكرم والفضل من ألحاظه، وانتهبت فرائد الفوائد من الفاظه، إلا تذكرت ما أنشدنيه ـ أدام الله تأييده لابن الرومي :

لولا عجائب صنع الله ما نبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب

وما أنس لا أنس أيامي عنده بفيروز أباد، سقاها الله ما يحكي أخلاق صاحبها؛ من سَبَل القطر؛ فإنها كانت بطلعته البدرية، وعشرته العطرية وآدابه العلوية، وألفاظه اللؤلؤية، مع جلائل أنعامه المذكورة، ودقائق إكرامه المشهورة، وفوائد مجالسه المعمورة، ومحاسن أقواله وأفعاله التي يعييها الواصفون، أنموذجات من الجنة التي وعد المتقون؛ فإذا تذكرتها في تلك المرابع، التي هي مرابع النواظر، والمصانع التي هي مطالع العيش الناضر، والبساتين التي إذا أخذت بدائع زخارفها، ونشرت طرائف مطارفها طوى لها الديباج الخسرواني، ونفى معها الوشي الصنعاني، فلم تشبه إلا بشيمه وآثار قلمه، وأزهار كلمه، تذكرت سحرا وسيماً، وخيراً عميماً، وارتياحاً مقيماً، وروحاً وريحاناً ونعيماً)[١].

وكتب الخوارزمي في مدح الفقر يقول:

وإنما يُكرَه الفقر لما فيه من الهوان، ويستحب الغناء[٢] لما فيه من الصوان[٣] فإذا نبغ[٤] الغم من تربة الغنى فالغنى هو الفقر، واليسر هو العسر، لا بل الفقر على هذه القضية أحسن من الغنى، وأقل منه أشغالاً، لأن الفقير خفيف الظهر من كل حق، منفك الرقبة من كل رق، فلا يستبطئه إخوانه، ولا يطمع فيه جيرانه، ولا تنتظر في الفطر صدقته، ولا في النحر أضحيته، ولا في شهر رمضان مائدته، ولا في الربيع باكورته ولا في الخريف فاكهته، ولا في وقت الغلة شعيره وبره، ولا في وقت الجباية خراجه وعشره.

---

(١) مقدمة فقه اللغة للكاتب.

(٢) الاستغناء

(٣) صوابها الصيان

(٤) ظهر

لا إنما هو مسجد يحمل إليه، ولا يحمل عنه، تتجنبه الشرط نهاراً، ويتوقاه العسس ليلا، فهو إما غانم وإما سالم.

وأما الغنى فإنما هو كالغنم، غنيمة لكل يد سالبة، وصيد لكل نفس طالبة، وطبق على شوارع النوائب، وعلم منصوب في مدرجة المطالب يطمع فيه الأخوان، ويأخذ منه السلطان، وينتظر فيه الحدثان، ويخيف ملكه النقصان.

وكتب «البديع» إلى الإمام الشيخ أبي الطيب يعزيه بقوله:

(تالله مايضرب الكلب، كما يضرب هذا القلب، ولا يقطر الشمع كما يقطر هذا الدمع، والنار أرفق بالزناد من هذه المصيبة بالأكباد، وما للسم سلطان هذا الغم، ولا للخمر طغيان هذا الأمر، ونفسي إلى القبر أعجل منها إلى الصبر، وأذناي بالموت آنس منهما بهذا الصوت، أو لم يكفنا الجرح حتى ذر عليه الملح، ألم أكن من أبي القاسم مثقل الظهر فما هذه العلاوة على الحمل؟ ولم هذه الزيادة على الثقل:

والحمد لله الذي كدّر وصفاً، وصلواته على نبيه المصطفى. وآله المجتبي ولولا أن يتطير الشيخ من مقدمي، فيقول لا يأتيني إلا عند مصيبة لسقيت تربة هذا النجم الآفل من دموعي، وقدمت أجداثه بضلوعي[1]، ولكنه ألقى في روعي أن خدمتي هذه طيرة، وأن تأخري عنها خيرة، فكلما استخفني إليه الجزع أقعدني عنه الفزع. ولو كان أحد من البرية فوق أن يذكر بالله، لكأنه الشيخ، أدام الله عزه، لما أوتي من تمام النفس، وكمال الفضل والمعرفة بأحوال الدهر والعض على ناجذ الحكم[2]، ولكن لفقد الكريم لوعة، ولفجأة المصيبة روعة، ليس لها إلا التدبير، والتذكير والتذكر، فأنا أذكر الله عز وجل الذي أنفذ في مشارق الأرض أمره، وأجرى بين اللحوم والجلود حكمه؛ وجعل أكثر هذا العافي دونه، وصان مع ذلك من الشوائب دينه، وأبقى له من

---

(١) أي جعلت ضلوعي أجداثاً ـ قبوراً ـ له

(٢) الناجذ: الناب

صالح الأولاد من يقر عينه، ومن طيب النسل ما يقوي ظهره ويغيظ عدوه، ولن ينسى الكثير من آلائه القليلُ من بلائه، والله يجعل هذه المصيبة خاتمة المصائب، ولا يريه في الأعزة سوءا أبداً) (١).

وإن نظرة عابرة في هذه الرسائل لترينا إلى أي حد كان شيوع السجع، وغلبته على الأساليب وإن تخلف أحيانا إذا استعصى، مخلياً مكانه لموسيقى الازدواج، ومن ثم كان سجعاً طبيعياً هادئاً تام الاستواء. . . ، كما ترينا أيضاً أنه كان قصير الفقرات، منوّع القوافي، سريع الانتقال من قافية إلى أخرى. وهذه كلها من سمات السجع البليغ.

أما المحسنات البديعية الأخرى فلم تبلغ مبلغة، بل كانت ـ في غير المقامات ـ معدودة الأنفاس غير أن «الطباق» ـ أو المقابلة ـ كان أكثرها اصطناعاً. تنطق بذلك رسالة ابن العميد السابقة ألا تراه ماثلاً بين الألفاظ (طمع ويأس ـ وإقبال وإعراض ـ وميل إليك وميل عنك ـ وأقدم وأؤخر ـ وأبسط يدا لاصطلامك وأثني ثانية لاستبقائك [مقابلة] ـ وغير ذلك مما سبقت الإشارة إليه(٢).

بهذه الفقرات المتعادلة، والأوزان المتلائمة، والفواصل المتوائمة ـ أشبهت الرسائل الشعر: بل هي شعر منثور، لا تعوزه سبحات الفكر، وجولات الخيال. . .

(١) الرسائل ص ٧٨، ٧٩ ط هندية واليتيمة حـ ٤/ ٢٨٦
(٢) ص ١٦٤.

(٥) مدرسة الألغاز والأحاجي

مدرسة فريدة في بابها، جديدة في منهاجها، اتضحت معالمها في القرن الخامس الهجري. . . أسسها ابو العلاء المعري، وأعلى بناءها الحريري. . .

على أنها في الواقع لم تنشأ من العدم؛ بل مهدت لها أمور وأسباب؛ فإن بعض الكتاب الذين أدركوا جمال السجع بعد جمال الازدواج، قد أدركوا أيضاً أن كثرة «القيود» في التعبير تزيد من جمال الأسلوب. . . فلم لا يكثرون؟ ولم لا يفتنون؟. . . غير أنهم أكثروا فألغزوا، وأتوا بالطريف المطرف تارة، وبالغريب المغرب أخرى. . حتى أصبحت الرسائل ضرباً من الألغاز والأحاجي كما سنرى.

رائدها:

كان أبو العلاء صاحب اللزوميات ـ أو لزوم ما لا يلزم ـ أول من اتجه إلى هذا اللون من التعقيد اللغوي والتلاعب بالألفاظ. وكأنما لم يكفه أن يصطنع ذلك في الشعر، فنقله أيضاً إلى النثر.

(ا) فإذا كان الكتاب في سجعهم يقنعون باتحاد الفواصل في الحرف الأخير فقط، فلم لا يلتزم ذلك في حرفين أو أكثر؟

(ب) وإذا كان السجع قد اضطرهم إلى اصطناع الغريب فلم لا يلغز بما هو أغرب؟ .

(جـ) ثم هو لم يقف في تعقيده عند هذا الحد، بل كان يلغز بالإشارات التاريخية التي قد تدق عن الأفهام، وكذا بالمصطلحات النحوية التي كان يقحمها في تشبيهاته ويستعين بخصائصها في بث خواطره وأفكاره.

* * *

فمن إلتزامه في السجع ما لا يلزم، قوله في تقريظ رسالة ابن القارح اليه. . . رد عليه يقول[1] . . .

(وقد وصلت الرسالة، بحرها بالحكم مسجور، ومن قرأها لا شك مأجور، إذ كانت تأمر بتقبل الشرع، وتعيب من ترك اصلا إلى فرع، وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة، وعجبت من إتساق عقودها الفاخرة، ومثلها شفع ونفع، وقرب عند الله ورفع، وألفيتها مفتتحة بتمجيد، صدر من بليغ مجيد، وفي قدرة ربنا جلت عظمته أن يجعل كل حرف منها شبح نور، لا يمتزج بمقال الزور، يستغفر لمن أنشأها إلى يوم الدين، ويذكره ذكر محب خدين، ولعله سبحانه وتعالى قد نصب لسطورها المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب، تعرج بها الملائكة من الأرض الراكدة إلى السماء؛ وتكشف سجوف الظلماء، بدليل الآية: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه﴾.

وهكذا ترى أبا العلاء قد التزم السجع «المقيد» تارة بحرفين كقوله (ومثلها شفع ونفع، وقرب عند الله ورفع) وتارة بحرفين بينهما حرف مد كقوله (وصلت الرسالة التي بحرها بالحكم مسجور، ومن قرأها لا شك مأجور).

وتارة بثلاثة أحرف كقوله: (وغرقت في أمواج بدعها الزاخرة، وعجبت من إتساق عقودها الفاخرة). . ومن ثم كان سجعه في الغالب ضرباً من الجناس الناقص.

على أنه في مواطن أخرى يلتزم بأكثر من هذا، كما في حديثه عن «حبيب» ابن أوس الطائي في رسالة الغفران. . استمع إليه يقول: (وأما ابو تمام. فما أمسك من الدين بزمام، والحكاية عن ابن رجاء مشهورة، والمهجة بعيها مبهورة، فإن قذف في النار «حبيب»، فما تغني المدح ولا التشبيب، ولو أن القصائد لها علم، وتأسف لما يشكو الحلم، لأقامت عليه المدوتان اللتان في أول ديوانه مأتماً، فناحتا عليه كابنتي لبيد، وجرعتاهما من الثكل نظير الهبيد، وقالتا ما زعمه الكلابي في قوله:

---

(١) رسالة الغفران (ط ١) أمين هندية ١٩٠٣ ص ٧، ٨.

وقولا (هو الميت الذي لا حريمه أضاع: ولا خان الصديق ولا غدر
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر)

وكأني بهما لو قضى - ذلك - لاجتمعت إليهما الممدودات، كما تجتمع نساء معدودات فيجئن من كل أدب، ويتواعدن المحفل على نوب. ولولا ذلك لبارتهن البائيات بمأتم أعظم رنينا، وأشد في الحندس حنيناً كما قال العنقي.

يجاوبن الكلاب بكل فجر فقد ضحلت من النوح الحلوق

وإذا كان مأتم الممدودات في مائة ممن يسعدهن ويظاهر، وجب أن يكون مأتم البائيات في آلاف تعلن وتجاهر، لأن الباء طريق ركوب، والمد في القصائد سبيل منكوب، وما نظمه في التاء لا يعجز عن الإيتاء. . .)[1].

فبين كلمتي «مشهورة ومبهورة» سجع مقيد بثلاثة أحرف مع حرف محدود. . .

وبين كلمتي «ممدودات. ومعدودات» سجع مقيد بثلاثة مع حرفين ممدودين ومن عجب أن أبا العلاء نفسه يفخر بذلك ويتحدى به «بني عصره» ألا تراه يقول[2]:

(قد كان فيمن مضى قوم جعلوا الرسائل كالوسائل، وتزينوا بالسجع تزين المحول بالرجع، ما رقوا في درجته، ولا وضعوا قدماً على محجته، ولكنهم تعاينوا فما تباينوا، وتناضلوا فما تفاضلوا، ولو طمعوا في الوصول إلى مثل هذه الفصول لاختاروا الرتب[3] على الرتب، ورضوا إعتساف السبيل، وإرتعاء الوبيل. . .)[4].

أما إلغازه بالمصطلحات اللغوية فيتجلى في رسالته تلك:

---

(١) رسالة الغفران (ط هندية) ص ١٦٤، ١٦٥

(٢) وهذا القول نفسه مسجوع على طريقه «لزوم ما لا يلزم».

(٣) الرتب: الشدة

(٤) رسائل أبي العلاء ص ٦.

«حرس الله سيدنا حتى تدغم الطاء في إلهاء؛ فتلك حراسة بغير انتهاء، وذلك أن هذين ضدان، وعلى التضاد متباعدان؛ رخو وشديد، وهاو وذو تصعيد، وهما في الجهر والهمس بمنزلة غد وأمس. ، وجعل الله رتبته التي كالفاعل والمبتدأ، نظير الفعل فإنها لا تنخفض أبداً؛ فقد جعلني إن حضرت عرف شأني، وإن غبت لا يجهل مكاني؛ كيا في النداء، والمحذوف من الابتداء، إذا قلت: زيد أقبل، والأبل الأبل، بعدما كنت كهاء الوقف إن ألقيت فبواجب، وإن ذكرت فغير لازب.

إني وإن غدوت في زمن كثير الدد كهاء العدد، لزمت المذكر، فأتت بالمنكر، مع إلف يراني في الأصل كألف الوصل، يذكرني لمغير الثناء، ويطرحني عند الاستغناء، وأخفف عن سيدنا الرئيس الحبر تخفيف المدني ما قدر عليه من النبر. إن كاتبت فلا ملتمس جواب، وإن أسهبت في الشكر فلا طالب ثواب. حسبي ما لدي من أياديه، وما غمر من فضل السيد الأكبر أبيه. أدام الله لهما القدرة ما دام الضرب الأول من الطويل صحيحاً، والمنسرح خفيفاً سريحاً، وقبض الله يمين عدوهما عن كل مغن[1] قبض العروض من أول وزن»[2].

وفي التعليق على هذه الرسالة يقول الدكتور شوقي ضيف.

(إن الانسان ليذهل حين يقرأ هذه الصورة من الصياغة عند أبي العلاء، كأنما ضاقت جميع صور التعبير عن أن تؤدي المعاني التي تجول في نفسه، هو يبحث عنها في طوايا علوم النحو والتجويد والقراءات والعروض على هذا النمط من التعقيد الجديد الذي يضيفه أبو العلاء إلى آثاره، وينشره في جميع أطرافها نثراً. وقد كنا نفهمه - إلى حد ما - أن يتصنع ابو العلاء في أعماله للفظ الغريب، فاللفظ الغريب يدخل على كل حال في نطاق التعبير الأدبي، أما الآن فقد خرج عن هذا النطاق إلى نطاق جديد، لا جمال فيه ولا فن إلا إذا كنا من ذوق ابي العلاء، وكنا نريد أن نتعب الناس في فهم ما نقول، ولن نتعبهم

(١) مغن: معروف
(٢) رسائل أبي العلاء ص ١٤

هـذه المرة عن طـريق كثـرة رجـوعهم إلى المعـاجم اللغـويـة؛ بـل سنتعبهم عن طـريق رجوعهم إلى «المصـطلحات» الخـاصة بـالعلوم العـربيـة كي يفهمـوا مـا يقرأون. وما للقـراء وهذا العنـاء كله؟ إنهم يريـدون أن يصلوا إلى المعـاني التي يقرأونها في صورة سريعة أو على الأقل لا تبعـد بهم كل هـذا البعد، ولا تغـرب بهم كـل هذا الإغـراب، ولكن أبا العـلاء لا يفكر في شيء من ذلـك كله. فقد جـاء في مرحلة جـديدة من مـراحـل النـثر العـربي، وهي مـرحلة كـانت تفتـرق إفتـراقاً شـديداً مما سبقها من مـراحل، إذ كـان أصحابهـا ما يـزالـون يصعبـون نثـرهم ضروبـاً من التصعيب، وقد ذهب أبـو العـلاء في آثـاره يعـرض عليهم بعض مـا استطاع أن يصـل إليه من هـذه الضروب كي يـظفر بتفـوقـه عليهم، واستعـلاء آثاره عـلى آثارهم، وإنـه ليهدف إلى ذلـك عن طريق الغفظ الغـريب من جهة، وحشد المصطلحات العلمية من جهة أخرى)[1].

وكـما كـان يلغـز بـالمصـطلحـات اللغـويـة كـان أيضـاً يلغـز بـالإشـارات التاريخية . . . ، وكما كان يتكلف السجع المقيد أيضـاً يتكلف الجناس بـالغريب، نلمح كل هذا في قوله عن الأصنام، ود، نسر، سواع. يغوث، يعوق: -

(من عبـد وَدّا لم يجد عنـد الله وُدّا، والدسر[2] لمعـظم نسر، وصاحب سـواع ليس بواع، ما أغـاثهم يغوث، بـل عوق خيـرهم يعوق، وأذلت العـزى - وهي ذليلة- من جعلها من الطاغوت، ولاتت[3] القوم اللات).

فقـد جانس بـين (ودا، و ودا) و(الدسر، ونسر) و(سوارع، وبواع) و(أغـاث ويغوث) و(عوق ويعوق) و(لات واللات)[4].

هـذه بعض ألوان التعقيـدات والألغاز التي كـان يصطنعهـا ويوغـل فيها أبـو العلاء، مكّن له في ذلك سعة معارفه، وحدة ذكائـه وقوة حـافظتـه، ويكفي أنه من يحفظ المحكم والمخصص لأبن سيـدة كـما يقـول العيـدروسي[5] ثم هــذا

(١) ص ١٣٣ الفن ومذاهبه
(٢) الدسر = الهلاك
(٣) لات: نقص الحق
(٤) الفصول والغايات ١٤٨/١
(٥) النور السافر للعيدروسي طبع بغداد ص ٤٤١.

الفراغ الطويل الذي أحاط به في عزلته خمسين عاماً. مع تلاميذه حيناً، ومنفرداً بنفسه حيناً آخر، فقد إتخذ من هذا الاتجاه وسيلة للتسلية وإزجاء الفراغ والرياضة العقلية.

وبموته إنحدرت هذه الموجة العالية، ولكنها لم تذهب أدراج الرياح، بل انحسرت عن أتباعه المسرفين حيناً، المعتدلين أحياناً.

نخص بالذكر منهم الحريري والحصكفي.

الحريري.

ترسم الحريري خطى أبي العلاء، في إلغازه وتعقيده، ولعله كان أخلص تلميذ لطريقته متى حاولها، بل ربما بذ أستاذه في ذلك، مما جعل الشريشي شارح مقاماته ـ يضيق ذرعاً بهذه التعمية، تارة بغريب اللغة، وشوارد الأمثال ومصطلحات النحو والفقه، وتارة بالكنايات البعيدة، وتارة أخرى بتلاعبه بالألفاظ إلى حد الإغاز، وقد لا تخلو من طرافة ولكنها خرجت بالفن عن دائراته يتجلى ذلك فيما يلي.

(أ) في مقامته «الرقطاء» رسالة بناها على المراوحة بين الإعجام والإهمال حرفاً حرفاً، ومنها:

«أخلاق سيدنا تحب، وبعقوته يلب[1]، وقربه تحف، ونأيه تلف، وخلته نسب، وقطيعته نصب، وغربه ذلق، وشهبه تأتلق، وظلفه زان، وقويم نهجه بان، وذهنه قلب وحرب، ونعته شرق وغرب... مناظم شرفه تأتلف، وشؤبوب حبائه يكف، ونائل يديه فاض، وشح قلبه غاض، وخلف سخائه يحتلب، وذهب عيابه يحترب. من لف لفه فلح وغلب، وناجر بابه جلب وخلب........

مخلف متلف أغر فريد نابه فاضل ذكي أنوف
مفلق إن أبان، طب إذا نا ب هياج وجل خطب مخوف

---

(١) بعقوته يلب: أي بفنائه يقام

(ب) وفي مقامته المراغية[1] رسالة بناها كذلك على المراوحة بينهما كلمة كلمة ومنها.

«الكرم - ثبت الله جيش سعودك - يزين، واللؤم - غض الدهر جفن حسودك - يشين. والأروع[2] يثيب، والمعور[3] يخيب، والحلاحل[4] يضيف، والمحال[5] يخيف، والسمح يغذى، والمحك[6] يقذى، والعطاء ينجي، والمطال يشجي، والدعاء يقي، والمدح ينعي، والحر يجزي، الإلطاط[7] يخزي، وإطراح ذي حرمة غي، ومحرمة بني الآمال بغي، وما ضن إلا غبين[8] ولا غبن إلا ضنيين. . . . .).

(حـ) ونراه في إحدى رسائله يلتزم حرف السين فيقول:

(باسم القدوس استفتح، وبإسعاده استنجح. سجية سيدنا سيف السلطان السيد النفيس سيد الرؤساء، حرست نفسه، واستنارت شمسه، ويسق غرسه، واتسق أنسه استمالة الجليس، ومساهمة الأنيس، ومواساة السحيق النسيب، ومساعدة الكسير والسليب تستدعي استدامة السن، والاستحفاظ بالرسم الحسن، وسمعت بالأمس تدارس الألسن، سلاسة خندريسه، وسلسال كؤوسه، ومحاسن مجلس مسرته، وإحسان مسمعة ستارته، فاستسلفت الاستدعاء، وتوسمت الإسراء، وسوفت نفسي بالاحتساء ومؤانسة الجلساء. . .)[9].

(د) وفي غيرها يلتزم حرف الشين في كل كلمة. . كتب إلى أبي طلحة بن

---

(١) نسبة إلى المراغة، موضع بأذربيجان
(٢) الأروع: الماجد الجميل الذي يروعك جماله
(٣) المعور = القبيح الفعل
(٤) الحلاحل = السيد الرزين
(٥) المحال: الواشي الماكر.
(٦) المحك = البخيل اللجوج
(٧) الإلطاط: الجحود
(٨) الغبين: ضعيف الرأي
(٩) معجم الأدباء ١٦/ ٢٧٧

محمد النعماني الشاعر يشكره حينما قصده في البصرة مادحاً.

(شغفي بالشيخ شمس الشعراء ريش معاشه، وفشا رياشه، وأشرق شهابه، وأعشوشبت شعابه، يشاكل شغف المنتشي بالنشوة، والمرتشي بالرشوة والشادن بشرخ الشباب، والعطشان بشم الشراب، وشكري لتجشمه، ومشقته وشواهد شفقته، يشابه شكر الناشد للمنشد والمسترشد للمرشد، والمستبشر للمبشر، والمستجيش للجيش المشمر، وشعاري إنشاد شعره، وإشجاء المكاشر والكاشح بنشره، وشغلي إشاعة وشائعه، وتشييد شوافعه، والاشارة بشذوره وشفوفه، والمشورة بتشييعه وتشريفه، وأشهد شهادة تشده المقشر المكاشف، والمشنع الكاشف. لإنشائه ومشاهدته تدهش الشائب والناشي، وتلاشي شعر الناشي[1]، ولمشافهته تباشير الرشد واستشيار الشهد...

فأشعاره مشهورة ومشاعره	وعشرته مشكورة وعشائره
شأي الشعراء المشمعلين شعره	فشانيه مشجو الحشا ومشاعره
وشوه ترقيش المرقش رقشه	فأشياعه يشكونه ومعاشره

(هـ) وفي المقامة القطيعية (نسبة إلى قطيعة الربيع - إحدى محال بغداد) عقد أسلوبه بمسائل ملغزة في النحو كقوله:

(فأما أذا دعوتم إلى نزال، وتلببتم للنضال. فما كلمة هي إن شئتم حرف محبوب، أو اسم لما فيه حرف حلوب؛ ... وأية هاء إذا التقحت أماطت الثقل وأطلقت المعتقل؟ وأين تدخل السين فتعزل العامل من غير أن يجامل؟ وما منصوب أبداً على الظرف لا يخفضه سوى حرف؟ ... وما العامل الذي يتصل آخره بأوله، ويعمل معكوسه مثل عمله؟ ...)

فقد أراد بالكلمة الأولى لفظ «نعم» فهو حرف جواب محبوب، ثم هو أيضاً يطلق على الأبل، وفيها الحرف المجلوب أي الناقة...

---

(١) الناشيء الأول بمعنى الصغير، والثانية اسم شاعر عباسي يسمى الناشيء الأصغر.

أما الهاء التي إذا التحقت أماطت الثقل وأطلقت المعتقل فهي الهاء اللاحقة للمجموع مثل صياقلة وصيارفة. . . أليست الكلمة بدونها ممنوعة من الصرف فهي ثقيلة وبها تصرف[1].

وأما السين التي تعزل العامل من غير أن تجامل فهي السين الداخلة على المضارع، وتفصل بينه وبين أن التي كانت قبلها ناصبة وأصبحت مخففة من الثقيلة فارتفع الفعل.

وأراد بالمنصوب على الظرف كلمة «عند» فهي لا تجر إلا بمن. كما أراد بالعامل الذي يعمل معكوسه عمله، حرف «يا» ومعكوسها «أي» وكلاهما للنداء.

(و) وفي المقامة المغربية (نسبة إلى بلاد المغرب) يطالعنا بلون جديد من الإلغاز حيث يأتي بالجملة التي تقرأ طرداً وعكساً كقوله:

(لم أخاً مل) و(كبر رجاء اجرربك) و(لذ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل).

* * *

هذه أنماط مختلفة من تعقيدات الحريري التي كان يلغز بها أحيانا في رسائله ومقاماته إظهاراً لعبقريته وإرضاء لأذواق العصر التي أخذت هي الأخرى في التعقيد ولعل هذا هو سر إعجابهم بالحريري حتى طبقت شهرته الآفاق.

على أنه إذا ترك هذا وأطلق نفسه على سجيتها، تجلت موهبته الفنية التي تسجل له ذكراً نابهاً في الأدب، مما حدا بالعماد الأصفهاني أن يقول إن (وشي بلاغة الحريري ذهبي الطراز، سحباني الإعجاز، قُسِّي الإسهاب والإيجاز. . . كلامه يتيمة البحر، وتميمة النحر)[2].

---

(١) معجم الأدباء ١٦/٢٧٨، والخريدة: جـ ١ ورقة ١٨٦.
(٢) الخريدة/١ ورقة ١٨٣

الحصكفي: [1]

لم يصلنا من نثره إلا القليل، وعلى قلته يشير إلى ما كان لأديب الموصل من طول الباع في هذا الباب... قلد السابقين فأحكم التقليد، وأنفرْد بميله إلى الجناس بأشكاله وألوانه فابتكر فيه وافتن حتى بذ السابقين والمعاصرين خضعت له الألفاظ، فتلاعب بها إلى أبعد مدى وتجلى ذلك في طرائفه الملغزة كما في قوله:

(النفس بعقود التذرع حالية، ولعقود التعذر حايلة ومن الودايع المعجزة مالية، وإلى الدواعي المزعجة مايلة، وفي بحار الحمد راسية، وإلى رحاب المدح سارية؛ تجمح إلى مواصلة القمر، وتحجم عن مصاولة القرم، لتكف بأظفار الأمل، وتفك من أظفار الألم. فهل كامل يعني ومالك يعين، ومقتصد يدني، ومتصدق يدين. فالرغبة إلى الشهب من الغربة في الشبه رغبة من قصد بالإلهام مواقع السحاب الهام، وورد شريعة الافهام بظما الابهام.

بمثل هذا التجنس المعكوس كان يلغز في رسائله... فقلما أتت كلمة في فقرة إلا رأيتها مقلوبة في الفقرة التالية بمعنى جديد، على نفس الوزن والترتيب وهذا هو «الترصيع البديع، والتجنيس النفيس» الذي قصده وأشار إليه العماد في خريدته[2].

ومن يرجع إلى رسائله المودعة بدار الكتب ير إلى أي حد كان يتأثر الحريري. فمن رسائله ما بني على حرف السين[3] أو راوح بين إعجام الحروف وإهمالها[4] على نسق الحريري.

---

(١) أديب الموصل الخطيب البليغ والكاتب الأريب «يحيى بن سلامة» لقن اللغة والأدب عن الخطيب التبريزي تلميذ أبي العلاء ـ عمر نيّفاً وتسعين سنة وتوفي سنة ٥٥١. له مخطوطة بدار الكتب المصرية أحاطت بشيء من نثره وشعره تشير إلى صلته الوثيقة بأسلوب المعري.

(٢) الخريدة ورقة ٢٢٣ (القسم الثاني)

(٣) رسائل الحصكفي ورقة ٦٥

(٤) رسائل الحصكفي ورقة ٧٢ (م ـ ١٣)

والحق أنه كان بارعاً في الاشتقاق الذي مكن له في هذا الباب. . ألا تراه في رسالة أخرى يقول: (فآنس أحولا تهول، وأهوالا تحول، وأوجالاً تصول، واصوالاً تجول وما أقرب هذا من قولهم (كلام الأمير أمير الكلام). ولا يخفى ما فيه من تكلف وتصنّع.

يعقوب بن عطاء:

أحد أدباء «غزنة» الأعلام الذين جمعوا بين الشعر والنثر. أشار ياقوت إلى شهرته التي انتقلت من غزنة إلى العراق ومنها إلى سائر الآفاق، وإلى مقدرته في النظم باللغتين: الفارسية والعربية. ، كما أشاد ببلاغته فقال: (وما من كلمة من كلماته إلا وحقها أن تملك بالأنفس وتقتني، وتباع بالأنفس وتشترى[1]). ثم شفع قوله هذا بصدر من إحدى رسائله، ومنها يتضح أنه كان يقتفي أثر أبي العلاء في اصطناعه مصطلحات النحو والصرف في نثره ومنها:

(أطال الله بقاء الشيخ في عز مرفوع كاسم كان وأخواتها إلى فلك الأفلاك، منصوب كاسم إن وذواتها إلى سمك السماك، موصوف بصفة النماء، موصول بصلة البقاء، مقصور على قضية المراد، ممدود إلى يوم التناد، معروف به، مضاف إليه، مفعول له. موقوف عليه صحيح سالم من حروف العلة، غير معتل ولا مهموز همزة المذلة، يثنى ويجمع دائماً جمع السلامة والكثرة، لا جمع التكسير والقلة، ساكن لا تغيره يد الحركة، مبني على اليمن والبركة مضاعف مكرر على تناوب الأحوال، وزائد غير ناقص على تعاقب الأحوال، مبتدأ به خبره الزيادة، فاعل مفعوله الكرامة، مستقبله خير من ماضيه حالاً، وغده أكثر من يومه وأمسه حلالا، له الاسم المتمكن من إعراب الأماني، والفعل المضارع للسيف اليماني[2]).

في هذه الرسالة نرى ابن عطاء قد استغل خصائص المصطلحات النحوية ـ حيناً ـ فشبه بها شيخه كقوله:

١ ـ في عز مرفوع اسم كاسم كان وأخواتها إلى فلك الأفلاك.

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٧٢/١٢

(٢) المرجع السابق.

٢ـ منصوب كاسم إن وذواتها إلى سمك السماك.

وحيناً آخر نراه يعود بهذه المصطلحات إلى سابق مدلولها اللغوي كقوله.

١ـ موصوف بصفة النماء.

٢ـ موصول بصلة البقاء.

٣ـ مقصور على... ممدود إلى... إلخ.

وسر بلاغة هذا الأسلوب، في هذا «التوجيه» الجديد لهذه المصطلحات، وما أشبه هذا بما كان يصطنعه «ابن جابر الأندلسي» في شعره كقوله:

قالت وقد حاولتُ نيلَ وصالها: من غير شيء لا تجوز المسألهْ
بالله قل لي: أين نحوك يا فتى؟ أرأيت موصولا يجيء بلا صلهْ[1]؟

ابن قم الزبيدي:

من أدباء اليمن البارزين في القرن السادس الهجري، ومن رسائله التي نهج فيها نهج أبي العلاء، وألغز فيها كذلك بالنحو، تلك الرسالة التي رواها الحافظ السلفي، وأشار إليها ياقوت في معجمه، وفيها يقول:

(مولاي ربيع المجدبين، وقريع المتأدبين، جلوة الملتبس، وجذوة المقتبس، شهاب المجد الثاقب، ونقيب ذي الرشد والمناقب، أطال الله بقاءه، وأدام علوه وارتقاءه، ما قدمت العارية للمستعير، ولزمت الياء للتصغير، وجعل رتبته عالية المقام، كحرف الاستفهام، وكالمبتدأ إن تأخر في البنية، فإنه مقدم في النية، ولا زالت حضرته من الحادثات حمى، وللوفود مزدحماً وملتزماً، حتى يكون في العلا بمنزلة حرف الاستعلا، وهو من حروف اللين في حصون، وما جاوراها من الأمالة مصون، ولا زال عدوه كالألف حالها يختلف، تسقط في صلة الكلام ولا سيما مع اللام، فإنها ـ أدام الله علوها ـ أحسن إلى ابتداء، ونشر على من فضله رداء، أراد أن يخفي. وكيف يخفي؟ لإن من شرف

---

(١) معاهد التنصيص جـ ٢/١٦٩

الإحسان، سقوط ذكره عن اللسان، كالمفعول رُفِع رفع الفاعل الكامل، لما حذف من الكلام ذكر الفاعل)[1].

* * *

ومما تقدم نرى أن «أبا العلاء» ـ الذي ألغز في نثره كما ألغز في شعره ـ قد طرق هذا الباب بقوة ولأول مرة، فولجه الكثيرون، معاصرين ولاحقين. أولئك الذين فتنوا بطريقته فراحوا يقلدونها ثم زادوا عليها ما وسعتهم الزيادة من ضروب الحيل والافتنان.

من اجل هذا تعقدت الأساليب، وخرجت عن المألوف، وخلت من عناصر الحيوية، والروح الأدبية التي تثير العاطفة وتحرك الوجدان فأصبحت ألغازاً مبهمة، تخاطب العقل أكثر مما تخاطب القلب، وتناقش الفكر أكثر مما تناقش العاطفة.

ولئن فتن بها الكثيرون فما ذلك عن سر أدبي وإنما عن سر رياضي وما أحوج الفكر الغواص إلى مثل هذه «الرياضة» الذهنية التي تسمح له بأن ينطلق في ميدان فسيح باحثاً منقباً عن «الحقيقة» فإن ظفر بها بعد طول البحث، وكثرة العناء، عاد منتشياً بفرحة النصر... وهذا سر المتعة في مثل هذه الرسائل الملغزة...

ومن أجل هذا أيضاً ظلت هذه الموجة جارفة طرَّادة عبر القرون، حتى كان لها في العصر الحديث بعض الظلال والأذيال، ولكنها تقلصت ثم تلاشت أمام موجة التجديد بأسلوبها الجديد...

---

(١) معجم الأدباء ١٠ / ١٣٠

(٦) مدرسة الصناعة اللفظية

تمخضت المدرستان السابقتان ـ مدرسة ابن العميد المسجعة، ومدرسة أبي العلاء الملغزةـ عن هذه المدرسة الجديدة التي كانت تستمد مقوماتهاـ إلى حد ما من هذه وتلك، والتي أخذت مخايلها تتضح شيئاً فشيئاً منذ بداية القرن السادس الهجري.

طابعها:

أوغلت هذه المدرسة في الزخرف اللفظي، وبخاصة التورية والجناس، ومن ثم ظهرت أساليبها المسجوعة موشاة أيضاً بألوان البديع الأخرى من طباق ومقابلة وتلميح وتوجيه فضلاً عن ترصيعها بآيات القرآن، وغرر الأقوال ومحكم الأمثال. وفرائد الشعر المنثور. وهكذا كانت هذه المدرسة معرضاً حافلاً بمختلف الأساليب اللفظية البراقة.

رائدها:

يعتبر القاضي الفاضل ـ بطريقته الفنية الخاصةـ رائد هذه المدرسة، وإن لم يكن أول من طرق بابها ودق أطنابها، فقد تأصلت أساليبهاـ على يديه، واستقامت طريقتها على طريقته وأخيرا عرف أسلوبها «**بالطريقة الفاضلية**».

كتب القاضي الفاضل إلى الخليفة الناصر ببغداد على لسان صلاح الدين يخبره بفتح القدس سنة ٥٨٣.

(وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شفقاً، وطارت فرقه فرقاً، وفل سيفه فصار عصاً، وصدعت حصاته وكان الأكثر عدداً وحصى، فكلت حملاته، وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان، وعثرت قدمه وكانت الأرض لها حليفة، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة، ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت

شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون.

فبيوت الشرك مهدومة، ونيوب الكفر مهتومة، وطوائفه المحامية مجتمعة على تسليم البلاد الحامية، وشجعانه المتوافية، مذعنة ببذل المطامع الوافية، لا يرون في ماء الحديد لهم عصرة، ولا في فناء الأفنية لهم نصرة، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة، وبدل الله مكان السيئة الحسنة، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشأمة إلى أيدي أصحاب الميمنة.

ولم يبق إلا القدس، وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعتهم وأن كنيستها إلى الله شافعتهم..)[1].

أرأيت إلى هذه الرسالة المسجوعة التي أحاطت بألوان مختلفة من البيان والبديع. نذكر بعضها على سبيل المثال خشية الإملال.

(أ) البيان المجازي: في قوله: كلت حملاته.. الأرض لها حليفة. عيون السيوف كسيفه... نام جفن سيفه.. نطف الكرى.. جدعت أنوف رماحه.

(ب) الكناية: في قوله: (صدعت حصاته) كناية عن الهزيمة، وكذلك (فل سيفه) (عثرت قدمه)، واليد بمعنى القدرة. و(أصحاب المشأمة) كناية عن الكفار، (أصحاب الميمنة) كناية عن المسلمين.

(جـ) الطباق بين قوله: (السيف والعصا)، (اليقظة والكرى)؛ (المنى والمنون)، (السيئة والحسنة)، (المشأمة والميمنة)، (قريب وبعيد).

(د) الجناس: بين قوله (فرقه، وفرقاً)، (حصاته، وحصى)، (العنان والعيان)، (جفن السيف، والجفون)، (مهدومة ومهتومة)، و(المحامية، والحامية)، (المتوافية والوافية)، (عصرة، ونصرة).

(هـ) الاقتباس والأخذ من القرآن: فالأول كقوله (ضربت عليهم الذلة

---

(١) صبح الأعشى جـ ٤٩٦/٦ وما بعدها

والمسكنة) وقوله (أصحاب المشأمة) و(أصحاب الميمنة). . والثاني كقوله (بدل الله مكان السيئة الحسنة) مأخوذ في قوله تعالى (يبدل الله سيئاتهم حسنات) وقوله (وظنوا أنها مانعتهم) مأخوذ من قوله تعالى ﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم﴾.

أما «التورية» فلعله كان أول من اصطنعها من الكتاب، وإن جاءت في نثره بقدر ومن ذلك قوله:

«في يوم شديد المطر والبرد، والخادم في رأس جبل يتلقى الرحمة غضة قبل أن يبتذلها الناس، ويصافح الرياح قبل أن تتقاسمها الأنفاس، ويتلقى الرعد بالرعدة، وإذا السماء انشقت استصحاها الملوك بالسجدة» إذ المراد استصحوها بالسجود لله لا بقراءة سورة السجدة التي هي أقرب المعنيين لاقترانها بقوله ﴿إذا السماء انشقت﴾[1].

من أجل هذا أطراه النويري[2] بمثل أسلوبه فقال: إن كل فاضل بعد «الفاضل» فضلة.

أعلامها:

جذبت هذه الطريقة الفاضلية نحوها أعلام العصر في كل مصر، وصار لها أنصار في شتى البقاع، شرقاً وغرباً، نخص بالذكر منهم: ابن الشخباء العسقلاني وابن الأثير، والعماد الأصفهاني، وابن الصيرفي والقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر.

ابن الشخباء العسقلاني[3]:

---

(١) خزانة الأدب ٢٤٣

(٢) نهاية الأرب ٦/٨

(٣) الحسن بن عبد الصمد بن الشخباء العسقلاني المتوفى سنة ٤٨٢ من شيوخ الكتاب في العصر الفاطمي ترجم له ياقوت (جـ ١٥٢/٩) فأشار إلى أنه يلقب بذي الفضيلتين (النثر والشعر)، وأن له رسائل مدونة مشهورة قيل إن القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني منها إستمد وبها اعتد، كتب في ديوان الرسائل للمستنصر صاحب مصر كما ترجم له بمثل ذلك ابن خلكان ١٣٣/١ وابن بسام ورقة ١٨٣ مخطوطة مصورة بمكتبة الجامعة.

ومن رسائله المتكلفة رسالة بعث بها إلى صارم الدولة بن معروف[٢].

(. . . جاءته مناقب الحضرة العلية، فتم بها مناقب تميم، وحكم لآل القعقاع أمر حكيم، ونصر لواء بني نصر، وأبدرت أهلة بني بدر، ونبه منبه هوازن، وظهرت مزينة ومازن، وضحك لعبس عابس الدهر، وراحت الكملة كاملة الفخر، وزادت مغايظ الأزد، وقشرت قشيرا عن بلوغ المجد، وأغمدت سيوف بني غامد، وصارت همدان كالجمر الهامد، ومذحج كالعنس مذلة، وحمير بالراية الحمراء متظللة، وطوت طيء عملها استخذاء، وغضت جفنة جفونها استحياء، فحرس الله محاسن الحضرة السلفية السامية، التي جباه الأنام بها موسومة، وتمم نعمها التي هي بينها وبين الناس مقسومة).

وإن نظرة عابرة إلى هذه الرسالة لترينا مدى احتيال ابن الشخباء للتجنيس بأسماء القبائل العربية وتكلفه في ذلك. . . ألم ينشأ في ظلال مدرسة «الألغاز»؟

غير أن هذا اللون في نثره خفيف الحدة، قليل القدر، وأغلب المأثور عنه بريء من هذه القيود. . استمع إلى رسالته التي أجاب بها أبا الفرج الموفقي:

«وصلت رقعة مولاي، والصبح قد سل على الأفق مقبضة، وأزال بأنوار الغزالة غيهبه؛ فكانت بشهادة الله صبح الآداب ونهارها، وثمار البلاغة وأزهارها، قد توشحت بضروب من الفضل تقصر قاسية المدى، وتجري به في مضمار الأدب مفردا. . .)[١].

ثم استمع إليه أيضاً في الرسالة التي كتبها بمناسبة اندحار الثائر ابن أوق الغزي الذي خرج بالشام سنة ٤٦٩، وفيها يصف عز الدولة ومجدها.

(قد ارتفع الخلاف بين الكافة أن الله ذخر للدولة الفاطمية- ثبت الله أركانها- من الحضرة العلية المنصورة الجيوشية- خلد الله سلطانها- من حمى سوادها، ونصر أعلامها، وضم نشرها، وحفظ سريرها ومنبرها. بعد أن كان الأعداء- الذين ارتضعوا دَرَّ إنعامها، وتوسموا بشرف أيامها، فطردت يد

---

(٢) معجم الأدباء ١٥٧/٩

الاصطناع إملاقهم، واثقلت قلائد الإحسان أعناقهم ـ خفروا ذمم الولاء، وكفروا سوابغ الآلاء، ففجأتهم الحوادث من كل طريق، ونعب بهم غراب التشتيت والتفريق، واستباحتهم الشدائد، وأتى الله بنيانهم من القواعد، ولم تزل النفوس منذ طرق «أتسز» اللعين هذه البلاد، وأنجم ميها أنجم الفساد، وتعدى حدود الله وكلماته، وتعرض لمساخطه ونقماته، عالمة بأن إملاء الحضرة العلية ـ مد الله ظلها على الكافة ـ لم يكن عن إستعمال رخصة في هذه الحال، ولا سكون إلى عوارض من الإغفال والإهمال؛ بل هو أمر ركب فيه متن التدبير، وجرت بمثله المقادير، وأتبع فيه قول الله تعالى: ﴿فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان نكير﴾ في حين خدعته المطامع المردية إلى الأعمال القاهرة، مؤملا انفصام عروة الله المتينة، وأفول ما توقد من شجرة مباركة زيتونة. . .)[1].

في هذه الرسالة قد لعب الخيال دوره، وفيها من الكنايات اللطيفة ما لا يحصى وما أكثر ما فيها من اقتباس محكم، من محكم النظم الكريم، وهذه من سمات المدرسة الفاضلية.

لا عجب إن كان ابن الشخباء حلقة الاتصال بين مدرستي القرنين الخامس والسادس، والمأثور من رسائله ينطق بذلك ويعززه.

ابن الصيرفي[2]:

كتب في يوم عيد يصف موكب الخليفة الفاطمي بنفس أسلوب العصر الموشى بالجناس والطباق والتورية يقول: . . . إن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قصوره الزاهرة عند انفجار الفجر؛ وحافظت على ما تحرزه من كريم الثواب، وجزيل الأجر، واستنزلت الرحمة برؤية إمام الأمة، وعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرمات وأقوى الأزمة وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين،

(١) معجم الأدباء ١٦٥/٩.

(٢) أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان، كان من كبار الكتاب في الدواوين الفاطمية. وله ديوان الرسائل. توفي سنة ٥٤٢.

والأنوار الساطعة طوالعه، ومهابتة تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدافعه، وقصد المصلى في كتائب لجبة، ومواكب للتعظيم مستوجبة، وعزة تتبين في الشمائل والصفحات، وقوة يشهد بطيب وصفها ارج النفحات، قد غدت عددها محكمة، وخيولها مطهمة، وزوابلها إذا ظمئت كانت مقومة، وإذا رويت عادت محطمة، تتقلد صفائح متى أنتضيت أنصفت من الجائر الخائف، ومتى اقتضبت عملا كان اقتضابها مبيضاً للصحائف، وفي ظلها معاقل للائذين، وبحدها مصارع للمنابذين. وهي للدماء هوارق، وللهامات فوالق، ولمستغلق البلاد مفاتح، ولمستفتحها مغالق. . .)[1].

العماد الأصفهاني.

جمعت الصداقة بينه وبين القاضي الفاضل، وربطت بينهما الموهبة الأدبية. . ومن ثم كان يستمد من بحره، ويعزف على وتره. . يروي أنه لقي القاضي الفاضل يوماً وهو راكب فرسه فقال له: سر فلا كبا بك الفرس فقال له القاضي: دام علّا العماد. والعبارتان من قبيل ما كان يصطنعه الحريري في ألغارة. يقرآن طرداً كما يقرآن عكساً فلا يستحيلان بالانعكاس.

ومن رسائله التي ترسم فيها الطريقة الفاضلية قوله في الحريدة عن الحصكفي (علامة الزمان في علمه، ومعرى العصر في نثره ونظمه؛ بل فضل المعري بفضله وفهمه، وبذ الحريري برقة طبعه وقوة سجعه، وجودة شعره، وغزارة أدبه، وانفرد بأسلوبه في الشعر ومذهبه. .

له الترصيع البديع، والتجنيس، والتطبيق، واللفظ الجزل الدقيق، والمعنى السهل العميق، والتقسيم المستقيم، والمثل السائر المقيم والمذهب المذهب، والقول المهذب، والفهم الشهم، والفكر البكر، والقافية الشافية، كأنها العافية، والمعيشة الصافية، والروى الروى، والزند الورى، والخاطر الجرى، الجامع في الوزن بين در الحزن ودر المزن. تود الشعرى لو أنها شعار شعره، والنثرة أنها نثار نثره، والزهرة أنها كوكب سمائه والمشترى أنه مشترى ثنائه،

(١) المنتخب من أدب العرب جـ ٢/ ٣٩٠.

غنيت الغانيات عن قلائدهن بغرائزه، وأحبت القصور أن توشح عوض مناطقها بدر فرائده بفرائده، وحسدت عيون الغواني عيون معانيه، وغبطت أحداق الحسان أحداق محاسنه وحدائق قوافيه. . .)[1].

وفي الحريري يقول:

(طلعت ذكاء ذكانه في المغرب والمشرق، وامتلأ ببضائع فوائده، ونواصع فرائده حقائب المشئم والمعرق. .)[2].

وفي رثاء صديقه القاضي الفاضل يقول: صاحب القرآن، العديم الأقران، وواحد الأزمان، العظيم الشأن، رب القلم والبيان، واللسان، والعزيمة الوقادة، والبصيرة النفادة والبديهة والمعجزة والبديعة المطرزة؛ والفضل الذي ما سمع له بمماثل في الأوائل، ممن لو عاش في زمانه لتعلق بغباره أو جرى في مضماره فهو كالشريعة المحمدية، التي نسخت الشرائع ورسخت بها الصنائع: يخترع الافكار: ومفترع الأبكار: ويطلع الأنوار: ويبدع الأزهار: وهو ضابط الملك بآرائه: ورابط السبل بآلائه إن شاء إنشأ في يوم واحد بل في ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة[3].

أرأيت إلى هذه الرسائل وقد أترعت بالجناس حتى لا تكاد تخلو منه فقرة؟ وهل رايت إياً إلى هذا السجع المقيد «بلزومه ما لا يلزم»؟. ومع ذلك فالجناس عذب الموسيقى، والسجع بسجع الحمام أشبه. . . وتلك منزلة في البلاغة لا يرقى إليها إلا كل أديب موهوب يحذو حذو القاضي الفاضل ومن كالعماد الذي تفصح ببلاغته وشداً بلسانه وبيانه؟

ضياء الدين بن الأثير

كان طاهر بن الحسين ـ قائد المأمون قد أوقع بابن ماهان وكتب إلى الخليفة بذلك فقال: «كتابي إلى أمير المؤمنين ورأس عيسى بن ماهان بين يدي، وخاتمة

(١) الخريدة: القسم الثاني الخاص بأدباء الموصل وديار بكر ورقة ٢٢٣

(٢) الخريدة الجزء الأول ورقة ١٨٣

(٣) وفيات الأعيان ١/ ٥٠٩

في يدي، وعسكره مصرف تحت امري والسلام» فبلغ بالايجاز غايته.

ولما أراد ابن الأثير أن يظهر الفرق بين الايجاز والاطناب تناول الرسالة بقوله.

أصدر كتابه هذا وقد نصر بالفئة القليلة على الفئة الكثيرة، وانقلب باليد الملأى، والعين القريرة، وكان انتصاره بحد أمير المؤمنين لا بحد نصله، والجد اغنى من الجيش وإن كثرت أمداد خيله ورجله ـ وجاء برأس عيسى بن ماهان وهو على جسد غير جسده، وليس له قدم فيقال: إنه يسعى بقدمه، ولا يد فيقال: إنه يبطش بيده. ولقد طال وطوله مؤذن بقصر شأنه، وحسدت الضباع الطير على مكانها منه وهو غير محسود على مكانه وأحضر خاتمه وهو الخاتم الذي كان يجري على نقش اطره، وكان يرجو أن يصدر كتاب الفتح بختمه فحال ورود المنية دون مصدره. وكذلك البغي مرتعه وبيل، ومصرعه جليل، وسيفه وإن مضى فإنه عن الضرب كليل... وقد نطق الفأل بأن الخاتم والرأس مشيران بالحصول على خاتم الملك ورأسه، وهذا الفتح لما يستقبل بناؤه ولا يستقر البناء إلا على أساسه، والعساكر التي كانت على أمير المؤمنين حرباً صارت له سلماً، وأعطته البيعة علماً بفضله وليس من تابع تقليداً كمن هو تابع علماً. وهما الآن مصرفون تحت الأوامر ممتحنون بكشف السرائر مطيفون باللواء الذي خصه الله باستفتاح المقالد، واستيطاء المنابر. وكلما سرت خطوات القلم في أثناء هذا القرطاس، وكذلك طلائع الرعب قبل الطلائع في قلوب الناس وليس في البلاد ما يغلق بمشيئة الله بابا، ولا يحسر نقاباً، وعلى الله إتمام النعم التي افتتحها، وإجابة أمير المؤمنين إلى مقترحاته التي اقترحها والسلام(١).

«وهذا الكتاب كما يقال يشتمل على ما اشتمل عليه كتاب طاهر بن الحسين غير أنه فضل ذلك الإجمال. والذي نراه أن تفصيل ابن الأثير أو إطنابه نموذج لما وصل إليه الإنشاء الديواني بعد أن ساده التأنق البياني وانصرف الكتاب

---

(١) المثل السائر ٣٣٩ (٢) تطور الأساليب النثرية ص ٢٣٢

إلى المحسنات اللفضية».

القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر: [1]

ترسم طريقة القاضي الفاضل ،فوفق، ثم انحدر إلى طريق الملغزين فأخفق شأنه في ذلك شأن غيره ممن أدركوا الكتابة وهي تلفظ أنفاسها في أخريات الدولة حينما استعجمت وصار الأمر إلى غير أهله...

ومن انشائه الجيد ما كتبه على لسان السلطان قلاوون رداً على تعزية في ابنه وولي عهده «علاء الدين».

(ولنا ـ والشكر لله ـ صبر جميل، لا نأسف منه على فائدة، ونأسى على مفقود؛ وإذا علم الله، سبحانه، حسن الاستبانة إلى قضائه، والاستكانة إلى عطائه عوض كل يوم ما يقوله المبشر به: هذا مولى مولود. وليس الأبل بأغلظ أكباداً ممن له قلب لا يبالي بالصدمات، كثرت أو قلت، ولا بالتباريح، حقرت أو جلت ولا بالأزمات إن هي والت أو تولت، ولا بالجفون إن هي ألقت ما فيها من الدموع والهجوع وتخلت، ويخاف من الدهر من لا حلب أشطره، ويأسف على الفائت من لا يأتي بنبأ الخطوب الخطرة. على أن الفادح بموت الملك الصالح ـ رضي الله عنه ـ وإن كان مبكياً، والنائح بذلك الأسف وإن كان لنار الأسف مذكيا، فإن من وراء ذلك من تثبيت الله عز وجل ـ ما ينسفه نسفاً، ومن إلهامه الصبر ما يجدد لتمزيق القلوب أحق ما به ترفى، وبكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عندنا حسن اقتداء يضرب عن كل رثاء صفحاً[2].

لقد اقتضاه مقام الحزن هذا أن يكون هادئاً في تصنعه؟ فالمبالغة مقبولة في مقارنة القلوب القاسية بأكباد الأبل الغليظة، والطباق لا يكاد يلحظ بين قوله

---

(١) رئيس ديوان الإنشاء في عهد الظاهر بيبرس، وولديه من بعده. ظلت تعاليمه الديوانية سائدة حتى نسخت بمرسوم الدستور التركي. وتوفي سنة ٦٩٢ ومن آثاره.. الروضة البهية في خطط القاهرة المعزية.

(٢) نهاية الأرب ١٠٧/٨

(كثرت وقلت)، (حقرت وجلت)، (والت وتولت) (تمزيق ويرفي)، وكذا التصرف والجناس بين (والت وتولت) وبين (منكياً ومبكياً ومذكياً) والتصرف في اقتباس الآية الكريمة (والقت ما فيها وتخلت) والمثل (حلب الدهر أشطره).

ومن أساليبه الملغزة بالنحو والجناس المعكوس قوله:

(ولنا بحمد الله ذرية درية، وعقود الشكر لله كلها درية

إذا سيد منهم خلا قام سيد قؤول لما قال فعول

ما منهم إلا من نظر سعده، ومن سعده ينتظر، ومن يحسن أن يكون «المبتدأ» وأن تسد حاله بكفالته وكفايته مسد الخبر[1]).

أما إلغازه «بالتورية» فقد بلغ المدى، وتجاوز الحد[2]، وبها تعقدت أساليبه وعزت على الإفهام... استمع إليه يقول في عهد السلطان لابنه الأشرف خليل[3].

(... كم جلا ببهى جبينه من بهيم، وكم غدا الملك بحسن روائه، ويمن آرائه يهيم، وكم أبرأ مورده العذب هيمّ عطاش، ولا ينكر الخليل إذا قيل عنه ابراهيم): ففي إبراهيم تورية بعيدة، ومعناها القريب العلم الشخصي والقرينة «الخليل» والمعنى البعيد ـ وهو المراد ـ أبرأالهيم، والهيم الإبل العطاش يريد أنه شفاها وأطفأ ظمأها... وفي سبيل التورية (١) سهل الهمزة في الفعل (٢) ومنع الاسم من التنوين.

وفي إنتصارات السلطان بالشام يقول[4].

كم شكت منه حماه.. وكم خافته معرة وما من معرة خاف؛ وما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه، تشكو من جوى جواره الحصون والصياصي، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها، وناهيك بمدمع

---

(١) صبح الأعشى ٣٥٧/٧، ونهاية الأرب ١٠٧/٨

(٢) انظر صبح الأعشى جـ ٧، ٨، ١٠.

(٣) صبح الأعشى ١٦٨/١٠.

(٤) صبح الأعشى ٣٥٧/٧

العاصي. . يريد نهر العاصي الشهير وعليه تقع مدينة «حماة». فضلا عن توريته بمعرة النعمان ـ من حيث يريد المعنى البعيد وهو «العار».

* * * *

هذه ألوان مختلفة من أساليب الطريقة الفاضلية، وهي كما ترى أشبه بروضة غناء. . طيورها السجع، وزهرها البديع وعبيرها أسرار البيان، ولكنها أتت الزمان على الهرم، وهبت عليها ريح العجمة وهي عقيم، فصوح الزهر، وجف البرعم وقصف الردى غصنها الرطيب، وفي ذلك يقول القلقشندي: وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى، لاستيلاء الاعاجم وتوسيدها لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك، لعدم إلمامه بالعربية، والمعرفة بمقاصدها، حتى صار الفصيح لديهم أعجم، والبليغ في مخاطبتهم أبكم) ولعله ما ألف كتابه الضخم «صبح الأعشى في صناعة دواوين الإنشاء إلا ليتدارك به ما عزب وفات، ولكن هيهات هيهات؛ فقد باتت الكتابة: قشوراً لماعة على لب رث غث اعجف، وانتهكت حرمة المعاني فصارت خدماً ذليلة للألفاظ»[١]. . فليس العيب إذاً عيب الطريقة الفاضلية في حد ذاتها، وإنما عيب خلفائه الذين حرموا الطبع والموهبة فلم يحسنوا صنعه، وإنحرفوا عن الجادة.

* * * *

«وبعد» فهذه هي (مدارس الكتابة)، أو التيارات الأدبية في النثر العباسي استنبطنا خصائصها الفنية من تراثها المأثور، بالاستقراء الشامل، والتوافر الكامل، والموازنة الدقيقة. . . تلك الكتابة التي بدئت بعبد الحميد، وختمت بابن العميد. كما يقول الثعالبي[٢].

غير أن من الباحثين المحدثين من تحفظ في ذلك ومنهم من أنكرها على اطلاقها، محاولاً الغض من صاحب الطريقة البديعية التي ظهرت فبهرت وجذبت نحوها الأنظار كالأستاذ خليل[٣] مردم الذي يرى السجع ـ وغيره من

---

(١) فن الإسجاع جـ ١/١٣١

(٢) اليتيمة = ١٥٥/٣

(٣) ابن العميد (خليل مردم)/٤٨

المحسنات ـ عبئاً ثقيلاً يؤود الأساليب وهذا أمر لا شك فيه إذا تكلفه الكاتب أو أسرف أو أخل بشروط حسنه، أو جاء به في غير موضعه، بل إن جنايته على الأساليب ربما تجاوزتها إلى الأنفس البريئة كقاضي «قم» الذي عزلته السجعة.

ولكن. أهذا عيب السجع؟ كلا. وإنما هو عيب السجاعين الذين لم يحسنوا صنعه، فتكلفوا وتخلفوا.

إن ابن العميد ـ بطريقته الجديدة ـ قد أحيا دارس الألفاظ، ولفت إليها الأنظار، وكذا إلى أساليبها الموشاة بمحسنات البديع . . لفظية ومعنوية . . تلك المحسنات التي تخلب اللب، وتبهج القلب، وتثير العاطفة؟ وهل بعد ذلك بغية لنفس . . ؟

إن طريقة ابن العميد هي التي ألهمت البديع والخوارزمي، والصابي والحريري، والقاضي الفاضل وغيرهم من أعلام العصر، وسارت عبر القرون خالدة على الأيام شاهدة بفضل ابن العميد، ولا تزال لها في عصرنا الحاضر، ظلال ممدودة يتفيأها حملة الأقلام . . .

* * *

(وبعد) فكما ذكرنا سابقاً أن هذه المدارس، ليس بينها حدود فاصلة، ولا تعرف زماناً بعينه أو مكانا، كذلك نذكر هنا أن من أعضائها من يجمع ـ عن ميل ـ بين طريقتين، كبديع الزمان الهمذاني الذي جرى مع الجاحظ في فكاهاته ونوادره، ومع ابن العميد في سجعه وتجنيسه، وكان من الممكن أن نلحقه بهذه وتلك معاً، غير أن العرف جرى بتغليب الخصائص الراجحة، واعتمادها طابعاً عاماً لأسلوبه، عند إلحاقه بمدرسته أو نظمه في طبقته . .

الباب الثالث

أعلام الكتابة

(أ) المترسلون

(١) ابن المقفع

الكاتب الأديب، والمنشىء الأريب، عبد الله ابن المقفع، الفارسي أصلا، المجوسي ديناً، العربي ولاء ونشأة.

ولد بمدينة، «جورستان»[1]، وهي احدى مدن الأهواز الجميلة، الغنية بمناظرها الطبيعية . . . ، ولما شب عن الطوق انتقل مع ابيه «داذويه»[2] إلى البصرة، ـ وهي إذ ذاك حاضرة العلم والأدب ـ حيث استقر ولاؤه في «بني الأهتم»[3] . . . وكان أبوه يتولى خراج فارس لعمال بني أمية على العراق، ويبدو أنه كان يتلاعب كثيراً في أموال السلطان، فلما اكتشف الحجاج منه ذلك ضربه، وبرح به حتى تفقعت يده أي تشنجت، فغدا يلقب «بالمقفع».

مولده ووفاته:

لم تشر المصادر الى السنة التي ولد فيها، وقصارى ما نعلم أنه من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، وأنه مات مقتولا في خلافة المنصور سنة ١٤٢ هـ لهذا اختلف الباحثون، وأغلبهم على أنه ولد سنة ١٠٦ هـ ـ في خلافة هشام؛ استناداً الى ما ذكره ابن النديم[4] من أنه «كان يكتب لداود بن عمر

(١) الجهشياري/١٠٩
(٢) الفهرست/١٧٢
(٣) الصراع بين العرب والموالي/٦٦
(٤) الفهرست/١٧٢

ابن هبيرة»، في خلافة مروان الثاني، آخر خلفاء بني أمية، وهم بذلك يفترضون أنه قد باشر الكتابة له ـ أول ما باشر ـ وهو ابن ٢٥ سنة، وعلى هذا الاعتبار تكون مدة حياته ٣٧ سنة فحسب، وهذا ما نستبعده مع كثرة ما ألف وصنف، وترجم عن الفارسية واليونانية، ونرى أن عبارةابن النديم محرفة، والصواب ما ذكره الجهشياري الذي أشار إلى أنه «كان يكتب لدواوين عمر ابن هبيرة»[١] وهذا التحريف المطبعي ـ على بساطته ـ ينقل الكاتب من زمن «الابن» إلى زمن «الأب»، ويدفع به إلى الأمام نيفا وعشرين سنة، حيث إن عمر بن هبيرة عزل من ولايته سنة ١٠٥، ولعل ما يؤيد ذلك أيضاً ما أشار إليه البلاذري[٢] من أن ابن المقفع تقلد خراج بعض ولايات دجلة في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩ هـ). أليس لنا بعد ذلك أن نقرر أن مولده كان في خلافة عبد الملك حوالى سنة ٧٥ هـ، وليس في خلافة ابنه هشام سنة ١٠٦ كما يذكرون؟.

نشأته وحياته:

انتقل الى البصرة وهو صبي كما ذكرنا، وفيها كانت نشأته الثانية التي تهيأت له في أحضان العرب، وفيها وعنهم ارتشف أفاويق البلاغة، وأخذ العلم من مظانه، اهتم والده بتربيته التي لم تقف به عند حد العربية، بل كان عظيم الحظ أيضاً من الثقافتين الفارسية واليونانية[٣]، كل هذا، ـ فضلاً عن ذكائه وموهبته ـ أهله لأن يتسنم ذروة الكتابة في فجرها الصادق.

تقلد خراج بعض الولايات بدجلة في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦/٩٩) وهذا ـ فيما نعلم ـ أول عمل رسمي قام به في الدولة الأموية، ولما ذاع صيته، ألحقه عمر بن هبيرة بدواوينه بكرمان، ومن بعده كتب لابنه

---

(١) الجهشياري/١٠٩

(٢) فتوح البلدان للبلاذري ص ٤٦٤

(٣) من حديث الشعر والنثر/٤٦ ط المعارف سنة ١٩٣٦

«يزيد» وكان يزيد إذ ذاك والي العراق من قبل مروان بن محمد، فلما توفي كتب لأخيه داود.

كان ابن المقفع صديقاً حميماً، لعبد الحميد بن يحيى، كاتب الخليفة مروان الثاني، وكلاهما كان وفياً لصاحبه إلى حد الإيثار، مهما كلفه الايثار؛ وكلاهما أيضاً كان على المروانية؛ مخلصا للخليفة، لم يتخل عنه حتى في أيام محنته التي انتهت بقتله وزوال عرش بني أمية.

فلما جاء العهد العباسي ـ على أكتاف الفرس ـ لقي الموالي فيه كل إجلال، ولكن ابن المقفع الذي شهد مصرع الدولة الأموية وعز عليه ذلك ـ لم يكن كما يبدو مغتبطاً بالعهد الجديد؛ ولا مستبشراً به: ومن ثم سايره على دخل، وأخذ يتربص.

اتصل بأعمام الخليفة، وكتب لعيسى بن علي واليه بكرمان وأسلم. أو تظاهر بالإسلام على يديه، وتسمى عبد الله واكتنى أبا محمد.. والرواة يشيرون الى انه كان يحرض عم الخليفة الثائر «عبد الله بن علي» ويغريه بقتله «فلما هرب من سيوف أبي مسلم، وقصد الكوفة محتمياً بأخويه «سليمان وعيسى» طالباً الأمان من أبي جعفر، توسطا له في الأمر، ومهدا له طريق العفو، وقام ابن المقفع بتوثيق كتاب الأمان وإحكامه حتى لا تسول للخليفة نفسه بنقضه، وتشدد في ذلك إلى حد أحنق عليه الخليفة، يقول الجهشياري: وكان الذي شق على أبي جعفر أنه قال في النسخة: يوقع بخطه في أسفل الأمان «وإن أنا نلت عبد الله بن علي، أو أحدا ممن أقدمه معه بصغير أو كبير، أو أوصلت أحداً منهم ضررا، سرا أو علانية، على الوجوه والأسباب كلها، تصريحاً أو كناية أو بحيلة من الحيل، فأنا نفي من محمد بن علي بن عبد الله، ومولود لغير رشدة، وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين؛ ولا عهد ولا ذمة؛ وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين، وهو متبرىء من الحول والقوة، ومدع ـ إن كان ـ انه كافر بجميع

الأديـان ولقي ربه عـلى غير دين ولا شريعة، محـرم المأكـل والملبس على الـوجوه والأسبـاب كلها، وكتبت بخـطى ولا نيـة لي سـواه، ولا يقبـل الله مني إلا إيـاه والوفاء به. . . »[1].

كما ورد بالأمـان أيضا قـوله: (ومتى غـدر أمير المؤمنـين بعمه عبـد الله فنساؤه طوالق ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته.

ولما قرأ أبـو جعفر الأمـان تميز من الغيظ وسـأل عن كاتبـه. فقيـل لـه: ابن المقفع كاتب عيسى بن علي. فقال: «فما أحد يكفينيه؟».

ديانته:

نشـأ ابن المقفع في أحضـان المجوسيـة، وعلى مـذهب أبيـه مـذهب زرادشت القائل بإلهين اثنين لهذا الكون. . إله الخير «أهورامـزدا»، وإله الشر «اهـريمان»، ولما انتقـل إلى البصـرة، في ولاء بني الأهتم، ظـل عـلى مجـوسيتـه تلك، حتى أسلم في عهـد المنصور، عـلى يد عمـه عيسى بن علي كـما ذكرنـا. . ، ويبدو أنـه كـان ـ في الحـالـين ـ رقيق العقيـدة، كثـير الشـك والارتيـاب، دينـه عقله، ولا يؤمن إلا بما صدر عنه. . يفعل الخير لأنه خير، وينأى عن الشر لأنه شر.

فـالجاحظ كـان ينظمـه في سمط الزنـادقـة مـع مـطيـع بن أيـاس، ويحيى بن زياد[2] والمهدي يقـول: ما وجـدت كتاب زنـدقة إلا وأصله ابن المقفـع[3]. . ، بل إن قصة إسلامه نفسها لتدل عـلى استهتاره بـالدينـين معاً، وأنـه إن كان قـد هجر القديم حقـاً؛ فلم يدخـل في الجديـد حقا وصـدقا. . ذكـروا أنه جـاء الى عيسى بن عـلي ـ وكان كـاتبه ـ، وقـال له: دخـل الاسـلام في قلبي، وأريـد أن أسلم عـلى يدك، فقـال له عيسى: ليكن ذلـك غـداً بمحضر من القـواد ووجـوه النـاس، ،ثم حضر طعام عيسى عشيـة ذلك اليـوم، فجلس ابن المقفـع يـأكـل

---

(١) الجهشياري/١٠٤
(٢) ضحى الإسلام جـ ٢٣٣/١
(٣) أمالي المرتضى جـ ٩٣/١.

ويزمزم، على عادة المجوس. فقال له: أتزمزم وأنت على عزم الإسلام؟ فقال: أكره أن أبيت ليلة على غير دين..».

أفبعد هذا يقال[1]: إن ابن المقفع «دان بالإسلام عن عقيدة وعلم؟ وعلى كل فليس من حقنا أن نخوض في عقيدته ما دام قد نطق بالشهادتين وأعلن اسلامه على ملأ من القوم.

أما خلقه، فيبدو أنه طبع على المروءة والوفاء، يتجلى ذلك فيما قيل عنه - إن صدقا وإن كذبا - من إيثاره القتل بدلاً من صديقه عبد الحميد الذي طلبته سيوف العباسيين وهو معه، فيقول الذين دخلوا عليهما: أيكما عبد الحميد؟ فيقول كل واحد منهما «أنا» خوفاً على صاحبه[2].

وفي كرمه ومروءته يقول سعيد بن مسلم: «قصدت الكوفة، فرأيت ابن المقفع، فرحب بي وقال: ما تصنع هنا؟ فقلت ركبني دين. فقال: هل رأيت أحداً؟ قلت: رأيت ابن شبرمة، فوعدني أن أكون مربياً لبعض أولاد الخاصة. فقال: أفٍّ! أيجعلك مؤدباً في آخر عمرك؟ أين منزلك؟ فعرفته. فأتاني في اليوم الثاني، وأنا مشغول بقوم يقرأون عليّ. فوضع بين يديّ منديلا فإذا به أسورة مكسورة، ودراهم مقدار أربعة آلاف درهم، فأخذت ذلك ورجعت إلى البصرة، واستعنت به[3].

وقد أشار الجهشياري وابن قتيبة إلى المواقف التي تدل على كرمه وسخائه.. وفي أدبيه الكبير والصغير، ما يدعو الى الفضيلة والقناعة والوفاء وغيرها من حميد الصفات...

---

(١) أمراء البيان جـ ١/١٠٤

(٢) الجهشياري/٨٠

(٣) محاضرات الأدباء ١/٢٩

آثار ابن المقفع

عرفت العربية، في هذا العصر، كثيراً من ألوان الثقافة الأعجمية، التي نُقلت اليها عن الفرس والهند واليونان... وكان ابن المقفع فارس هذه الحلبة التي أثرت الحركتين: العلمية والأدبية... يقول ابن صاعد الأندلسي في طبقاته:

«إن أول علم عني به، من علوم الفلسفة، هو علم المنطق والنجوم، فأما المنطق فأول من اشتهر به في هذه الدولة عبد الله بن المقفع، الخطيب الفارسي، فإنه ترجم كتب ارسطاليس الثلاثة: كتاب «قاطاغورياس» أو المقولات العشر، وكتاب «باري أرمينياس» أو العبارة وكتاب «أنالوطيقا» أو تحليل القياس، كما ذكروا انه ترجم أيضاً كتاب «المدخل» المعروف باسم «إيساغوجي» لفرفريوس الصوري...

نقل ابن المقفع هذه الكتب عن الفهلوية[1]، لغة الفرس القديمة، ومن ثم لا ينهض ذلك دليلا على حذقه اليونانية، كما قد يتبادر إلى الأذهان... أما الفارسية لغة آبائه وأجداده، فقد ارتضعها طفلا، وشدا بها يافعا، وتمرس بأساليبها طول حياته، ومن ثم كان يصطنع اللسانين، جامعاً بين البلاغتين... ترجم كتاب «كليلة ودمنة، وزاد عليه، وكتاب الآيين نامه ويبلغ مئات الصفحات ـ كما يقول المسعودي، ـ في عادات الفرس وأنظمتهم، وكتاب خدابنامه في السير، والتاج في سيرة الملك العادل كسرى أنوشروان، كما ترجم كتاب مزدك صاحب المذهب، الذي شرق وغرّب».

أما كتبه المؤلفة فهي. الأدب الصغير، والأدب الكبير، واليتيمة ورسالة الصحابة...

---

(١) يرى الأستاذ بول كراوس أنها نقلت عن السريانية كغيرها من الكتب اليونانية العديدة، وأن ناقلها هو ابنه محمد، وفي المجلد الرابع من مجلة المستشرقين ذكر طائفة من الألفاظ الواردة بالترجمة العربية، تشير إلى أصلها السرياني لا الفهلوي.

فأما الأدبان: الصغير والكبير فموضوعهما التهذيب والتأديب. جمع فيهما الكثير من الحكم المأثورة التي وعاها قلبه عن فلاسفة الفرس وحكماء العرب، أو أدركها بثاقب نظره أو صادق تجربته... والفرق بينهما كالفرق بين العام والخاص...، فبينا تجد الأول دستورا خلقياً يصلح لكل فرد، في أي زمان أو مكان، تجد الثاني خاصا بآداب الملوك وأخلاقهم وكذا من يتصل بهم، مع التحليل والتعليل، وبينا تجد الأول أيضا مبعثر الأقوال كعقد وهى سلكه فانتثر، تجد الثاني إلى التبويب، وإحكام الربط أقرب؛ بدأه بأعوان الحاكم وما يجب أن يكونوا عليه من الحرص والحذر في معاملته كقوله:

«إذا تقلدت شيئاً من أمر السلطان فكن فيه أحد رجلين: إما رجلا مغتبطاً به، فحافظ عليه مخافة أن يزول عنه، وإما رجلاً كارهاً له، فالكاره عامل في سخرة، إما للملوك إن كانوا هم سلطوه، وإما لله تعالى وليس فوقه غيرُه. وقد علمتَ أنه من فرط في سخرة الملوك أهلكوه، فلا تجعل للهلاك على نفسك سلطاناً ولا سبيلا» .

إياك، إذا كنت والياً أن يكون من شأنك حب المدح والتزكية، وأن يعرف الناس ذلك منك، فتكون ثلمة من الثلم، يقتحمون عليك منها، وباباً يفتحونك منه، وغيبة يغتابونك بها، ويضحكون منك لها.

اعلم أن قابل المدح كمادح نفسه، والمرء جدير أن يكون حبه المدح هو الذي يحمله على رده، فإن الراد له محمود؛ والقابل له معيب.

لتكن حاجتك في الولاية إلى ثلاث خصال: رضى ربك، ورضى سلطان من كان فوقك، ورضى صالح من تلي عليه، ولا عليك أن تلهى عن المال والذكر، فسيأتيك منهما ما يكفي ويطيب...

اعرف أهل الدين والمروءة في كل كورة وقرية وقبيلة، فيكونوا هم إخوانك وأعوانك وبطانتك وثقاتك(١).

---

(١) رسائل البلغاء ٤٤، ٤٥

وفي البـاب التـالي يجعـل الملوك ثـلاثـة: ملك دين، وملك حـزم، وملك هوى.

فـأما ملك الـدين فإنـه إذا أقام لأهله دينهم، وكـان دينهم هو الـذي يعطيهم الـذي لهم، ويلحق بهم الذي عليهم، أرضـاهم ذلـك، وأنـزل السـاخط منهم بمنزلة الراضي في الإقرار والتسليم.

وأمـا ملك الحزم فـإنه يقـوم بـه الأمـر، ولا يسلم من الـطعن والتسخط ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوي.

وأما ملك الهوى فلعب ساعة، ودمار دهر»[1].

وبعد أن استوفى، وبلغ مـا قصد؛ ختم الكتـاب بما تجب مـراعاتـه في معاملة الصديق، وما أكثر ما تناول في رسائله من هذه الرابطة المقدسة.

والحق أن ابن المقفـع ـ في هذين الكتـابين ـ كـان ناقـلاً أكثر منـه مؤلفـا؛ فقـد أفرغ فيهما ما وعته الذاكرة من حكم الفـرس وأمثالهم، وراض ذلـك كله بمنطق اليـونان وأسـاليبهم كقولـه «ومن العلم أن تعلم أنك لا تعلم مـا لا تعلم» ومـع ذلـك فـإن شخصيتـه تجلت في حسن الاختيـار، ورصـانـة العبـارة، وإصـابـة الغرض.

ـ وأما «اليتيمة» ـ وموضوعها طاعـة السلطان ـ فقد ظلت زمنـاً وهي تطلق خـطأ عـلى «الأدب الكبير» حتى عـثر على اسمهـا وجزء منهـا في كتاب «اختيـار المنظوم والمنثور» لطيفـور، ولم يشأ إكمـالها اعتمـاداً على إلمـام الناس بهـا. . . وأشار إلى ذلك بقوله:

«ومن الـرسـائـل المفـردات، اللواتي لا نـظير لها ولا أشبـاه، وهي أركـان البلاغة، ومنها استقى البلغاء لأنها نهايـة في المختار من الكـلام، وحسن التأليف والنظام: الرسالة التي لابن المقفع، اليتيمة؛ فـإن الناس جميعـاً مجمعون عـلى أنه

(١) المرجع السابق/٤٩

لم يعبر أحد عن مثلها، ولا تقدمها من الكلام شيء قبلها، ولم نكتبها على تمامها لشهرتها وكثرتها في أيدي الرواة[1]. . .

ومما جاء فيها قوله: «أما سؤالكم عن الزمان؛ فإن الزمان الناس، والناس رجلان، وال، ومولى عليه، والأزمنة أربعة على اختلاف حالات الناس.

فخيار الأزمنة ما اجتمع فيه صلاح الراعي والرعية، وكان الإمام مؤدياً إلى الرعية حقهم في الرد عنهم، والغيظ على عدوهم، والجهاد من وراء بيضتهم، والاختيار لحكامهم، وتولية صلحائهم، والتوسعة عليهم في معايشهم، وإفاضة الأمن فيهم، والمتابعة في الحق لهم، والعدل في القسمة بينهم، والتقويم لأولادهم، والأخذ لهم بحقوق الله عز وجل عليهم. وكانت الرعية مؤدية إلى الإمام حقه في المودة والمناصحة والمخالطة وترك المنازعة في أمره، والصبر عند مكره، طاعته، والمعونة له على أنفسهم، والشدة على من أخل بحقه وخالف أمره، غير مؤثرين في ذلك آباءهم ولا أبناءهم، ولا لابسين عليه أحداً، فإذا اجتمع ذلك في الإمام والرعية تم صلاح الزمان، وبنعمة الله تتم الصالحات[2].

ثم تحدث عن الزمان الذي يليه، الذي يصلح فيه الإمام ويفسد الناس، أما الزمان الثالث فهو دون سابقه وفيه صلاح الناس وفساد الوالي، وأما الزمان الرابع فشر الأزمنة جمعاء. . . ذلك الذي يجتمع فيه فساد الوالي والرعية.

٤ ـ وأما رسالة الصحابة صحابة الملوك، فهي على أية حال، دستور اجتماعي شامل يرمي الى إصلاح المجتمع العباسي من جميع أطرافه.

تعرض فيها لكثير من أمور الدولة المعتلة، ووصف لها من العلاج ما رآه أنجع الدواء. . . فمن نظر إليها مستقلة عن كاتبها أدرك أنها صفحة اجتماعية مشرقة، وأن صاحبها «مصلح اجتماعي» فذ، ومن قرنها بشعوبيته وعصبيته

---

(١) رسائل البلغاء/١٠٧، ١٠٨

(٢) رسائل البلغاء/١٠٩

على العرب أيقن انها برنامج ثورة على الخليفة «المنصور».

ولكي يلطف من حدتها بدأها بالدعاء للخليفة الذي عصمه الله ومكن له في الأرض، وشفى غليله من أعدائه، ثم ثنى بمدحه، وأنه مع علمه لا يستنكر أن يسأل عما غاب عنه... وجعل ذلك مدخلا لأن يرفع إليه هذه الرسالة التي تضمنت بعض الأمور الهامة التي تحتاج إلى صادق المشورة.

ومهما قيل في بواعثها فإنها ثمرة ناضجة لثقافته الفارسية التي أحاطت بسير الملوك، وأنظمة الحكم المختلفة، ومن ناحية أخرى كانت صدى لحياته الطويلة التي قضاها في دواوين الخلافة: أموية وعباسية.

* * *

تناول فيها، أول ما تناول، شؤون الجند المختلفة، وأشاد برسالتهم وحسن بلائهم، وبخاصة جند خراسان، ودعا الى تعليمهم، وتحسين أحوالهم وصرف رواتبهم في أوقاتها حتى لا يساورهم القلق.

ولما هاله أمر ما رأى من «القضاء» حتى كان يُحكم في القضية الواحدة بأحكام مختلفة، نادى بإعداد قانون عام موحد، يرجع إليه القضاة في مختلف البقاع.

ولما رأى أيضاً أن العباسيين لا يزالون ينظرون إلى أهل الشام بعين الشك والارتياب؛ لسابق معونتهم لبني أمية، استعطف الخليفة لحالهم، لأن ذلك هو الوضع الطبيعي لمن زال عنه السلطان، وأوصى بالإحسان إليهم، واصطناع خيارهم «فإنهم لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم في الرأي والهوى ويتبعهم غيرهم، وعندها يحل الوفاء محل الجفاء، وسوف لا تكون منهم بعدها نزوات أو وثبات.

انتقل بعد هذا إلى بيت القصيد من رسالته... إلى حاشية الخليفة وبطانته... ويبدو أنه كان موتور النفس من هذه الطبقة بالذات وعجب إيما عجب ممن ينال هذه المكانة عند الخليفة «ممن لا ينتهي إلى أدب ذي نباهة ولا

حسب معـروف، ثـم هو مسخـوط الرأي مشهـور بالفجـور» فلو أحسن الخليفـة اختيارهم لرأى منهم الناصح الأمين.

كـان طبيعياً أن يعـرج بعد هـذا على «الخـراج» من حيث هو عمـاد السياسـة المالية للدولة، فأشار الى مدى تـلاعب الجباة في جمعـه حتى طفح الكيـل، ونادى بضبطه وتنظيمه ومراعاة العدالـة في تقديـره وجبايتـه، ففي هذا «صـلاح للرعية وعمارة للأرض، وحسم لأمور الخيانة وغشم العمال».

ولعل الرشيد كان أول مستجيب لهـذه الدعـوة الخالصـة، فقد طلب إلى «أبي يوسف» أن يضع له في الخراج كتاباً جامعاً يعمل به في جبـايته، وهـو يرجـو من ذلـك كما يقـول أبو يـوسف في أول الكتاب ـ رفـع الظلم عن رعيتـه، والصلاح لأمورهم».

هـذا. ولم يفته في ختـام الـرسـالـة أن يـذكـر الخليفـة بـأن النـاس عـلى دين ملوكهم، لأن العامة تقلد الخـاصة، والخـاصة تقلد الإمـام، فإذا صلح الـراعي صلحت الرعية.

بلاغته وأسلوبه:

ابن المقفع إمام «الترسل الـطبيعي» كما ذكـرنا، . . قـام أسلوبه عـلى **الايجاز والإرسـال**، كغيـره من كتـاب العصر. غـير أنـه فـرعهم من نـاحيـة أخــرى، بأسلوبه المعنوي الذي استقام على منطق اليونان، وطبع بـطابع الحكم الهنـدية، والمواعظ الفارسية، فضلاً عن المعاني النفسية العميقـة التي أدركها بثـاقب نظره، وصادق تجربته.

ومتى كان الأسلوب سليم المنطق، بالغ الحكمة، واضح الغـاية كـان له فعـل السحر في النفوس. . . وهكـذا كان أسلوب ابن المقفـع، يغذي العقـل والقلب معاً، ومن هنا فتن الناس ببلاغته، وجعلوه في نهاية الفصاحة.

إن بـلاغة ابن المقفـع لم تقم عـلى جمـال اللفظ، بقـدر مـا قـامت عـلى جمـال المعنى؛ بـل لعلنا لا نعـدو الصواب إذا قلنـا إنه في أسلوبـه اللفظي لم يـزد عـلى غيـره من الكتـاب. من أجـل هـذا وقف بعض البـاحثـين حـائـرين في أمــره.

يشكون في بلاغته، ويشككون في زعامته، ويعتذرون له عما فاته من تجميل الأسلوب بأنه كان مشغولا عنه بالنقل والترجمة(١).

وصفوة القول: إن عشاق اللفظ لم يجدوا عنده زخرف القول ولا رنين الموسيقى، ومن ثم لم يهشوا له كثيراً، ولم يقبلوا عليه دائماً. أما أنصار المعنى، فقد أصاخوا له طويلا، مأخوذين بما قل ودل من تعبيره، ومن ثم يرونه في نهاية الفصاحة.

وعلى الرغم من إيثارة جانب المعنى واهتمامه به، فإنه لم يهمل جانب اللفظ بالكلية... ألا ترى أن القلم كان يتوقف بين يديه، فلما سئل في ذلك قال: «إن الكلام يزدحم في صدري، فيقف قلمي لتخيره»(٢)..؟

الحق أن ابن المقفع كان حريصاً على انتقاء الألفاظ التي تمثل المعنى، وسيان عنده بعد ذلك أجاء أسلوبه مرسلا أم مقيداً، مسجوعاً أم مزدوجاً إلا أنه ركز البلاغة في الايجاز(٣)، وتجنب الألفاظ الوحشية، وفي ذلك يقول:

(إياك والتتبع لوحشي الكلام طمعاً في نيل البلاغة، فإن ذلك هو العي الأكبر)(٤).

ويبدو أن اتجاهه إلى الترجمة، وممارسته الطويلة لها، وحرصه على سلامة المعنى، جعله يؤثر جانبه، ويبذل الجهد في تهذيبه وتقويمه؛ بل إن حرصه الشديد، جعله أحياناً يؤثر الترجمة الحرفية، ولو خرجت عن مألوف العرب. لاحظ ذلك الدكتور عبد الوهاب عزام، في مواطن عدة من ترجمته لكتاب كليلة ودمنة.

يقول معلقاً على عبارة ابن المقفع: (غلب على صاحب البيت النعاس وحمله النوم). إن جملة «حمله النوم» ترجمة لفظية للجملة الفارسية «خواب أورابرد».

---

(١) من حديث الشعر والنثر/ ٤٩، ٥٠ ـ والفن ومذاهبه ٥١.
(٢) زهر الآداب ٢/ ١٠٤
(٣) البيان والتبيين ١/ ٩١.
(٤) أمالي المرتضى ١/ ٩٥

كما أشار أيضاً الى استعماله اسم الاشارة بدل الضمير في قوله: «وأما من دونه فقد تجري أمورهم فنونا يغلب على أكثر **ذلك الخطأ**[1].

هذا. وإذا كان ابن المقفع - فيما ترجم - مجرد ناقل أمين، فإن شخصيته كانت واضحة المعالم فيما أنشأ وألف... ويكفي أنه مزج حكمة الفرس وفلسفة اليونان ببلاغة العرب، ثم أضفى عليها من ذاته ونفسه فإذا هي لون من الأدب جديد، لا عهد به للسابقين فمن ذلك قوله:

«إذا رأيت صاحبك مع عدوك فلا يغضبنك ذلك؛ فإنما هو أحد رجلين. إن كان رجلا من إخوان الثقة، فأنفع مواطنه لك أقربها من عدوك؛ لشر يكفه عنك. أو لعورة يسترها منك، أو غائبة يطلع عليها لك. فأما صديقك فما أغناك أن يحضره، ذو ثقتك. وإن كان رجلا من غير خاصة إخوانك فبأي حق تقطعه عن الناس وتكلفه الا يصاحب ويجالس إلا من تهوى؟»[2].

هذا مثل من بلاغته - وهو على قصره. يلخص الكثير من خصائصه الفنية التي تجمع بين رقة التقسيم ودقة التعبير، وبين حسن التحليل وحسن التعليل، وبين قوة الحجة وسلامة المنطق؛ فضلاً عن الإيجاز والإرسال اللذين هما قوام «الترسل الطبيعي» كما ذكرنا.. وقد رأينا مثل ذلك وأوضح، في وصفه أحد أصدقائه عند الحديث عن مدرسته الكتابية[3].

حكمه:

كان ابن المقفع رائد الحكمة في عصره غير مدافع ولا منازع، يرصع بها قوله، ويجمل بها أسلوبه... ولا تزال حكمه وأمثاله خالدة على الأيام تتجلى، فيما بقي من آثاره: منقولة وموضوعة.

ويبدو أنه لم يكتف بذلك، بل كان يدعو إليه غيره من الأدباء... ألا تراه

---

(١) مقدمة كليلة ودمنة (ط المعارف ص ٢٥).
(٢) رسالة البلغاء/٧٣
(٣) ص ١٣٣.

يقـول: إذا جعل الكـلام مثلا، كـان أوضـح للمنـطق، وأبـين في المعنى، وآنق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث».

كل هذا ولا شك كان من أثر ثقافته الفارسية التي درجت على هـذا، والتي درج هو عليها منذ حداثته، وصار أبا عذرتها، ومفترع طـريقتها كـما يقولـون. . يفيض بـذلك أدبـاه الصغـير والكبـير، ويتيمـة السلطان، وكليلة ودمنـة. . فمن ذلك قوله.

(أ) في الأدب الصغير.

* العلم زين لصـاحبـه في الـرخـاء، ومنجـاة لـه في الشـدة.

* بالأدب تعمر القلوب وبالعلم تستحكم الأحلام.

* العقل الزاكي غير الصنيع كالأرض الطيبة الخراب.

* الورِع لا يَخْدع، والأريب لا يُخدع.

* أصل العقل التثبيت، وثمـرته السـلامة. وأصـل الورع القنـاعة، وثمـرته النجاح.

* سمعت العلماء قـالوا: لا عقـل كالتـدبير، ولا ورع كـالكف، ولا حسب كحسن الخلق، ولا غنى كالرضا، وأحق ما صُبـر عليه مـا لا سبيل إلى تغييـره، وأفضـل البر الـرحمـة، ورأس المـودة الاسـترسـال - الاستئنـاس - ورأس العقـل المعرفة بما يكون وما لا يكون.

* لا يتم حسن الكـلام إلا بحسن العمل، كـالمريض الـذي قـد علم دواء نفسه؛ فإذا هو لم يتداو به لم يغنه علمه.

* الرجل ذو المروءة قد يكرم على غـير مال، كـالأسد الـذي يهاب وإن كـان عقيراً، والرجـل الذي لا مـروءة له يهـان وإن كثر مـاله؛ كـالكلب الذي يهـون على الناس وإن طوِّق وخُلْخل(١).

* للدنيـا زخرف يغلب الجـوارح ما لم تغلبـه الألبـاب، والحكيم من يغضي

(١) طوِّق: لبس الطوق، وخلخل: لبس الخلخال.

عنه طرفه، ولم يشغل به قلبه.

(ب) وفي الأدب الكبير

* إن استطلت على الاكفاء فلا تثقن منهم بالصفاء.

* إن أحببت أن تلبس ثوب الوقار والجمال، وتتحلى بحلية المودة عند العامة، وتسلك الجَدَد الذي لا خيار فيه ولا عثار، فكن عالماً كجاهل وناطقاً كعي.

* فأما العلم فيرشدك، وأما قلة ادعائه فينفي عنك الحسد، وأما المنطق إذا احتجت اليه فسيبلغ حاجتك، وأما الصمت فسيكسبك المحبة والوقار.

* ليعرف إخوانك، والعامة إن استطعت أنك إلى أن تفعل ما لا تقول أقرب من أن تقول ما لا تفعل، فإن فضل القول على الفعل عار وهجنة، وفضل الفعل على القول زينة.

* احفظ قول الحكيم الذي قال: «لتكن غايتك فيما بينك وبين عدوك العدل...، وفيما بينك وبين أصدقائك الرضا»، وذلك أن العدو خصم تضربه بالحجة، وتغلبه بالحكام، وأن الصديق ليس بينك وبينه قاض فإنما حكمه رضاه.

* تحرز من سكر السلطة، وسكر المال، وسكر العلم، وسكر المنزلة وسكر الشباب، فإنه ليس من شيء إلا وهو ريح جنة تسلب العقل، وتذهب الوقار، وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان إلى غير المنافع.

* إعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا: هم زينة في الرخاء وعدة في الشدة، ومعونة في المعاش والمعاد، فلا تفرطن في اكتسابهم وإبتغاء الوصلات والأسباب اليهم.

* احترس من سورة الغضب، وسورة الحمية، وسورة الحقد، وسورة الجهل، واعدد لكل شيء من ذلك عدة تجاهده بها؛ من الحلم والتفكر، والروية، وذكر العاقبة وطلب الفضيلة.

* ليس للملك أن يغضب؛ لأن القدرة من وراء حاجته.

وليس له أن يكذب؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه على غير ما يريد.

وليس له أن يبخل؛ لأنه أقل الناس عذراً في تخوف الفقر.

* اعلم أن الجبن مقتلة، والحرص محرمة..؛ فانظر فيما رأيت أو سمعت أمن قُتل في القتال مقبلاً أكثر أم من قتل مدبراً؟

* لا تجالس امرأ بغير طريقته؛ فإنك إن أردت لقاء الجاهل بالعلم، والجاني بالفقه، والعي بالبيان لم تزد على أن تضيع عقلك وتؤذي جليسك.

* يصول الكريم إذا جاع، واللئيم إذا شبع.

(ج) في يتيمة السلطان:

* من جمع السخاء والحياء؛ فقد جمع الإزار والرداء.

*١ الصديق لا يحاسب، والعدو لا يعاتب.

* إذا كان الداء من السماء بطل الدواء، وإذا أراد الرب بطل حذر المربوب، ونعم الدواء الأجل، وبئس الداء الأمل.

* إن الكريم إذا عثر لم ينتعش إلا بالكرام، كالفيل إذا وحل لم تستخرجه إلا الفيلة.

* من جهل قدر نفسه، فهو بقدر غيره أجهل.

ومن ثلاثياته قوله:

* الكمال في ثلاثة: الفقه في الدين، والصبر على المصائب، وحسن التقدير في المعيشة.

* ثلاث ليس معهن غربة: حسن الأدب، وكف الأذى، واجتناب الريب.

* ثلاث لا تدرك بثلاث: الغنى بالمنى، والشباب بالخضاب، والصحة بالأدوية.

ومن رباعياته قوله

* من رزق أربعاً لم يحرم أربعاً: من رزق الشكر لم يحرم الزيادة. ومن رزق الاستغفار لم يحرم المغفرة، ومن رزق الدعاء لم يحرم الإجابة، ومن رزق التوبة لم يحرم القبول.

* أربعة أشياء القليل منها كثير: المرض والدَّيْن، والنار، والعداوة.

* لا يكمل الرجل إلا أربعة: قديم في شرف، وحديث في نسب، وإعطاء عند مال، وصدق عند يأس.

* أربع خصال إذ أعطيتهن فليس يضرك ما فاتك من الدنيا: عفاف في طُعمة، وصدق حديث، وحفظ أمانة، وحسن خليقة.

*** ومن آدابه السلطانية قوله**

* من كتم السلطان نصيحته، والأطباء علته، والأخوان رأيه فقد خان نفسه.

* إن خير السلطان من أشبه النسر حوله الجيف، لا من أشبه الجيفة حولها النسور.

* إذا استبد الملك برأيه عميت عليه المراشد.

* لا يكون الملك ملكاً حتى يؤكل غرسه.

* إذا رأيت السلطان يجعلك أخاً فاجعله أبا. ثم إن زادك فزده. .

ومن أسلوبه المسلسل قوله:

* أما بعد. فإن لكل مخلوق حاجة، ولكل حاجة غاية، ولكل غاية سبيلا، والله وقّت للأمور أقدارها، وهيأ للغايات سبلها. . .

* لا يستطاع السلصان إلا بالوزراء والأعوان، ولا تنفع الوزراء إلا بالمودة والنصيحة، ولا المودة إلا مع الرأي والعفاف.

* لا خير في القول إلا ما انتفع بـه، ولا ينتفع إلا بـالصدق، ولا صـدق إلا مع الرأي، ولا رأي إلا في موضعه وعند الحاجة إليه. .

* إن الأعمـال لا يستعان عليهـا إلا بـالصبـر، ولا يتم الصبـر إلا بـالعقـل وإنما يتم العقل مع التجربة.

* * *

هذا طرف من بـلاغة ابن المقفـع الذي فتق أكمـام البلاغـة، ومهد الـطريق لصناعة الانشاء. . . ذكره أبـو العيناء فقـال: كلامـه صريـح، ولسانـه فصيح، وطبعـه صحيـح؛ كـأن بيـانـه لؤلؤ منشـور، ووشي منشـور، وروض ممـطور. . . وذكره آخر فقال: ألفاظه معان، ومعانيه حكم.

أما أبو هلال فقد ضربه مثلاً لمن سمت ببلاغته بلاغة أمة أخرى فقال:

«إن من عرف ترتيب المعـاني، واستعمال الألفـاظ على وجـوهها، في لغـة من اللغات، ثم انتقل إلى لغـة أخرى تهيـأ له من صنعـة الكلام مثـل ما تهيـأ له في الأولى. . . ألا تـرى عبـد الله الكـاتب [ابن المقفـع] استخـرج أمثلة الكتـابـة، ورسمها لمن بعد، من اللسان الفارسي، فحـولها إلى اللسـان العربي، فـلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى، وتصحيـح اللفظ، والمعرفـة بوجـوه الاستعمال.

(٢) عمارة بن حمزة

هو عمارة بن حمزة بن ميمون، مولى عبد الله بن عباس، ثم السفاح فالمنصور. . وهو أحد البلغاء العشرة الذين انتهت إليهم البلاغة في أزهى عصورها. . كتب لأبي جعفر، وللمهدي من بعده، فكانا يحتملان أخلاقه، لبلاغته وكفايته. . . يشير الرواة إلى أنه أول من أعد [رسالة الخميس] لبني العباس، وأن رسالته «الماهانية» معدودة في كتب الفصاحة الجيدة.

قلده السفاح ضياع مروان، وآل مروان، خلا ضياع لولد عمر بن عبد العزيز، وقلده المنصور سنة ١٥٦ كور دجلة، والأهواز، وفارس فلما جاء المهدي قلده الخراج بالبصرة.

كان عمارة كريما، سريا، جليل القدر، رفيع النفس، ذا همة ومروءة. . مدحه سلمة بن عباس فقال:

بلوت وجربت الرجالُ بخبرة — وعلم. ولا ينبيك عنهم كخابر
فلم أر أحرى من عمارة فيهمُ — بود، ولا أوفى بجار مجاور
وأكرم عند النائبات بداهة — إذا نزلت بالناس إحدى الدوائر
تمسك بحبل من عمارة، واعتصم — بركن وفيٍّ، عهده غير غابر

أما نبله ومروءته، فقد بلغا الغاية، بما جبر من عثرات، وفرج من ضائقات، يقول الجهشياري: «كان الماء زائداً في أيام الرشيد، فركب يحيى بن خالد ومعه القواد ليفرقهم على المواقع المخوفة من الماء يحفظونها، ففرق القواد، وأمر بإحكام المسنيات، وسار إلى الدور، فوقف ينظر إلى قوة الماء وكثرته، فقال قوم؛ ما رأينا مثل هذا المد، فقال يحيى بن خالد: قد رأيت مثله في سنة من السنين. كان أبو العباس خالد - يعني أباه - وجهني فيها إلى عمارة بن حمزة، في أمر رجل كان يعنى به من أهل خراسان، وكانت له ضياع «بالري» فورد عليه كتابه يعلمه أن ضياعه تحيفت فخربت، وأن نعمته قد نقصت. وأن حاله قد تغيرت، وأن صلاح أمره في تأخيره بخراج سنة. وكان مبلغه مائة ألف درهم، ليتقوى به على عمارة ضيعته، ويؤديه في السنة المستقبلة.

فلما قرأ أبي كتابه غمه وبلغ منه، وكان بعقب ما ألزمه إياه أبو جعفر من المال الذي خرج عليه، فخرج به عن ملكه، واستعان بجميع اخوانه فيه، فقال: يا بني. مَنْ ههنا نفزع إليه في أمر هذا الرجل؟ فقلت لا أدري. فقال بلى. عمارة بن حمزة، فصر إليه وعرفه حال الرجل، فصرت إليه وقد أمدت دجلة، وكان ينزل في الجانب الغربي، فدخلت إليه وهو مضطجع على فراشة، فاعلمته ذلك، فقال: قف لي غدا بباب الجسر، ولم يزد على ذلك، فنهضت ثقيل الرجلين، وعدت إلى أبي العباس والدي بالخبر، فقال لي: يا بني؛ تلك سجيته فإذا أصبحت فأغد لوعده فغدوت إلى باب الجسر، وقد جادت دجلة في تلك الليلة بمد عظيم قطع الجسور، وانتظم الناس من الجانبين جميعاً ينظرون إلى زيادة الماء، فبينا أنا واقف إذا بزورق قد أقبل والموج يخفيه مرة ويظهره أخرى، والناس يقولون: غرق، غرق. نجا، حتى دنا من الجرف فإذا عمارة بن حمزة في الزورق بلا شيء معه، وقد خلف غلمانه ودوابه في الموضع الذي ركب منه. فلما رأيته نبل في عيني، وملأ صدري، فنزلت وغدوت إليه فقلت: جعلت فداك.. في مثل هذا اليوم؟ فأخذت بيده فقال: كنت أعدك وأخلف يابن أخي؟ أطلب لي برذون كراء. فقلت: برذوني. فقال: هات. فقدمت إليه برذوني فركب، وركبت برذون غلامي، وتوجه يريد أبا عبيد الله وهو إذ ذاك على الخراج، والمهدي ببغداد خليفة للمنصور، والمنصور في بعض أسفاره.

قال: فلما طلع على حاجب أبي عبيد الله دخل بين يديه إلى نصف الدار ودخلت معه، فلما رآه أبو عبيد الله، قام عن مجلسه وأجلسه فيه، وجلس بين يديه، فأعلمه عمارة حال الرجل، وسأله إسقاط خراجه، وهو مائتا ألف دينار، وإسلافه من بيت المال مائتي ألف يردها في العام المقبل. فقال له أبو عبيد الله: هذا لا يمكنني، ولكني أؤخره بخراجه إلى العام المقبل. فقال له: لست أقبل غير ما سألتك: فقال أبو عبيد: فاقنع بدون ذلك لتوجد لي السبيل إلى قضاء الحاجة، فأبى عمارةوتلوم[1] عبيد الله قليلاً، فنهض عمارة فأخذ أبو

---

(١) تلوم = انتظر

عبيد الله بكمه وقال: أنا احتمل ذلك في مالي، فعاد إلى مجلسه، وكتب أبو عبيد الله إلى عامل الخراج باسقاط خراج الرجل لسنته، والاحتساب به على أبي عبيد الله، وإسلافه مائتي ألف درهم، ترتجع منه في العام المقبل فأخذت الكتاب وخرجنا. فقلت له لو أقمت عند أخيك ولم تعبر في هذا المدّ؟ قال لست أجد بداً من العبور، فصرت معه إلى الموضع، ووقفت حتى عبر(١).

ويقول الفضل بن يحيى: إن أبي كان يضمن فارس من المهدي، فحلّ عليه ألف ألف درهم، فأخرج ذلك كاتب الديوان، فأمر المهدي أبا عون عبد الله بن يزيد بمطالبته، وقال له: إن أدّى إليك المال قبل أن تغرب الشمس من يومنا هذا وإلا فائتني برأسه، وكان متغضباً عليه، وكانت حيلتنا لا تبلغ عشر المال، فقال لي: يا بني: إن كانت لنا حيلة، فليس إلا من قبل عمارة بن حمزة، وإلا فأنا هالك، فامض إليه، فمضيت إليه. فلم يعرني الطرف، ثم تقدم من ساعته بحمل المال، فحمل إلينا. فلما مضى شهران جمعنا المال، فقال أبي: امض إلى الشريف الحر الكريم، فأد إليه ماله، فلما عرفته خبره، غضب وقال: ويحك. أكنت قسطارا ـ صيرفيا ـ لأبيك؟ فقلت: لا. ولكنك أحييته، ومننت عليه، وهذا المال قد استغنى عنه. فقال: هو لك، فعدت إلى أبي فقال: لا. والله ما تطيب نفسي لك به، ولكن لك منه مائتا ألف درهم، فتشبهت به حتى صار خلقاً لا تتهيأ لي مفارقته(٢).

وعن الدارقطني أن أبا أيوب المكي قد أرسل إليه أحد أولاده، ليسأل عنه الخليفة قضاء دين بهظه، فقال عمارة للفتى، وكم دين أبيك؟ فقال: ثلاثمائة ألف درهم، فقال: وفي مثل هذا أكلم الأمير؟ يا غلام أحملها معه(٣).

وهذا عمارة نفسه يقول: يخبز في داري ألفا رغيف كل يوم يؤكل ألف

---

(١) الجهشياري: ٩١، ٩٢.

(٢) الوزراء والكتاب ١٩٧.

(٣) معجم الأدباء ١٥/٢٥١، ٢٥٢

وتسعمائة وتسعة وتسعون رغيفاً حلالا، وآكل منها رغيفاً واحداً حراما، واستغفر الله[1].

* * *

وكما بلغ المدى في فضله بلغ المدى أيضاً في تيهه وعجبه، حتى ضرب به المثل، فقالوا: «أتيه من عمارة» كما قالوا: إنه كان ـ من تيهه ـ إذا أخطأ يمضي على خطئه، ويتكبر على الرجوع إلى الصواب، ويرى الخطأ أهون على نفسه من ذلك حتى لا يكون ثمّ نقض وإبرام في ساعة واحدة. ويبدو أن هذا المذهب وجد هوى في نفس الفضل بن يحيى البرمكي... وكان شديد الكبر عظيم التيه والعجب، فما عوتب في ذلك، قال: «هيهات، هذا شيء حملت عليه نفسي لما رأيت من عماره بن حمزة».

رسائله:

ذكر ابن النديم أن لعمارة بن حمزة كاتب المنصور ومولاه رسائل مجموعة من جملتها (رسالة الخميس) التي تقرأ لبني العباس. ويبدو أنها أولى رسائل الخميس، ومن ثم يكون عمارة برسالته تلك، أول من أنشأ هذا اللون من الرسائل الهامة الجامعة، كما أشار ابن النديم أيضاً إلى رسالته الماهانية فذكر أنها إحدى الرسائل المجمع على جودتها، وفيها يقول ابن طيفور:

ومن الرسائل المفردات رسالة عمارة بن حمزة في علي بن ماهان، فإنه يقال إنه لا مثيل لها في معناها وهي التي كتبها عن الخليفة إلى أحد عماله في شأن ابن ماهان:

«أما بعد: فقد بلغ أمير المؤمنين كتابك في ابن ماهان وخالد، ولم يرد أمير المؤمنين بكتابه إليك مشقة عليك، فيما وصف لك من الأمور، وصرف لك من الموعظة، ولكنه أحب أن ينبهك لرشدك، ويدلك على حظك، فيشد بذلك عقد ما خشيت وهيه، ويذلل لك صعوبة ما خفت نفاره ـ ولم يكن يقع

(١) الجهشياري ٩١

ذلك ليصل إليك إلا ببعض الغلظة التي فيها لذع وتقبيض. ويأخذ بمراشد الأمور، ووثائق الحزم ورغائب الحظ التي لا يصل إليها إلا بالكره دون الهويني، وبما يمر على أهله، ويغلظ دون ما يحلو لي ويلين، وأخلق بما شق عليك من كتاب أمير المؤمنين أن يعقبك منه مسرة، فإن خير الأمور خيرها عواقب.

وقد أصبح أمير المؤمنين واثقاً بتمام عصمة الله عز وجل في حالك التي يرجو أن لا يزيلك الله عنها سراء لا ضراء، ما دمت بحقها قائماً، ولبعدها لازماً، مع أن أمير المؤمنين ليس ذلك يخاف عليك، ولا فيه يتعهدك، ولكن أموراً من فلتات الخطأ وميل الهوى، وخشية الزلل، لا يأمنها عليك ولا على نفسه، ولا على الأقرب رحما ونصيحة له، فإنه الجهاد جهاد المرء نفسه، ثم حامته[1] لأن النفس أمارة بالسوء، والناس متزينون بالباطل والشيطان شديد العداوة، لطيف الغش، بصير بالعورة، معد للفرصة، قد التمس أن يصعب على نفسه ما ذلل الله، ويحمل عليها مؤونة ما قدم الله فيه الصنع والكفاية..

قد علم أمير المؤمنين أنه لم يبلغ غاية التأديب، فإنه لا يبلغ ذلك دون انقطاع الأمور التي يحتاج فيها إلى الأدب، وليس لها نهاية دون الفناء، ولم يصبح يتعهد أحداً من الناس بعد نفسه أحق منك بتعهده، لأنك الثقة له ولعدوه الثائر[2] الأعظم، وإن الناس بأوساط الأرض وأقطارها يصيخون بأسماعهم إلى خبر: يودون أن تزل قدم بعد ثبوتها، وتفسد حال بعد صلاحها، وتكل بصيرة بعد نفاذها؛ متخذين ذلك ذريعة إلى الإخلال بحق أمير المؤمنين، ولم يكن بين طاعته ومعصية إلا ساعة من نهار.

وأمير المؤمنين لا ينكر قرب الطاعة من المعصية، قرب بعض الأمور من بعض، لسرعة تقلب القلوب، واختلاف الحالات عند ميل الهوى، ولا ينكر جري المقادير بغيب ذلك عن العباد، واستئثار الله بعلم ما لم يأتهم إلا بغتة،

(١) حامته = خاصته
(٢) الآخذ بالثأر

بل قد علم أمير المؤمنين أن أقواماً في قلوبهم ضغائن دونها الغدر يظهر أسرارهم؛ ويخرج أضغانهم؛ ثم يبلغ بغضبه منهم ما لم يكن ذلك عنده عزيزا؛ ولم يكن بهم امتناع. غير أنه قد أنكر وأنعم[1] أن تعجل إلى (ابن ماهان) ـ وان كان محلا بارزاً ـ بأمر دون مؤامرته[2] ويكره لك العجلة؛ فإنها موكل بها الندم، وإنه كان يقال: (أصاب متأمل أو كاد) وقالت العرب: «فإما ترين أمراً رشدا؛ فتبين ثم أرعو أو أقدم وأحكم» ولحق ما أمر الله عز وجل به من التبين؛ وما حذر أن يصاب قوم بجهالة؛ وما خوف على ذلك من الندامة[3]؛ فليس يبرح المرء بخير ما فرغ لقول الله عز وجل واتعظ واستيقظ.

أعلم أن هذا الجند الذين استرعيتهم، وأعنت بطاعتهم ونصرتهم، من أفضل أهل الأرض عليك حقاً، وأن حقهم هو حق الله، عز وجل، وحق أمير المؤمنين، وحق همة نفسك على نفسك، وأنه إن وصل إلى أقصاهم داراً، أو أدناهم منزلا، ضياع، كان ذلك لك ماسا ولو لم تشعر به، وأنك لا تقدر لهم على شيء مما تلتمس به صلاح أمورهم، من بذل مال، أو مواساة بنفس، هو أعم لهم نفعا، وأغرز عليهم غناء، من أدب صالح تأخذهم به وسيرة صالحة تحملهم عليها، من العفاف في الدين، والحضور للصلوات، والتعلم للقرآن، والتكريم في الأخلاق، والتزين بالوقار، والصدق والكف عن الشبهة، مع أن عفو الوالي عما بدا له أن يعفو عنه، ليس ذلك بإبطال شهادة من شهد عليه، وإنما يكون ذلك لو كانت حقوقهم فيما بينهم، فلا يستطيع الإمام أن يبطلها. وأما إذا كان الحق حق الإمام يمضي فيه ما أحب، ويعفو عما أراد، فمن ذا الذي يخاصمه في حقه، وينهاه عن التثبت فيما اشتبه عليه، والعفو فيما أحب العفو عنه؟ أو ليس قد يكفر الرجل بعد إيمانه، ثم تثبت ذلك عليه، إما باقراره، وإما بينة، فيستتيبه الامام ويحقن دمه إن تاب، ولا يشاركه

---

(١) أنعم = زاد (أي في إنكاره) بمعنى أمعن وفي الكلمة قلب مكاني.

(٢) المؤامرة: المشاورة

(٣) مأخوذ من قوله تعالى. ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

الشهود في أمره، ولا يعلمونه، ولا يقولون: اتهمنا وردت شهادتنا، مع أن تثبت الوالي فيما تثبت فيه من أمر أصحابه، حتى يبريء البريء، وينطف[1] السقيم المقر بذنبه، هو أقوى في الأمر، وأبلغ في الرأي، وأقرب ألى أن يأمن البريء، ويخاف السقيم، وينطق الصدوق، ويهاب الكذوب، وإذا سوى بين البريء والسقيم في العقوبة، وبين الصدوق والكذوب في إجازة القول، لم يتبكل ذو الحزم، ولا يسلم ذو الأستقامة، ولم يزد الشر إلا فشوا في دين ورأى ونصح[2].

وأما ما سألت أمير المؤمنين من رضاه عنك، وما عظمت من موقع كتابه منك، فلم يكتب إليك كتاب ساخط، ولكن كتاب استعتاب - وليس كل مستعتباً، وقد أعطاك الله عز وجل منه الرضا قبل أن تسأله، وأني سألته ورضى عن «خالد» بما رأى من إشراكك إياه مع نفسك في المعذرة والطلبة، وهو يسأل الله توفيقه وتسديده، وأن يتحنن عليكم برأفته، ويؤويكم في كنف ألفته، ويحجزكم عن معاصيه، ويجعلكم خير أعوان وإخوان، ووزراء على إنفاذ عدله في مشارق الأرض ومغاربها، إنه سميع قريب والسلام[3].

وحينما توفي «داود بن علي» عمُّ السفاح، كتب عن لسانه:

«... فإن داود بن علي كان في قرابته بأمير المؤمنين بحيث قد علمت، من طاعته وسنته وبره بأهل بيته، فقبضه الله في طاعة أمير المؤمنين ومناصحته، فلم يكره أمير المؤمنين - مع عزة داود عليه، ومنزلته في أهل بيته - الذي أظهر له من قضاء الله، عز وجل فيه، رضا بقضاء الله عليه، ورغبة في ثوابه، فرحمه الله وغفر له، فقد كان مكانه مكان أنيس، فليكن الذي ظهر لأمير المؤمنين من محبة الله في أقضيته عليه أحب إلى أمير المؤمنين أن يعظم له الأجر، ويحسن عليه الخلافة[4].

---

(١) نطفة تهمه ولطخه بالعيب.

(٢) في الأصل إلا ومسوا من دين ورأي مصح وهو تحوير.

(٣) إختيار المنظوم والمنثور ١٢/١٦٣.

(٤) المرجع السابق ١٣/٣٠٨

ومن رسائله الأخوانية ما كتبه لصديق جواباً على رسالته.

بلغني كتابك تصف كذا، فإن رأيت ألا تعتمد على ما لصقت به من عذرك، وأطعت فيه الهوى من قبول عفوك، وتجعلني أحد من يسر بسرورك، وتشركه في مهام أمورك فإني أحدهم أو أوسطهم عناية بما عناك وتوسطاً لما عداك - «فعلت»[1].

أسلوبه:

زهد عمارة في السجع حتى كادت عبارته تخلو منه، شأنه في ذلك شأن صديقه عبد الله بن المقفع، بل ربما كان عمارة في ذلك أزهد، حتى ليظن القارىء أنه يتعمد ذلك، وليس الأمر كذلك، فما زاد عمارة على أن أرسل نفسه على سجيتها مؤثراً جانب المعنى، متخيراً له من الألفاظ ما يلائمه، ومن التراكيب ما يوائمه، فضلاً عن أنه كان يجمل رسائله الديوانية بالإشارات القرآنية التي تشير الى قصة من القصص تزيد الأمر وضوحاً؛ ففي رسالته الماهانية يقول:

(... ولحق ما أمر الله عز وجل به من التبين، وما حذر أن يصاب قوم بجهالة، وما خوف من ذلك من الندامة) وهو بذلك يشير إلى قوله تعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾.

كما يقول:

«... بذلك مضت سنن الله عز وجل، حتى حرم الله على الأنبياء أن تكون لهم أسرى حتى يثخنوا في الأرض، وأمر بضرب الرقاب، فإذا اثخنوا فالمن أو الفداء» مشيراً بذلك إلى قوله تعالى[2]:

﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض

---

(١) المرجع السابق ١٢/٢٦٤.

(٢) سورة الأنفال آية رقم ٦٧.

الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾.

أما رسائله «الخاصة» فقد خلت من ذلك أو كادت، ولعل ذلك راجع إلى كبره وتيهه واعتزازه بنفسه، فإذا راسل امرأ فقوله الفصل، وما عليه إلا أن يكتب، وعلى من يكاتبه السمع والطاعة. . . وليس الحال كذلك حين يتجه إلى الجماهير في رسائله الرسمية العامة تلك التي تتطلب مزيداً من البسط والإطالة، فضلاً عن جزالة اللفظ وفحولة المعنى. وقد استغنى بهذا كله عن التعبيرات المجازية والأساليب البيانية، التي لا يلجأ إليها غالباً إلا حينما تعز الحقيقة، ومن ثم كان أسلوبه ـ إلى حد ما ـ امتداداً لأساليب القرن الهجري الأول.

(٣) أحمد بن يوسف

أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح، مولى بن عجل، فقد كان جده «صبيح من أقباط مصر فلما اشتراه السري بن بشر العجلي واعتقه زال عنه الرق وبقي بينهما الولاء».

نشأ هذا الكاتب في بيت عريق في الترسل والإنشاء، فقد كان أبوه وجده كاتبين في البلاط العباسي، كتب جده «القاسم» لعبد الله بن علي عم المنصور، ونهض بالأمر من بعده ابنه يوسف بن القاسم، فلما آلت الخلافة للمهدي كتب لوزيره يعقوب بن داود، ومن ذلك نعلم إلى أي حد كان كاتبنا يتقلب منذ صباه في مهاد البلاغة، فيرتشف أفاويقها طفلاً، ويستدر أخلافها يافعاً، وكذلك كان أخوه القاسم وأولادهما، ويبدو أن أباه أدبه فأحسن تأديبه؛ فشب متفصحا بكتاب الله ملماً بتعاليم الشريعة الغراء، وخاصة ما كان له صلة بالأحوال الشخصية والمعاملات؛ فضلاً عن صناعة الكتابة والآداب السلطانية.

ذكر ياقوت عن الصولي: أن أول ما ارتفع به أحمد بن يوسف كان عقب مقتل الأمين، فقد طلب طاهر بن الحسين إلى الكتاب أن يكتبوا للمأمون فأطالوا، وهذا ما لم يستحسنه طاهر، فلما كتب أحمد بن يوسف بلغ الغاية مما يريد، ومن ذلك الوقت بدأ نجمه في الصعود، وصيته في الذيوع لتجويده في موضوع دقيق تصعب فيه الإجادة وها هي ذي رسالته:

«أما بعد: فإن المخلوع قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة، قد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والحرمة بمفارقة عصمة الدين وخروجه عن اجماع المسلمين، لقول الله عز وجل فيما اقتص علينا من أنباء نوح وابنه «إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح . ولا طاعة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت في ذات الله، وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه الكائد له فيمن خان عهده، ونقض عقده، حتى رد به الألفة بعد فرقتها، وجمع الأمة بعد

شتاتها، وأحيا به أعلام الدين بعد دروسها. وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهي رأس المخلوع. وبالآخرة وهي البردة والقضيب، والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين.

وبمثل هذا الأسلوب بذّ غيره من الكتاب، ونال الحظوة لدى طاهر بن الحسين أكبر قواد المأمون.

يروى أن الفضل بن سهل حينما عرض عليه الكتاب رجع نظره فيه ثم قال لأحمد: ما أنصفناك وأمر له بصلات، وقال له: إذا كان غداً فاقعد في الديوان، وليقعد جميع الكتاب بين يديك، واكتب إلى الآفاق.

يقول الصولي لما مات أحمد بن أبي خالد الأحول سأل الخليفة الحسن بن سهل عن رجل كفوء يخلفه في وزارته فذكر له أبا جعفر أحمد بن يوسف، وأبا عباد ثابت بن يحيى الرازي، قائلاً إنهما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين وخدمته، وما يرضيه، فقال اختر لي أحدهما؛ فقال الحسن: إن صبر أحمد على الخدمة، وجفا لذته قليلا، فهو أحبهما إليّ، لأنه أعرق في الكتابة، أحسنهما بلاغة، وأكثرهما علماً، فاستكتبه المأمون، وكان يعرض الكتب ويوقع، ويخلفه أبو عباد إذا غاب عن دار المأمون.

رسائله وأسلوبه:

كتب أحمد بن يوسف إلى المأمون، حين كثر طلاب الصلات ببابه: «إن داعي نداك، ومنادي جدواك، جمعا ببابك الوفود، يرجون نائلك العتيد؛ فمنهم من يمت بحرمة، ومنهم من يدلي بسالف خدمة، وقد أجحف بهم المقام، وطالت عليهم الأيام، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيبه، ويحقق حسن ظنهم بطَوْله، فعل إن شاء الله تعالى.

فوقع المأمون في كتابه:

الخير متّبع، وأبواب الملوك مغان لطالبي الحاجات، ومواطن لهم، ولذلك قال الشاعر:

يسقط الطير حيث يلتقط الحبـ ـب وتُغشَى منازلُ الكرماء

فاكتب أسماء من ببابنا منهم، واحك مراتبهم، ليصير إليّ كل امرىء منهم قدر استحقاقه، ولا تكدرن معروفنا عندهم بطول الحجاب وتأخير الثواب، فقد قال الشاعر:

فإنك لن ترى طرداً لحر كإلصاق به طرف الهوان
ولم تجلب مودة ذي وفاء بمثل الود أو بذل اللسان[١]

ومن مطولاته رسالة الخميس[٢] التي كتبها للمأمون وكانت تقرأ بخراسان على شيعة بني العباس، ومطلعها:

من عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين إلى المبايعين على الحق، والناصرين للدين، من أهل خراسان وعندهم من أهل الإسلام.

سلام عليكم، فإن أمير المؤمنين يحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله. أما بعد: فالحمد لله القادر القاهر الباعث الوارث، ذي العز والسلطان، والنور والبرهان، فاطر السموات والأرض وما بينهما، والمتقدم بالمن والطول على أهلهما، قبل استحقاقهم لمثوبته بالمحافظة على

---

(١) زهر الآداب ٢/٤٩، نهاية الأرب ٧/٢٦٠

(٢) جرت سنة الخلفاء العباسيين على أن يعهدوا إلى أبلغ كاتب في البلاط بكتابة رسالة ضافية في تأييد الدعوة العباسية عامة، والخليفة القائم خاصة، فيذكرون بعد التحميد أن بني العباس هم أحق الناس بالخلافة وأن الخليفة أولى الناس بها، ثم يأخذون في الإشادة به. وتعداد مناقبه وأنه أولى الناس بها من سواه.

كانت هذه الرسالة تلقى يوم الخميس بخراسان في جمع من الناس، أولئك الذين يحتشدون ليجددوا ولاءهم لبني العباس، وبيعتهم للخليفة... وأول من قام بذلك من الكتاب عمارة بن حمزة كاتب المنصور ولما نشبت الفتنة بين الأمين والمأمون، وكان أحمد بن يوسف في خراسان بديوان الفضل بن سهل، أنشأ هذه الرسالة ليجمع بها القلوب على محبة المأمون، ولعل آخر رسالة للخميس كانت رسالة إبراهيم بن العباس في خلافة المتوكل، فإن التاريخ لم يحدثنا بشيء من ذلك بعدها.

شرائع طاعته، الذي جعل ما أودع عباده من نعمته دليلا هادياً لهم إلى معرفته؛ بما أفادهم من الألباب التي يفهمون بها فضل الخطاب. . ؛

ومنها: ولم تزل رسل الله عز وجل تترى بالنور الساطع والبرهان القاطع، لا يجدون لما يوردون عليهم من الحق مردا ولا مدفعا؛ لقول الله عز وجل ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم، فجاءوهم بالبينات، فانتقمنا من الذين أجرموا، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ فلم يجد المكذبون مساغاً إلا دفع ما أقيم عليهم من لازم الحجة إلا المعاندة والمجاحدة، وكان أنبياء الله صلوات الله عليهم يبعثون في أعصار الحقب نُذُراً للأمم حتى ختمهم الله عز وجل بالنبي الأمي محمد صلى الله عليه وسلم، فبعثه فرداً وحيداً لا عاضد ولا رافد إلى قوم يعبدون أصناماً بكما، وحجارة صما، فكذب به القوم الذين بعث فيهم أول ما دعاهم، ورامه ملوك أقطار الأرض بتوجيه الأجناد، ومرافدة القوم والعتاد وهو يدعو إلى سبل ربه بما أمره به إذ يقول: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتي هي أحسن). ثم جاهد بمن أطاعه مَنْ عصاه، وبمن اتبعه مَنْ خالفه حتى أعز الله كلمته، وأظهر دعوته، وأكمل لعباده دينهم الذي ارتضى لهم، فلما اختار الله ما لديه، واختصه بما عنده من النعيم المقيم، والجزاء الكريم بعد استقامة الدين ودخول الناس فيه أفواجا، خلفه ـ إذ ختم به الأنبياء ـ بالبررة والنجباء من أدانيه ولُحْمته، لإقامة الشرائع المفترضة، وإنفاذ حكم الله المنزل، واقتفاء السنة المأثورة، وحفظا له في قرابته ومجيبي دعوته، وإتماماً لما أوجب له من الفضيلة، وقريب الوسيلة، وإنجازاً لما وعده من إظهار ما بعثه به من دينه الذي اصطفاه وارتضاه.

وكان اختيار أولي الفضل من لُحْمته وعصبته لإرث خلافته من عظيم الزلف التي رغب إلى الله فيها أنبياؤه وفيما اقتصّ في منزل وحيه، واختص تبارك وتعالى، نبيه صلى الله عليه وسلم بما أمره به من مسألة أمته تصيير مودته في القربى، جزاءه ممن تبعه على الرسالة، وهداه من الضلالة، فكانت فضيلتهم عزيمة من الله عز وجل، دون طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم. الزمه تأديته إلى خلقه، وألزمهم أداءه فقال عز وجل. ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً

إلا المودة في القربى﴾، ودل بما أخبر به وأظهره من تطهيره إياهم، وإذهابه الرجس عنهم، على اصطفائه لهم، فقال تعالى: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾ وكان مما أوجب لهم به حق الوراثة في محكم تنزيله قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ ثم قرن طاعتهم بطاعته فقال:

﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وأحلهم من النباهة والصيت بالمحل الذي أعلى به أمرهم، ورفع به ذكرهم، لما أحب من التبيين في الدلالة عليهم، والهداية إليهم فإنه يقول عز وجل:

﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾.

ثم ختمها بقوله، وأمير المؤمنين يسأل الله الذي دل على الدعاء تطولا، وتكفل بالإجابة حتماً فقال عز وجل: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ أن يجمع على رضاه ألفتكم، وأن يصل على الطاعة حبلكم، وأن يمتعكم بأحسن ما أودعكم من مننه، ويُوزعكم عليها من شكره ما يواصل لكم مزيده وأن يكفيكم كيد الكافرين، وحسد الباغين، ويحفظ أمير المؤمنين فيكم بأفضل ما حفظ به إمام هدى، في أوليائه وشيعته، ويحمل عنه ثقل ما حمله منكم وبالله يستعين أمير المؤمنين على ما ينوي من جزائكم بالحسنى وحملكم على الطريقة المثلى، وبه يرضى ناصراً ووليأ، ﴿وكفى بالله وليا، وكفى بالله نصيرا والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته﴾[1].

وهي رسالة طويلة ضافية دعا الى بسطها ذلك المقام الخطير عقب مقتل الأمين وهو كما نعلم ابن زبيدة الهاشمية... وثمة موقف آخر دعا أبا الفضل إلى مثل هذه الإطالة ونعني به موقف الحسن بن سهل من المأمون عقب مقتل أخيه ذي الرياستين (الفضل بن سهل).

يقول الرواة:

---

(١) المنظوم والمنثور ١٢/١٧٣.

«ولما قتل الفضل بن سهل سنة ٢٠٢ استوزر المأمون بعده أخاه الحسن جبرا لمصابه في قتل أخيه، فأمر الحسن احمد بن يوسف فكتب عن لسانه رسالة يشكر فيها للمأمون صنعه، وهي:

«أما بعد، فالحمد لله، القاهر القادر، الخالق الرازق، فاطر السموات والأرض، الذي أحاط بكل شيء علما، ونطق به خبرا، وأتقنه حكمة وعلما، وألف بين مختلفه ومتفقه، ليدل بقوام بعضه على بعض، على اتصال تدبير مشيئته ومبتدعه، وأنه أحد صمد لا ضد له ولا ند، إذ قدر له حاجته ثم شدها ببلاغها إلى الغاية التي جعلها فقال الله عز وجل: ﴿وان من شيء إلا عندنا خزائنه، وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾، وحكى عن نجيه موسى عليه السلام، (قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) وقال الله تعالى: ﴿وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾ ثم لم يكلف العباد من شكره كفاء نعمته، بل رضي منهم باليسير، وقبل منهم العفو، وجعل طاعتهم اياه عائدة عليهم بجزيل الحظ في دينهم ودنياهم، لغناه عن عبادتهم، واتساع قدرته بالتطول عليهم مفتتحاً وخاتماً وبادئاً وعائداً...

والحمد لله الذي اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم نبياً لرسالته، وأئتمنه على وحيه، وأنزل عليه كتابه العزيز الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾. فأدى الى خلقه الرسالة واستنقذهم من الضلالة، وصدع بأمر ربه وجاهد في سبيله، ونصح لأمته حتى أتاه اليقين من ربه، بعد استنارة الحق، وظهور الحجة، فصلى الله عليه بشيراً ونذيرا، وداعياً إلى الله بأذنه وسراجا منيرا. قد تلافى من الهلكة وجمع الألفة بعد الفرقة، وأوضح الهدى بعد الدروس، ومعالم الرشد بعد الطموس وكان بالمؤمنين رحيما.

والحمد لله الذي قفى على آثار المرسلين، والأئمة الراشدين الهاديَ التقيَّ الطاهر الزكي، الإمام المأمون أمير المؤمنين ـ أعز الله نصره، فسد ثلمتهم، ورأب صدعهم، قلده خلافتهم، وجعله لكافة المسلمين غياثا ورحمة، وجعل ما ألهمه من العدل والاحسان إليه مِنَّة عليه ورحمة ذخرها له دون الخلفاء قبله

فيما أظهر من فضل زمانه على الأزمنة، وسياسة من تقدمه، ومنح الرعية من عطفه ونظره مالا يحمل عنهم أوبة ولا يؤدي عنهم شكره إلا هو لا شريك له، وأحسن الله جزاء أمير المؤمنين ومثوبته على صلة رحم رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي رحمه وقرابته، واختياره لولاية عهده الأمير الرضي علي ابن موسى. حفظه الله - حين أحمد سيرته، ورضي محبته، وعرف استقلاله بما قلده في هديه ودينه ووفائه بما أكد الله به عليه من عهد أمير المؤمنين أيده الله في اعتيامه من آزره وآساه بما شفع رأيه، وأنفذ تدبيره حين هم لاستصلاح ما استرعاه الله من أمور عباده لما انتضى القائم دعوته ورئيس شريعته الأمير ذا الرياستين رحمه الله، فاتخذه مكاتفاً ظهيراً ووزيراً دون مَنْ سواه، فاتبع منهاج أمير المؤمنين أيده الله، وسار بسيرته شرقاً وغرباً ونجداً، موفياً بعهده، قائماً بدعوته، مقتفياً لأثره وسنته فحسم الله به الأدواء، وقمع به الأعداء: من عتاة الأمم وطواغيت الشرك وأبار على يده أهل الشقاق والنفاق في كل أفق وطرف بجد أمير المؤمنين - أعزه الله - وبركة سياسته ودولته، ونجح سعى من قام بنصرة من قام بحقه، وأنار برهانه - حتى توفاه الله - عز وجل - حين بلغ همته وغايته، وحم اجله وانقطعت مدته، سعيداً حميداً شهيداً فقيداً عند إمامه - أكرمه الله -وعند الخاصة والعامة.

وكان من إجلال أمير المؤمنين الحادث الذي نزل به فأحيا آثاره بوصف محاسنه في مشاهده، ومجامعه وترحمه عليه عند ذكره وحفظه في لحمته وأهل حرمته وفيمن كان بحمد الله على طاعته ونصيحته ما أتم به نعمته عندنا وعندكم معشر الشيعة، فقد أصبح أمره بكم متصلاً وموقعه من جماعتكم [متمكناً] يقبضكم ما قبضه ويبسطكم ما بسطه من لوعة المصيبة وحسن العقبى» إلى أن يقول:

فأية نعمة أجل قدراً، وأسنى أمراً - معشر الشيعة - من نعمة أمير المؤمنين أيده الله - عند الأمير ذي الرياستين ومراتبه التي رتبه بها؛ فإنه أعطاه رياسة الحرب ورياسة التدبير، وعقد له على رأسها علما في رأيه دعوته وقلده سيفهما وختمه بخاتم الخلافة، وخاتم الدولة، وجعل صلاته بين صاحب حرسه

وصاحب شرطته ومسيره بين أمير المؤمنين وبينهما أمامه وخلفه، وصير له الجلوس على الكرسي بحضرته وصدر كل مجلس جلسه إلا أن يؤثر به من أحب من أبناء الخلفاء؛ وقدمه في دخول داره راكباً إلى أقصى مكان ينتهي إليه أحد من بني هاشم لأنه منهم وأعظمهم غناء عنهم، فسماه صاحب دعوته وسيفه على عدوه، وبابه الذي يدخل إليه منه وولاه خيوله في أقطار الأرض ومقدمته بحضرته، وقلده من الثغور ما قد علمتم بما أفرده في عهده إلى ما انفذه من أمره في جميع سلطانه وملكه من مشارق الأرض ومغاربها. وأين يأتي الوصف على ما فضله به وقدمه، وشرفه على الناس كافة؟ ولكنا نخطر بذكره ثم نكل السامعين إلى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة.

ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته: تولى غسله وتكفينه ومباشرته لجهازه إلى حفرته بيده، وقاسى من الغصص وبرحاء الحزن وادراء العبرة، واراقة الدمعة ما حال بينه وبين الكلام، وكاد يمنعه من القول والدعاء في صلاته عليه.

ثم يفرغ من ذلك كله ليتجه إلى المأمون فيذكر غيرته على الإسلام، وفضله على الرعية ويقف حائراً متسائلاً لا يدري ماذا يفعل، وكل أياديه تستوجب الشكر والثناء. . . وكان له في ذلك تفصيل جميل نقتبس منه هذه السطور:

«فيأيها الإمام المنصور المهدي الرشيد: حزت فضائل الآباء، واهتديت بهدي الأنبياء. . . أنشكرك عن الإسلام؟ فأنت القائم به، الداعي له والناصر لحقه، أم نشكرك عن الأمصار؟ فأنت المفتتح لممتنعها عنوة، والمتطول على أهلها بالرحمة، والمنعطف عليهم بحسن الفائدة بعدما هيجت منك سورة الغضب، فأطفأت نارها، وأخمدت لهبها، وعدت غلى من سفه وأضاع حظه. أم نشكرك على المساجد؟ فأنت الذي أسستها على التقوى، وعمرتها بتلاوة القرآن، وطهرت المنابر وركبتها، تعلوها صائماً، وتنطق عليها صادقاً، وتدعو إلى الرشد عليها ناصحاً، وتختم القرآن قبل أن تبدأها محسناً، وتتلو من قوارعه ما تصيخ له الأسماع، وتلين به القلوب. أم نشكرك على البيت العتيق، والركن والمقام والحجر وزمزم ومشاعر الحج، وأنت ذببت عنها؛ وأعدت إليها

عهدها في مبعث نبيها صلى الله عليه وسلم فأمنت النازع إليها من كل فج عميق، والحالين بها من الركع السجود. . . أم نشكرك عن العوام؟ فقد البست المسلمين ثوب الأمن، وأذقتهم طعم السعة والرفاغة وعدلت بينهم بالانصاف، وتوليت دونهم النصب وآثرتهم بالراحة، أم نشكرك عن الملوك والقواد والأجناد، فأنت الذي رفعت منازلهم، ووفرت عددهم، فلم يكونوا في دهر أحد من الخلفاء أسعد ولا أحظى منهم في سلطانك؛ بما بذلت لهم من المعاون، ووليتهم من الثغور والأمصار وأدررت عليهم من الأرزاق والخواص أم نشكرك عن الأحكام والسفن، فأنت الذي أنهجت سبيلها فأوجبت فرضها، ونافست أهلها».

ثم ختمها بالدعاء لأمير المؤمنين، فكتب:

«ونحن نسأل الله عز وجعل، الذي جمع بأمير المؤمنين - مد الله عمره - ألفتنا، وعلى طاعته أهواءنا وضمائرنا، وأنالنا من الغبطة في دولته وسلطانه ما لم تحوه شيعة إمام ولا أنصار خليفة، أن يتم نور أمير المؤمنين ويعلي كعبه ويمتعنا ببقائه حتى يبلغه سؤاله وهمته في الاستكثار من البر وادخار الأجر واستيجاب الحمد والشكر، وإن يلم به الشعث ويرأب به الصدع، ويصلح على يديه الفساد، ويرتق به فتوق هذه الأمة ويثخن لسياسته ونكايته في عدوها، ويتابع الفتوح في بلدانهم حتى يؤتيه من نجح السعي، ورغائب الحظ في الدنيا ما يجزل عليه ثوابه في الآخرة وأرشد بخبائه وأصفيائه الذين يقول لهم :﴿فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين﴾[1].

ومن أبلغ ما كتبه إلى الولاة عن الخليفة:

«أما بعد، فالحمد لله ذي المنن الظاهرة، والحجج القاهرة؛ الذي قطع بينه وبين عباده المعذرة، وأردف عليهم البينة ومهلة النظرة وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم والمكتوب، وما ذخر لهم من ثواب الآخرة بالنجح

(١) المنظوم والمنثور ١٢/١٦٦

المطلوب؛ فهم في العاجلة شركاء في النعمة، وفي الآجلة شتى في الرحمة؛ يختص بها أهلها المتفعين بما ضرب لهم من الأمثال؛ وتصريف الحال بعد الحال؛ المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مدة آجالهم قبل حلول ما يتوقع وفوت ما لا يرتجع»[1].

ومن رسائله الإخوانية ما كتبه في الشوق إلى صديق:

«شوقي إليك شديد يستوي في العجز عن صفته الخطيب البليغ؛ والعي المفحم؛ قد دعاني ذلك إلى الخفض على نفسي؛ وتقديم جملة من ذكره إذا عارضت بها ما في قلبك كانت له موافقة بل كانت عليه مفضلة»[2].

على أن هذا اللسان العذب الذي يقطر الشهد المصفى إذا رضي، هو أيضاً اللسان المرير الذي يقطر السم الزعاف؛ ولكل مقام مقال، كرسالته التي كتبها الى بني سعيد بن مسلم وفيها:

لولا أن الله عز وجل، ختم نبوته بمحمد صلى الله عليه وسلم؛ وكتبه بالقرآن؛ لبعث لكم نبي نقمة، وأنزل فيكم قرآن غدر؛ وما عسيت أن أقول في قوم. محاسنهم مساوي السفلة، ومساويهم فضائح الأمم؛ وألسنتهم معقولة بالعي؛ وأيديهم معقودة بالبخل؛ وأعراضهم أغراض للذم وهم كما قال الشاعر:

لا يكثرون وإن طالت حياتهم ولا تبيد مخازيهم وان بادوا[3]

وكذلك ما كتبه في الذم ورواه صاحب العقد، كقوله:

«أما بعد، فإني لا أعرف للمعروف طريقاً أوعر من طريقه إليك؛ فالمعروف لديك ضائع؛ والشكر عندك مهجور؛ وإنما غايتك في المعروف أن تحقره؛ وفي وليه أن تكفره»[4].

---

(١) إختيار المنظوم ٢٦٩/١٣

(٢) المرجع السابق ٢٩٦/١٣

(٣) زهر الآداب ٤٠/٢

(٤) العقد ١٩٦/٢

ومن بالغ اعتذاره ما كتبه الى بعض الإخوان:

«لي ذنـوب إن عـددتهـا جلت؛ وإن ضممتهـا الى فضلك حسنت؛ وقـد راجعت إنـابتي، وسلكت طـريق استقـامتي، وعلمت أن تـوبتي في حـجتي، وإقراري أبلغ في معذرتي... فهذا مقام التائب من جرمه، المتضمن حسن الفيئة على نفسه؛ فقد كان عقابك بالحلم عني أبلغ من أمـرك بالانتصـاف مني، فإن رأيت أن تهب لي ما استحققتـه من العذوبـة لما تـرجوه من المثـوية فعلت إن شاء الله».

ومن أوجز ما كتبه في هذا الباب رسالته:

«أمـا بعد: فـإن لكل ذنب عفـوا أو عقوبـة، وذنوب الخـاصة عنـدك مستورة مغفورة، فأما مثلي من العامة فذنبه لا يغفـر، وكسره لا يجبـر، فعاقبني بـإعراض لا يؤدي الى مقت».

توقيعاته:

كـان طبيعياً أن يؤثـر عنه كثير من التوقيعـات، وهـو الـوزيـر الأريب الـذي نيـطت به شؤون الـدولة في أزهى عصـورها الأدبيـة والكاتب الأديب الـذي بذ الكتاب.

* وقع إلى رجل غصب ضيعـة غيره وهـو غائب عنهـا واستغلها سنـين، فلما عـاد صاحبهـا وطالبـه بهـا قـال: الضيعـة لي وفي يـدي: فـوقـع إليـه أحمـد بن يوسف. الحق لا تخلق جدته، وإن تطاولت بالباطل مدتـه، فإن نـطقت حجتك بإفصاح، وأزلت مشكلها بإيضاح ـ غير (لي وفي يـدي)؛ فكثيراً مـا أراها ذريعـة الغاصب وحجة المغـالب. وقر حقـك عليك، وسيق بـلا كبر إليـك، وإن كنت من البيـان إليها، ووقفت من الاحتجـاج عليها. كـانت حجتـه بـالبينـة أعـلى، وكان بما يدعيه أولى إن شاء الله».

* * *

ووقع إلى عامل ظالم.

الحق واضح لمن طلبه، تهديه محجته، ولا تخاف عثرته. وتؤمن في السر مغبته فلا تنتقلن منه، ولا تعدلن عنه، فقد بالغت في مناصحتك فلا تحوجني إلى معاودتك، فليس بعد التقدمة إليك إلا سطوة الإنكار عليك.

* * *

ووقع إلى رجل استماحه:

«وددت لو ملكت بغيتك لبلغتك أمنيتك، ولكني في عمل قصدت فيه اتخاذ المحامد وعدلت عن اقتناء الفوائد، فبُخِسَ نصيبي من الوفر، ووفر حظي من الشكر. وقد أمرت لك بما يجل عنه قدرك، غير مختار له (بل مضطراً إليه) «فليكن منك عذر فيه، وشكر عليه إن شاء الله».

حكمه:

ومن حكمه البليغة قوله:

* عبرات الأقلام في خدود كتبها، أحسن من عبرات الغواني في صحون خدودها.

* بالأقلام تساس الاقاليم.

* القلم لسان البصر يناجيه بما استتر عن الأسماع، إذا نسج حلله وأودعها حكمه.

* مجالسة البغضاء تثير الهموم، وتجلب الغموم، وتؤلم القلب، وتقدح في النشاط، وتطوي الانبساط.

* إذا لم تستطع أن تعض يد عدوك فقبِّلها.

هذا ولقد بلغ من اهتمامه بالكتابة وشدة تمرسه بها أن شُغل بها أيضاً عقله الباطن إن عزت عليه وهو يقظان. . ! استمع إليه يقول:

أمرني المأمون أن أكتب إلى النواحي في الاستكثار من القناديل في المساجد في شهر رمضان، فأعيا علي، ولم أجد مثالاً احتذي عليه، فبت مغموماً فأتاني آت في منامي فقال: اكتب:

«فإن في ذلك عمارة للمساجد وإضاءة للمتهجدين، وانسا للسابلة ونفيا لمكامن الريب، وتنزيهاً لبيوت الله عز وجل عن وحشة الظلم». . فانتبهت وقد انفتح لي ما أريد، فابتدأت بهذا وأتممت عليه[1].

أسلوبه:

كان لتربيته الدينية، وتمرسه بأسلوب القرآن الكريم أثر واضح في نثره، وقد رأينا في بعض رسائله كثر استشهاده بالآيات البينات وكيف كان بارعاً في ذلك الاقتباس حتى ليظن القارىء أن الآية الكريمة نزلت لذلك الموضع دون سواه. . . ثم هو بعد ذلك يراوح بين السجع الممتع أو الازدواج والكلام المرسل غير أن سجعه أكثر ما يرى في التحميدات وبعض الرسائل السلطانية التي تتطلب من الألفاظ قوة آسرة تساند قوة المعنى، هذا ولقد كان في رسائله الخاصة ميالا إلى الايجاز، أما في رسائله الديوانية فقد رأيناه يساير العرف من البسط والتفصيل والاستشهاد شأنه في ذلك شأن غيره ممن يحسنون سياسة الخلفاء ويأسرون قلوبهم بسحر البيان وحضور البديهة وقوة الحجة.

ناظر يوماً أصحاب الصدقات بين يدي أمير المؤمنين فألزمهم الحجة وقال (ظلموا رسول الله. كيف يرضون بعده؟) قال تعالى: ﴿ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وأن لم يعطوا إذا هم يسخطون﴾ فعجب المأمون من حسن انتزاعه وحضور مراده، وأمن على صدقه وأمر بإخراجهم.

وفيه يقول الخطيب البغدادي: (كان أحمد بن يوسف من أفاضل كتاب المأمون وأذكاهم، وأجمعهم للمحاسن. جيد الكلام. فصيح اللسان. حسن اللفظ مليح الخط).

أما جعفر بن يحيى فقد بلغ الغاية في بيان منزلته الأدبية: بقوله:

عبد الحميد أصل وسهل بن هرون فرع، وابن المقفع ثمر، وأحمد بن يوسف زهر. وهي شهادة خالصة من كاتب أديب خبير بفن القول بصير بمواقع الكلام.

---

(١) الأوراق ١/٢٣١، الصناعتين ٢٢، زهر الآداب ٢/٤٠ (كتاب بغداد ٦/٢٣٧)

(٤) سهل بن هرون

بـالقـرب من واسط، وبـين البصـرة والأهــواز تقـع مــدينـة «دستميســان» الفارسية، التي بها ولد الكاتب الأديب ابو عمر سهل بن هرون بن راهبون، وبهـا قضى أيام صباه، ولقن علومـه الأولى. ثم انتقـل إلى البصـرةـ في منتصف القرن الثاني للهجرةـ كغيره من أبناء جنسه، الـراغبين في التفصح بالعـربية من معينيهـا، فقـد كـانت البصـرة إذ ذاك قبلة الإسـلام، وخـزانـة العـرب كـما يقولون. . التقت فيها ثقافات الأمم المجاورة، وامتـزجت بها حضـارات القرون الأولى.

ويبدو أن الأعاجم في هذا العهد ـ عهد النفوذ الفارسي ـ لم يقنعوا أن يعوضوا ما فاتهم أيام بني أمية؛ بل أرادوا أن يتسنموا مناصب الدولة من أقصر الطرق وأوضحها فلم يجدوا إلا طريق العلم والأدب، واستـطاعوا أن يـزاحموا العـرب في ميادينهم الأصيلة لغوية وشرعية ونحوية، ثم انفردوا بثقافتهم الأعجمية الخاصة. تلك التي مهدت لهم طريق «الكتابة» التي جمعت بين بلاغتي العرب والعجم. . . وكان في طليعة هؤلاء الأعاجم الذين قبضوا على ناصيتها وآل اليهم أمرها، سهل بن هرون الذي لمع نجمه في عهدي الرشيد والمأمون.

في بلاط الرشيد

كـان طبيعياً وهـو من صنائـع البرامكـة، أن ينفسح لـه بلاط الـرشيـد، فهم فــرس متعصبــون، وبيــدهم السلطان. . . احتضنـوا المـوالي، ومكنـوا لهم في دواوين الخلافة، واعتمدوا عليهم في مختلف الشؤون.

يذكر الرواة أنه دخل على الرشيد، وهو يضاحك ابنه المـأمون فقـال: «اللهم زده من الخيـرات، وأبسط له من البـركـات حتى يكـون في كـل يـوم من أيـامـه مـربياً عـلى أمسه، مقصـراً عن غده» فقـال الـرشيـد: يـا سهـل. من روى من الشعـر أحسنه وأرصنـه، ومن الحديث أفصحـه وأوضحـه، إذا رام أن يقـول لا يعجـزه القول. فقـال سهل: يـا أمير المؤمنـين. مـا ظننت أن أحـدا تقـدمني إلى هذا المعنى. قال: بل أعشى همدان حيث يقول:

رأيتك أمس خير بني لؤي   وأنت اليوم خير منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً   كذاك تزيد سادة عبد شمسِ

ولما ترامت الأخبار بمقتل جعفر بن يحيى، وكان سهل بين يدي أبيه يحيى يوقع في أسفل كتبه لذوي الحاجات، أكملها وهو بثوب الحداد.

وحدث أن استدعاه الرشيد، لحاجته إليه، فلما مثل بين يديه عرف ذعره في تجريض ريقه، والتمايد في طريقه، وشخوصه ببصره إلى السيف قال: إيهاً يا سهل. من غمط نعمتي، واعتدى وصيتي، وجانب موافقتي أعجلته عقوبتي. قال سهل: فوالله ما وجدت جوابها حتى قال: ليفرخ روعك، وليسكن جأشك، وتطيب نفسك، وتطمئن حواسك؛ فان الحاجة إليك قربت منك، وأبقت عليك، بما يبسط منقبضك، ويطلق معقولك، فاقتصر على الإشارة دون اللسان؛ فإنه الحاكم الفاصل، والحسام الناصل، وأشار إلى مصرع جعفر وهو يقول:

من لم يؤدبه الجميـ   ـل ففي عقوبته صلاحه

قال سهل: فوالله ما أعلمني عييت بجواب أحد قط غير جواب الرشيد يومئذ، فما عولت في شكره، والثناء عليه إلا على تقبيل يديه، وباطن رجليه. ثم قال لي: إذهب فقد أحللتك محل يحيى بن خالد، ووهبتك ما ضمنته ابنيته وحوى سرادقه، فاقبض الدواوين، واحص حباءه وحباء جعفر لنأمرك بقبضه إن شاء الله».

قال سهل: فكنت كمن نشر من كفن وأخرج من حبس، فأحصيت حباءهما فوجدت عشرين ألف ألف دينار. . .

في بلاط المأمون:

ظل سهل في خدمة الرشيد ـ بعد أن دالت دولة البرامكة ـ زهاء ست سنوات (١٨٧ ـ ١٩٣)، فلما ولي الأمين، واشتعلت الفتنة بين الأخوين لزم بيته حتى خمدت بمقتل الخليفة، وقيام دولة المأمون وبقيامها عاد النفوذ الفارسي

من جديد وعلى رأسه الفضل بن سهل وأخوه الحسن، وبتدبيرهما عاد سهل إلى البلاط، وصار بلباقته وفصاحته من خاصة المأمون. . . ؛ فقد ذكروا أن المأمون ذات يوم تحدث لجلسائه بحديث ذهب فيه كل مذهب، فلما فرغ من كلامه، وما أحار أحد جواباً، أقبل سهل على الجمع وقال:

«ما لكم تسمعون ولا تعون، وتشاهدون ولا تفقهون، وتفهمون ولا تتعجبون، وتتعجبون ولا تنصفون؟ والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ما فعل بنو مروان وقالوا في الدهر الطويل: عربكم كعجمكم، وعجمكم كعبيدكم؛ ولكن كيف يعرف بالدواء من لا يشعر بالداء. . .»(١) ومنذ تلك اللحظة كسب قلب الخليفة. . ولم يمض غير قليل حتى كان أمين سره؛ وقيما له على بيت الحكمة، وخزانة كتبه الخاصة.

في بيت الحكمة

كان المأمون مولعاً بجمع الكتب من كل فن، لميله إلى العلم ورغبته في تنمية الحركة العلمية، فوجه عنايته الكبرى إلى نقل ذخائر التراث الأعجمي إلى العربية، وفي طلبها أرسل البعوث شرقاً وغرباً.

ذكروا أنه أرسل إلى حاكم قبرص - وبينهما مهادنة - يستأذنه في نقل ما تحت يده من كتب اليونان. فجمع الحاكم مستشاريه وعرض الأمر عليهم، فكلهم أبى إلا مطراناً واحداً أشار بسرعة إنفاذها إليه، فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها، وأوقعت بين علمائها، وتلك أراد. . .

كذلك أرسل إلى إمبراطور الروم ميخائيل الثالث. فدفع إليه ما عنده من كتب القدماء. . ومن ثم إجتمع له من هنا وهناك قدر عظيم أودعه «بيت الحكمة» وجعل سهلاً قيماً عليه وأيضاً على خزانة كتبه الخاصة. وفي هذا الجو العلمي الخالص عاش باحثاً، ومؤلفاً وقد تهيأت له أسباب البحث والنظر.

---

(١) البيان والتبيين جـ ١/٢٦٤

وعلى الرغم من رسائله ومؤلفاته العديدة التي أشار إليها ابن النديم[1]، وإلى بعضها ابو عثمان الجاحظ[2] فإنه لم يصلنا منها إلا القليل.

بلاغته وأسلوبه

أشار الجاحظ إلى أن سهلا جمع بين الخطابة والشعر والكتابة، والواقع أن بلاغة القلم عنده كانت أظهر من بلاغة اللسان، فقد تميز أسلوبه ببعض الخصائص الأدبية التي انفرد بها من بين المترسلين، وعنها أخذ الجاحظ «شيخ الكتاب» كما سنرى.

قامت طريقته على التحليل النفسي، والأسلوب الجدلي، والفكاهة وتوليد المعاني.

(أ) المعاني النفسية.

أصبح علم النفس في عصرنا الحاضر ضرورة من ضرورات المجتمع، ووسيلة من وسائل النجاح، لا يستغني عنه مرب أو طبيب أو قاض أو محام أو تاجر أو صانع كما أشرنا في «المدخل» فطن لذلك علماء البلاغة فوثقوا ما بينه وبين علومها من صلات ثم كروا ثانية على «التراث الأدبي» يرددون البصر في جوانبه النفسية، ويقومونه من جديد بهذا الميزان.

والأديب البليغ هو الذي يدرك بحاسته الفنية خلجات النفس الإنسانية في ميولها وأهوائها، وآمالها وآلامها. . فإذا خاطبها خاطبها على بصيرة، وإذا ترجم عنها كان صادق الترجمة. . . وهكذا كان سهل بن هرون. . . استمع إليه يقول محللاً معللاً:

(لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا، وكان أحدهما جميلاً جليلاً بهياً وذا لباس نبيلاً، وذا حسب شريفاً، وكان الآخر قليلاً قميئا وباذ الهيئة

---

(١) الفهرست/١٢٠

(٢) البيان والتبيين جـ ١/٥٩ (سندوبي)

دميماً وخامل الذكر مجهولاً، ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة وفي وزن واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم تقضي للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللبذاذ الهيئة على ذي الهيئة، ولشغلهم التعجب منه عن مساواة صاحبه، ولصار التعجب منه سبباً للعجب به، ولكان الإكثار في شأنه علة للاكثار في مدحه؛ لأن النفوس كانت له أحقر ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد، فإذا هجموا منه على ما لم يحتسبوه، وظهر منه خلاف ما قدروه تضاعف حسن كلامه في صدورهم، وكبر في عيونهم لأن الشيء من غير معدنه أغرب، وكلما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلما كان أطرف كان أعجب، وكلما كان أعجب كان أبدع. وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد، وتعجبهم به أكثر، والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البديع، وليس لهم في الموجود الراهن المقيم، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذي معهم في الغريب القليل، وفي النادر الشاذ، وكل ما كان في ملك غيرهم. وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم والأصحاب في الفائدة من صاحبهم. وعلى هذه السبيل يستطرفون القادم عليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعم نفعاً وأكثر في وجوه العلم تصرفاً، وأخف مؤونة وأكثر فائدة، ولذلك قدم بعض الناس الخارجي على العريق، والطارف على التليد، وكانوا يقولون: إذا كان الخليفة بليغا والسيد خطيباً فإنك تجد جمهور الناس، وأكثر الخاصة فيهم على أمرين: إما رجل يعطي كلامه من التعظيم والتفضيل والاكبار والتبجيل على قدر حالهما في نفسه وموقعهما من قلبه، وأما رجل تعرض له التهمة لنفسه فيهما والخوف من أن يعطي تعظيمه لما يوهمه من صواب قولهما وبلاغة كلامهما، ما ليس عندهما حتى يفرط في الإشفاق ويسرف في التهمة فالأول يزيد في حقه للذي له في نفسه، والآخر ينقصه من حقه لتهمته لنفسه ولإشفاقه من أن يكون مخدوعاً في أمره، فإذا كان الحب يعمي عن المساوىء فالبغض يعمي عن الحقائق والمحاسن وليس يعرف حقائق مقادير المعاني، ومحصول حدود لطائف الأمور إلا عالم «حكيم» أو معتدل الأخلاط عليم، وإلا القوي المُنّة، الوثيق العقدة، والذي لا يميل مع ما يستميل

الجمهور الأعظم، والسواد الأكثر[1].

(ب) الأسلوب الجدلي.

هذا أثر من آثار الفلسفة اليونانية التي أخذت تنتشر بالشرق منذ عهد المنصور، فقد أصبحت العقول لا تقنع إلا بالدليل، ولا تؤمن إلا عن طريق المنطق: بأقيسته، ومقدماتها ونتائجها. ومن ثم اتسعت ميادين الحوار، واستمر مرير الجدل، في الحق حينا، وفي الباطل حيناً آخر، فإذا اعوزهم الدليل لجأوا إلى التمويه والمغالطة معتمدين في ذلك على قوة اللدد وقوة الأداء وهذه مقدرة لا يقوى عليها إلا أفذاذ الكتاب من أمثال سهل بن هرون، . . . ألا تراه يخالف مألوف البشر فيحبر رسالة في تفضيل الزجاج على الذهب، وأخرى في مدح البخل وذم الكرم. وهو في هذه وتلك يحلل ويعلل ويشفع القول بالدليل. . .

إستمع إليه في رسالة إلى بني عمه حين ذموا مذهبه في البخل. . يقول:

«وعبتموني حين قلت: لا يغترن أحدكم بطول عمره، وتقوس ظهره، ورقة عظمه، ووهن قوته. وأن يرى نحوه أكثر ذريته، فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يديه، وتحويله إلى ملك غيره، وإلى تحكيم السرف فيه، وتسلبط الشهوات عليه، فلعله أن يكون معمراً وهو لا يدري، ومحدوداً له في السن وهو لا يشعر ولعله أن يرزق الولد على اليأس؛ أو يحدث عليه بعض مخبآت الدهور مما لا يخطر على البال، ولا تدركه العقول؛ فيسترده ممن لا يرده، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه أضعف ما كان عن الطلب وأقبح ما يكون به الكسب. فعبتموني بذلك، وقد قال عمرو بن العاص «اعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً».

وعبتموني حين زعمت أن السرف والتبذير إلى مال القمار، ومال الميراث، وإلى مال الالتقاط، وحباء الملوك أسرع. . وأن الحفظ إلى المال المكتسب، والغنى المجتلب، أسرع. وإن من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دخله، ومن

---

(١) البيان والتبيين جـ ١/٨٩

لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل، وإن من لم يعرف للغني قدره، فقد أوذن بالفقر، وطاب نفساً بالذل. . .

وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاقي عليكم: إن للغنى لسكرة، وإن للمال لنزوة. فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاع، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله، فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جبلة، ليس أحد أقصر عقلاً من غني آمن الفقر، وسكر الغنى أشد من سكر الخمر.

وعبتموني حين زعمت أني أقدم المال على العلم: لأن المال به يفاد العلم، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضل العلم، فهو أصل، والأصل أحق بالتفضيل من الفرع. وأني قلت إنا كنا نستبين الأمور بالنفوس فإنا بالكفاية نستبين، وبالخلة[1] نعمى، وقلتم كيف تقول هذا، وقد قيل لرئيس الحكماء، ومقدم الأدباء: العلماء أفضل أم الأغنياء. قال: بل العلماء. قيل: فما بال العلماء يأتون باب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء ابواب العلماء قال: لمعرفة العلماء بفضل الغنى، ولجهل الأغنياء بفضل العلم.

فقلت: حالهما هي القاضية بينهما، وكيف يستوي شيء ترى حاجة الجميع اليه، وشيء يغني بعضهم فيه عن بعض.

(جـ) طابع الفكاهة:

هذا لون جديد من ألوان الأدب، قرن باسم الجاحظ، كإمام لهذا الفن غير أن أبا عمرو سهل بن هرون كان أسبق إليه منه، بل إن الجاحظ نفسه كان يتظرف بفكاهاته ويتفصح بنوادره. روى: أن أبا الهذيل العلاف سأل سهلاً رقعةً يكتب بها إلى الحسن بن سهل يستعينه على ضائقة لحقته، فكتب رقعة، وختمها، ودفعها إليه، فأوصلها إلى الحسن؛ فلما رآها ضحك وأوقف عليها أبا الهذيل وإذا فيها مكتوب.

---

(١) الخلة: الفقر

إن الضمير إذا سألتك حاجة — لأبي الهذيل خلافُ ما أبدى
فامنحه روحَ اليأس ثم امدد له — حبل الرجاء بمخلف الوعد
وألن له كنفاً ليحسن ظنه — في غير منفعة ولا رفد
حتى إذا طالت شقاوة جَدِّه — وعنائه، فاجبهه بالرد
وإن استطعت له المضرة فاجتهد — فيما يضر بأبلغ الجهد

ولما قرأ الحسن رقعته وقع فيها: «هذه - لك الويل - صفتك لا صفتي، وأمر لأبي الهذيل بألف دينار. فعاد إليه فعاتبه، فقال سهل: تُرى أين غرب عنك الفهم؟ أما سمعت قولي: إن الضمير خلاف ما أبدي. . . ؟ فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا. قال الجاحظ: هذه من مغالطات سهل.

وأقول ربما كانت هذه إحدى طرائقه النفسية التي يعرف بها كيف يستميل النفوس، وكيف يظفر بحاجته؟

وروى الجاحظ أيضاً أن رجلا لقي سهلا فقال: هب لي ما لا ضرر به عليك. فقال سهل: وما هو يا أخي؟ قال: درهم. قال: هونت أمر الدرهم وهو طائع الله في أرضه لا يعصى، وهو عُشْر العشرة، والعشرة عُشْر المائة، والمائة عُشْر الألف، والألف دية المسلم، ألا ترى الى أين انتهى الدرهم الذي هونته؟ وهل بيوت الأموال الا درهم على درهم، يقول الجاحظ: فانصرف الرجل، ولولا انصرافه لم يسكت.

(د) تعميق المعاني:

من المعاني ما هو عميق الغور، بعيد المنال، لا يصل إليه إلا كل ذي فكر غواص كسهل بن هرون؛ الذي كان يدرك ببصيرته ما لا يدركه سواه، ويكفي أن يتجه ذهنه الى الموضوع لتنثال عليه أشتات الخواطر: جليلها ودقيقها فيأخذ منها ما يشاء، ويدع ما يدع، ويولد منها ما يريد. . . استمع إليه يقول في تفضيل الزجاج على الذهب.

(الزجاج مجلو نوري، والذهب متاع ساتر؛ والشراب في الزجاج أحسن منه

في كل معدن، ولا يفقد معه وجه النديم، ولا يثقل اليد؛ ولا يرتفع في السوم. واسم الذهب يُتَطَيَّر منه، ومن لؤمه سرعته الى اللئام. وهو فاتن فاتك لمن صانه: وهو أيضاً من مصايد إبليس، ولذلك قالوا: أهلك الرجال الأحمران، والزجاج لا يحمل الوضر، ولا يداخله الغمر. ومتى غسل بالماء وحده، عاد جديداً، وهو أشبه شيء بالماء، وصفته عجيبة وصناعته اعجب.

وحكى دعبل الخزاعي الشاعر قال:(١)

أقمنا يوماً عند سهل بن هرون، وأطلنا الحديث حتى أضر به الجوع، فدعا بغدائه، فأتى بصفحة فيها مرق تحته ديك هرم، فأخذ كسرة وتفقد ما في الصفحة فلم يجد رأس الديك، فبقي مطرقاً ثم قال للغلام: أين الرأس؟ قال: رميت به. فقال: ولم؟. قال: لم أظنك تأكله. قال: ولم ظننت ذلك فوالله اني لأمقت من يرمي برجله فكيف برأسه؟ ولو لم أكره ما صنعت إلا للطيرة والفأل لكرهته. أما علمت أن الرأس رئيس يتفاءل به، وفيه الحواس الخمس، ومنه يصيح الديك. ولولا صوته ما أريد، وفيه عرفه الذي يتبرك به، وعينه التي يضرب بصفائها المثل فيقال: شراب كعين الديك، ودماغه عجيب لوجع الكلية، ولم أر عظماً قط أهش تحت الأسنان منه. وإن كان بلغ في نبلك أنت لا تأكله فعندنا من يأكله. أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ومن رأس العنق؟ انظر أين رميته، فقال والله ما أدري قال: أنا والله أدري أنك رميت به في بطنك، فالله حسيبك.

هذا ومن بديع قوله: القلم لسان الضمير، إذا عرف أعلن أسراره، وأبان آثاره.

وقوله: إذا كان الحب يعمي عن المساوىء، فالبغض أيضا يعمي عن المحاسن، وكان يقول: سياسة البلاغة أشد من البلاغة، كما أن التقوّي على الدواء أشد من الدواء...

---

(١) سرح العيون/١٥٣

هـذا هو سهـل بن هرون الأديب، وتلك هي طـريقتـه التي مهـدت السبيـل لأبي عثمان الجاحظ. . . أمـا سهل بن هـرون الشعوبي فقـد تحدثنـا عنه في غـير هـذا المقام[1]. وحسبـك أن تعلم أن رسالتـه السـالفـة في «ذم الكـرم وتفضيـل البخل عليه»، أثر من آثار عصبيتـه الفارسيـة لأن الكرم من سجـايا العـرب التي يفتخـرون بهـا عـلى العجم، وينـددون ببخلهم، فـأراد «سهـل» أن يقـطع عـلى العـرب مناط هـذا الفخر، ويقلب الـوضع بـادعائـه أن الكـرم عنـوان السّفـه، والبخل آية التدبير.

(١) أنظر كتابنا مظاهر الشعوبية في الأدب.

(٥) عمرو بن مسعدة

أبـو الفضل، عمـرو بن مسعدة بن صـول بن صول، يلتقي مـع ابراهيم بن العبـاس في جد أبيـه «صول بن صـول» وكان هـذا الجد رجـلاً تركيـاً وفـد إلى فـارس، وملك جرجـان ودان بالمجـوسية، ثم أسلم عـلى يـد يـزيـد بن المهلب حينـما ظهر بجـرجان، وصـار من أعوانـه. ذكر يـاقـوت أنـه كـان يحـارب معـه ويكتب عـلى سهامـه: صول يـدعوكم إلى كتـاب الله وسنة نبيـه، ولما بلغ ذلـك ابن عبد الملك قال والغيظ ينفـخ أوداجه: ويـلي على ابن الغلفـاء مالـه وللدعـاء إلى كتاب الله وسنة نبيه، ولعله لا يفقه صلاته.

كـان ابن مسعدة كـما ذكر الجهشيـاوري ـ مولى خـالد بن عبـد الله القسري، وكان يكتب له، كما كتب لخالـد البرمكي، ومن بعـده كتب لأبي أيوب المـورياني وزير المنصور على ديوان الرسائل.

في هذا الجو نما أبو الفضل وترعـرع، وتجلت موهبتـه الأدبية منـذ كتب لجعفر ابن يحيى حتى تـوفي سنـة ٢١٧ في خـلافـة المـأمـون بعـد أن تقلب في منـاصب الـدولـة ودواوينهـا، وحسبـك أن يكـون من بينها ديـوان الخـاتم والتـوقيـع والأزمة[١]، وهكذا عرفته السياسة كما عرفـه الأدب.. ذكروا أنـه كان لـه فرس أغر محجل، أعجب به المأمون.. فلما بلغه ذلـك بادر إلى إهـدائه إليـه خشية أن يطلبه منه بنفسه فلا يكون له كبير الفضل.. كما بعث معه بهذه الأبيات:

يـا إمـامـاً لا يـدانـيـ ـه ـ إذا عـدّ ـ إمـام
فضـل النـاس كـما يفـ ـضـل نـقـصـانـاً تمـام
قـد بـعـثـنـا بـجـواد مـثـلـه لـيس يـرام
فـرس يـزهـى بـه لـ ـحـسـن سـرج ولجـام
دونـه الخـيـل كـما دو نـك في الـفضـل الأنـام
وجـهـه صبـح ولـكـن سـائـر الجـسـم ظـلام
والـذي يـصـلح لـلمـو لى، عـلى العبـد حـرام

---

(١) أمراء البيان جـ ١/ ٢٠٠

خلقه:

قال الحسن بن وهب: بلغ العتابي الشاعر أن عمرو بن مسعدة ذكره عند المأمون بسوء فقال:

قد كنت أرجو أن تكون نصيري ... وعلى الذي يبغي عليَّ ظهيري
وطفقت آمل ما يُرجَّى سيبُه ... حتى رأيت تعلقي بغرور
فحضرت قبرك ثم قلت دفنته ... ونفضت كفي من ثرى المقبور
ورجعت مفترياً على الأمل الذي ... قد كان يشهد لي عليك بزور

فبلغ الشعر عمْراً فركب من وقته إلى العتابي في موكبه حتى اعذر له.

وقال الحسن بن سهل: كنا في مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع فجاءته عطسة، فلوى عنقه فردها، فرآه المأمون، فقال: يا عمرو لا تفعل فان رد العطسة وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعا في العنق، فقال بعض ولد المهدي ما أحسنها من مولى لعبده، وإمام لرعيته، فقال المأمون: وما في ذلك؟ هذا هشام اضطربت عمامته، فأهوى الأبرش الكلبي إلى إصلاحها، فقال هشام: إنا لا نتخذ الأخوان خولا، فالذي قال هشام أحسن مما قلته، فقال عمرو: يا أمير المؤمنين: إن هشاماً يتكلف ما طبعت عليه فما تعدل به، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا قيامك بحق الله، وإنك والملوك كما قال النابغة:

ألم تر أن الله أعطاك سورة ... يُرَى كل ملك دونها يتذبذب
لأنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعتْ لم يبدُ منهن كوكب

كتابته وبلاغته:

وصف الفضل بن سهل بلاغته فقال: هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله، فاذا رامه بعد عليه، وهذا كما قيل لجعفر بن يحيى: ما حد البلاغة؟ فقال: هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فإذا رامها استصعبت عليه. بل هذا هو (السهل الممتنع).

ذكر الرواة أنه كان والي المأمون على فارس وكرمان، وحدث أن تأخرت أعطيات الجند، فكتب إلى المأمون يقول: (كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من قواده ورؤساء أجناده في الانقياد والطاعة على أحسن ما يكون عليه طاعة جندٍ تأخرت أرزاقهم، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم، فاختلت لذلك أحوالهم، والتاثت معه أمورهم). فلما قرأه المأمون قال لوزيره أحمد بن يوسف: إن في هذا الكتاب نظير ما سمعت الرشيد يقوله في البلاغة: (إنما هي التباعد عن الإطالة، والتقرب من معنى البغية؛ والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على ذلك، ودفع إليه الكتاب ثم قال: إن آستحساني إياه حملني على إجابة مطلبه). فما سر هذا الإعجاب بها يا ترى؟ وبم غزت قلبَ الخليفة فأطلقت يده؟ الواقع أنها رسالة فريدة في بابها؛ لأنها جمعت بين النصيحة والإنذار. وحمّلت الخليفة مغبة التراخي أو التفريط في حقوق الجند. كل ذلك بأسلوب لبق رقيق إن دل على شيء فإنما يدل على براعة ابن مسعدة في مخاطبة الملوك.. أتراه يصطنع مثل هذا مع الرعية؟ انظر إليه وهو ينكر على أبي المرازي ـ الوالي باليمن ـ موقفه من الزيادية وزوجها البصري، وتفريقه بينهما بحجة أنها من قريش... واقرأ معي رسالته التي كتبها إليه بأمر المأمون:

(إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادية وخلعك إياها إذ كانت من قريش، فمتى تحاكمت اليك العرب لا أم لك في أنسابها؟ ومتى وكلتك قريش يا ابن اللخناء بأن تلصق بها من ليس منها، فخلِّ بين الرجل وامرأته، فلئن كان زياد من قريش إنه ابن سمية، بغى عاهرة لا يفتخر بقرابتها، ولا يتطاول بولادتها، ولئن كان ابن عبيد لقد باء بأمر عظيم داعي لغير أبيه لحظ تعجله، وملك قهره).

وفي رسائله الخاصة ترى الموهبة على فطرتها، والقريحة على سجيتها وصله كتاب صديق، بعد مرارة الانتظار، وحرارة الأفكار. فكتب اليه يقول:

(وصل إليّ كتابك على ظمأ مني إليه، وتطلع شديد، وبعد عهد بعيد ولوم مني على ما مسستني به من جفائك ـ على كثرة ما تابعت من الكتب وعدمت من

الجواب ـ فكان أول ما سبق إلي من كتابك السرور بالنظر اليه، أنساً بما تجدد لي من رأيك في المواصلة بالمكاتبة، ثم تضاعف المسرة بخبر السلامة، وعلم الحال في الهيئة ورأيتك بما تظاهرت من الاحتجاج في ترك الكتاب سالكاً سبيل التخلص مما أنا مخلصك منه بالإغضاء عن الزامك الحجة في ترك الابتداء والإجابة، وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثيرة متظاهرة مملة، لا اجشمك متابعة الكتب، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب، ويقنعني منك في كل شهر كتاب، ولن يلزم من نفسك في البر قليلا إلا ألزمت نفسي منه كثيراً، وإن كنت لا أستكثرشيئاً منك. أدام الله مودتك، وثبت إخاءك واستماح لي منك، فرأيك في متابعة الكتب ومحادثتي فيها بخبرك موفقاً إن شاء الله تعالى)[1].

ومن رسائله الخاصة أيضاً ما كتبه على لسان المأمون الى الحسن بن سهل يهنئه بمولود: (أما بعد: فان هبة الله لك، هبة لأمير المؤمنين، وزيادته إياك في عددك، زيادة له في عدده، لمحلك عنده، ومكانك من دولته، وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاماً سرياً فبارك الله لك فيه، وجعله باراً تقياً، مباركاً سعيداً زكياً).

ومنها كذلك ما كتبه إلى الحسن بن سهل: «أما بعد فانك ممن إذا غرس سقى، وأذا أسس بنى ليستتم تشييد أسّه، ويجتني ثمار غرسه، وبناؤك عندي قد شارف الدروس، وغرسك مشف على اليبوس، فتدارك بناء ما أسست، وسقيَ ما غرست إن شاء الله».

ومن أوجز ما كتبه رسالته إلى بعض أصحابه في شخص عزيز:

(أما بعد: فموصل كتابي إليك سالم والسلام).

أراد قول الشاعر:

يديرونني في سالم وأديرهم ... وجلدة بين العين والأنف سالمُ

أي يحل مني هذا المحل:

---

(١) إختيار المنظوم والمنثور ٢٦٢/١٢

حكمه:

لعمرو بن مسعدة كثير من الحكم البالغة التي أحكمتها التجارب، فمن ذلك قوله:

* إخوان السوء كشجر في النار يحرق بعضه بعضاً.
* من لم يقدم الامتحان قبل الثقة، والثقة قبل الأنس أثمرت مودته ندماً.
* العتاب حياة المودة، ويبقى الود ما بقي العتاب.
* ظاهر العتاب خير من باطن الحقد.
* كمون الحقد في الفؤاد ككمون النار في الزناد.
* العبودية عبودية الإخاء لا عبودية الرق.
* الود أعطف من الرحم.
* لا تأمنن عدواً وإن كان مقهوراً، واحذره، وإن كان مفقوداً، فإن حد السيف فيه وإن كان مغموداً.
* لقاء الخليل شفاء العليل.
* النفس بالصديق آنس منها بالعشيق، وغزل المودة أرق من غزل الصبابة
* عليكم بالإخوان فإنهم زينة في الرخاء وعدة للبلاد.
* نصح الصديق تأديب، ونصح العدو تأنيب.

أسلوبه:

كان ابن مسعدة واضح العبارة، محكم التراكيب التي تجرى مع الطبع، غير أنه كان يلجأ أحياناً إلى التعريض والتلميح بدلاً من الإفصاح والتصريح، حتى لا يؤخذ باقراره كما في رسالته التي بعث بها إلى المأمون حينما تأخرت أعطيات الجند، وتلك طريقة خاصة أملتها عليه لباقته وحياته الطويلة في بلاط الخلفاء، ومن تعريضه أيضاً كتابه إلى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع له بالزيادة في منزلته عنده، ذكر فيه.

(أما بعد، فقد استشفع بي فلان، يا أمير المؤمنين، لتطولك عليّ في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب

المستشفعين، وفي ابتدائه بذاك تعدّى طاعته والسلام).

فكتب إليه المأمون. قد عرفنا تصريحك وتعريضك لنفسك، وأجبناك اليهما، ووقفناك عليهما.

وإذا تدبرت رسائله - عامة وخاصة - لم تجد بها لفظة وحشية أو كلمة سوقية، وهذا ما جعلها رخيمة الجرس في آذان السامعين... ثم هي بعد ذلك موجزة تارة، مطنبة أخرى بحسب المقام، وبالايجاز كما يقولون فاز بجائزة البلاغة، وبهذه البلاغة نال الحظوة لدى الخلفاء، فلما كان المأمون أكرمه حيا وميتا، فقد رفع إليه أنه خلف بعد وفاته ثروة طائلة تربو على ثمانين ألف ألف درهم، فوقع المأمون على الرقعة: (هذا قليل لمن اتصل بنا، وطالت خدمته لنا، فبارك الله لولده فيه).

أما إطنابه فكان قائماً على الازدواج الطبيعي، من غير تكلف أو معاناة، ومن خلال عبارته تنبعث موسيقى التوازن وتعادل الفقرات... فما أشبهه في ذلك بعبد الحميد الكاتب، أما حكمه البالغة، وأقواله المأثورة فكان يتعلق فيها بغبار ابن المقفع، وبذلك جمع بين محاسن الطريقتين.

(٦) إبراهيم الصولي

أبو إسحق، الكاتب الشاعر، إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول بن صول. يلتقي مع عمرو بن مسعدة في جده الأكبر صول بن صول التركي أصلاً، الفارسي إقامة.

ولد أبو إسحق، وتلك كنيته ـ في بغداد، في أوائل خلافة الرشيد، سنة ١٧٦ في بيت عرف بالأدب والسياسة، فنشأ هذه النشأة الواعية التي مهدت له في بلاط العباسيين، وبخاصة حينما اتصل ـ هو وأخوه عبد الله ـ بذي الرياستين الفضل بن سهل. الذي رفع من شأنهما، حتى صارا من صنائعه.

ولما عزم المأمون على الفتك بوزيره، وعلم ذلك إبراهيم، خشي على ولي نعمته، فأخبره بما علم، الأمر الذي أنضج عليه قلب المأمون. غير أنه قد استطاع بلباقته، وحسن جوابه أن يظفر منه بالعفو عنه والعطف عليه.

بدأت حياته السياسية في عهد المعتصم، وأخذ يتنقل في الدواوين وجليل الأعمال وما زال كذلك إلى أن مات بمدينة «سر من رأى» في خلافة المتوكل سنة ٢٤٣ وهو على ديوان النفقات والضياع.

خصومه:

استوزر المعتصم سنة ٢٢٠ الكاتب الألمعي محمد بن عبد الملك الزيات الذي قبض على شؤون الدولة بيد حازمة أمينة، فلم تمنعه صداقته القديمة لإبراهيم الصولي من أن يحاسبه حساباً عسيراً على ما تحت يده من أموال الدولة. . . حساباً كشف عن خطئه وإهماله وتلاعبه بموارد الديوان، وعبثاً حاول أن يعاتبه أو يستعطفه، فلما أعيته الحيل بسط فيه لسانه بالعتاب تارة وبالهجاء أخرى، فمن عتابه قوله:

وكنت أخي بإخاء الزما ... ن فلما تباعدت حربا عوانا
وكنت إليك أذم الزما ... ن فأصبحت فيك أذم الزمانا
وكنت أعدك للنائبا ... ت فها أنا أطلب منك الأمانا

ولما عزله عن الأهواز، واعتقله بها وآذاه كتب يقول:

فلو إذ نبا دهر وأنكر صاحب ... وسلط أعداء وغاب نصير
تكون عن الأهواز داري بنجوة ... ولكن مقادير جرت وأمور
وإني لأرجو بعد هذا محمداً ... لأفضل ما يرجى أخ ووزير

من رقيق إستعطافه أيضاً قوله:

فهبني مسيئا مثل ما قلت ظالما ... فعفواً جميلا كي يكون لك الفضل
فإن لم أكن بالعفو منك، لسوء ما ... جنيت؛ به أهلا، فأنت له أهل

ولما أعيته الحيل أطلق فيه لسانه بالهجاء. . . استمع إليه يقول:

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروة ... فأصبحت ذا يسر وقد كنت ذا عسر
فقد كشف الإثراء منك خلائقاً ... من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

ولما قلده. . المتوكل. . ديوان الضياع اهاج ذلك حفيظة منافسيه في البلاط، وبخاصة أحمد بن المدبر، وكان مقدماً عليه في الكتابة، فتوجه إلى الخليفة وقال له:

(قلدت ابراهيم ديوان الضياع، وهو متخلف في هذا الشأن، لا يحسن منه قليلاً ولا كثيراً، وطعن عليه طعناً قبيحاً، فقال المتوكل: في غد أجمع بينكما، واتصل الخبر بإبراهيم فأيقن بحلول المكروه، وعلم أنه لا يفي بأحمد بن المدبر في صناعته، وغدا إلى دار السلطان آيساً من نفسه ونعمته وحضر أحمد فقال المتوكل: قد حضر إبراهيم وحضرت، ومن أجلكما قعدت، هات اذكر ما كنت فيه بالأمس. فقال أحمد: أي شيء أذكر عنه فإنه لا يعرف أسماء عماله في النواحي، ولا يعرف ما في دساتيرهم من تقديرهم وكيولهم، وحمل من حمل منهم، ومن لم يحمل، ولا يعرف أسماء النواحي التي تقلدها، وقد اقتطع صاحبه بناحية كذا كذا ألفا، واختلت ناحية كذا في العمارة، وأطال في ذكر هذه الأمور فالتفت المتوكل إلى إبراهيم، فقال ماسكوتك؟ فقال: يا أمير المؤمنين جوابي في بيتي شعر قلتها، فإن أذن أمير المؤمنين أنشدتهما، فقال هات. فأنشده.

رَدّ قولي. وصدق الأقوالا   وأطاع الوشاة والعذالا
أتراه يكون شهر صدود   وعلى وجهه رأيت الهلالا[1]

يروى أن المتوكل حينما سمع ذلك ـ وكان ابن المدبر حينما حضر إليه قد رأى هلال الشهر على وجهه ـ قال: زه. زه، أحسنت: إيتوني بمن يعمل في هذا لحنا، وهاتوا ما نأكل، وجيئوا بالنساء، ودعونا من فضول ابن المدبر، واخلعوا على إبراهيم بن العباس، فخلع عليه.

أدبه وبلاغته:

عرفه الأدب شاعراً وناثراً، وكان مجوداً في الصناعتين حتى قال دعبل: لو تكسب إبراهيم بالشعر لتركنا في غير شيء. وكان يعجب بقوله:

ان امرأ ضن بمعروفه   عني لمبذول له عذري
ما أنا بالراغب في خيره   إن كان لا يرغب في شكري

يقول ياقوت[2]: كان ابراهيم بن العباس، وأخوه عبد الله من وجوه الكتاب وكان عبد الله اسنهما، وأشدهما تقدماً، وكان ابراهيم آدبهما، وأحسنهما شعراً، وكان إذا قال شعراً اختاره وأسقط رذله، وأثبت نخبته فمن ذلك قوله:

ولكن الجواد أبا هشام   وفيُّ العهد مأمون المغيب
بطيءٌ عندما استغنيت عنه   وطلاع عليك مع الخطوب

أشار ابن النديم إلى مختلف تصانيفه، فذكر له ـ عدا ديوان الشعر ـ ديوان الرسائل. وكتاب الدولة، وكتاب العطر، على أنه لم يصلنا منها إلا طائفة من شعره ورسائله مبثوثة في كتب الأدب والتاريخ. . فمن ذلك قوله من رسالة له في قتل اسحاق بن اسماعيل[3]: (. . . وقسم الله عدوه أقساماً ثلاثة: روحاً معجلة إلى عذاب الله، وجثة منسوبة لأولياء الله، ورأسا منقولا إلى دار خلافة

(١) معجم الأدباء جـ ١/ ١٧٩.
(٢) معجم الأدباء جـ ١/ ١٦٨
(٣) تاريخ الطبري جـ ١٢/ ٣٨٣

الله. استنزلوه من معقل إلى عقال[1]، ويدلوه آجالاً من آمال، وقديماً غذت المعصية[2] أبناءها، فحلبت عليهم من درها[3] مرضعة، وبسطت لهم من أمانيها مطمعة، وركبت بهم مخاطرها موضعة[4]، حتى إذا وثقوا[5] فأمنوا، وركبوا فاطمأنوا، وانقضى رضاع، وآن فطام، سقتهم سماً؛ ففجرت مجاري ألبانها منهم دما، وأعقبتهم من حلو غذائها مرا، ونقلتهم من عز إلى ذل ومن فرحة إلى ترحة ومن مسرة إلى حسرة، قتلاً وأسراً، وغلبة وقسرا، وقل من أوضع في الفتنة مرهجا[6]، واقتحم لها مؤججاً إلا استلحمته[7] آخذة بمخنقه، وموهنة بالحق كيده، حتى جعلته لعاجله جزرا ولآجله حبطا وللحق موعظة، وعن الباطل مزجرة، (أولئك لهم خزي في الدنيا، ولعذاب والآخرة أكبر، وما ربك بظلام للعبيد).

يروى أن الكاتب عبد الله بن عمرو من بني «عبد كان» المصريين، كان يستصغر كتاب (سر من رأى) لّما وردها، ولا يرضى أحدهم، فلما أدخلوه على ابراهيم بن العباس وهو يملي هذه الرسالة قال: هذا من لم تلد النساء مثله؛ فإني سمعته يملي شيئاً كأنه نذير مبين[8].

ولما قرأ ابراهيم بن العباس على المتوكل رسالته إلى أهل حمص الخارجين عليه، والداعين إلى العصبية، وهي:

«أما بعد، فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه ـ مما قوّم به من أود، وعدّل به من زيغ، ولمّ به من منتشر ـ استعمال ثلاث يقدم بعضهن على

---

(١) الحبل يعقل به البعير، كناية عن الأسر

(٢) في الطبري (العصبية)

(٣) الدر: اللبن

(٤) وضعت الناقة وأوضعت: اسرعت

(٥) هذه رواية الطبري، وفي مروج الذهب رتعوا

(٦) الرهج: الغبار وأرجه الغبار: أثاره

(٧) استلحم الطريدة. تبعها

(٨) أمراء البيان جـ ١/٢٦٧

بعض، أولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف، ثم التي لا يقع بحسم الداء غيرها...[1].

أناة، فإن لم تغن عقّب بعدها وعيدا، فإن لم يغن أغنت عزائمه

عجب المتوكل من حسن ذلك، وأومأ إلى عبيد الله بن يحيى بن خاقان: أما تسمع! فقال: يا أمير المؤمنين: إن ابراهيم فضيلة خبأها الله لك، وذخيرة ذخرها على دولتك[2].

ومن غرر نثره رسالته التي يستعطف فيها ابن الزيات ومنها:

(كتبت إليك، وقد بلغت المدية[3] المحز، وعدت الأيام عليّ بعد عدواي بك عليها، وكان أسوأ الظن، وأكثر خوفي أن تسكن في وقت حركتها، وتكف عن لذاتها، نصرتَ أضرَّ عليَّ منها، فكفَّ الصديقُ عن نصرتي خوفاً منك، وبادر إلى العدو تقرباً إليك، وكتب تحت ذلك:

أخ بيني وبين الدهـ ـر صاحبَ أيّنا غلبا[4]
صديقي ما استقام وإن نبا دهر على نبا
وثبتُ على الزمان به فعاد به وقد وثبا
ولو عاد الزمان لنا لعاد به أخاً حدبا[5]

ومن تحميداته قوله:

(أما بعد. فالحمد لله الأول بلا أبد يحصى، والآخر بلا أمد يفنى، الظاهر لخلقه بعزته، العزيز في سلطانه بعظمته، الفرد بوحدانيته بقدرته المدبر في ملكه بجبروته، الذي نأى عن الأشياء أن يكون فيها محويا، واتصل بها فلم يك من

---

(١) معجم الأدباء جـ ١/١٨٧.
(٢) وفيات الأعيان جـ ١/١٠
(٣) المدية: السكين، وبلغت المدية المحز مثل يقال عندما تبلغ الشدة غايتها ومثله بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطبيين.
(٤) يصف نوعاً من الصداقة الزائفة التي ينعم بها حيناً، ويشقى بها أحياناً
(٥) معجم الأدباء جـ ١/١٧١ والأغاني جـ ٩/٢٦.

علمها خليا، وهو فيها غير مستكن، ومعها غير مماس في لجج البحار ومفاوز القفار، وشوامخ الجبال، وكثبان الرمل، مع كل خلق في كل أفق وعلى كل شرف ومكان، وفي كل وقت وأوان. موجود إذا طلب، قريب حيث ندب، عالم خفيات الغيوب، وخطرات القلوب، وما في السموات وما في الأرض. (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا خمسة إلا هو سادسهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض، ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين)(١).

ومن حكمه قوله:

* (الكريم أوسع ما تكون مغفرته إذا ضاقت بالذنب معذرته)(٢).

وقوله في أحد توقيعاته في كتاب ورد عليه بمدح رجل وذم آخر:

* (إذا كان للمحسن من الجزاء ما يقنعه، وللمسيء من النكال ما يقمعه، بذل المحسن الواجب عن رغبة، وانقاد المسيء للحق عن رهبة)(٣).

ومن بديع تشبيهاته قوله:

مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلا، ثم وقعوا منه، أقربهم إلى التلف أبعدهم من الارتقاء.

ومن محكم ايجاره ما كتبه شفاعة لرجل إلى بعض إخوانه.

«فلان ممن يزكو شكره، ويحسن ذكره، ويعنيني أمره، والصنيعة عنده واقعة موقعها، وسالكة طريقها.

وأفضل ما يأتيه ذو الدين والحجى   إصابة شكر لم يضع معه أجر(٤)

(١) أمراء البيان جـ ١/٢٦١ - ٢٧٠.
(٢) أمراء البيان جـ ١/٢٧٠
(٣) جمهرة الرسائل جـ ٤/٤٦١
(٤) الأغاني جـ ٩/٢٥

أسلوبه:

جمع أسلوبه بين الإيجاز الذي بلغ حد التوقيعات كما رأينا، وبين الإطناب الذي يقتضيه المقام، كما في تحميده الذي صدر به رسالة الخميس[1] وكما في رسالته التي كتبها على لسان المتوكل إلى عماله في الآفاق[2]، فقد بسط القول بالمزاوجة، والاعتراض بالدعاء، والتقسيم والتفريع شأنه في ذلك شأن أستاذه عبد الحميد كل هذا مع زهد في السجع واكتفاء بموسيقى الازدواج، وإخضاع اللفظ للمعنى، فضلاً عن زهده في الغريب.

وفيه يقول أبو زيد البلخي: (كان من أبلغ الناس في الكتابة حتى صار كلامه مثلاً، كتب كتاب فتح عجيبا، أثنى على الله وحمده، ثم قال في خلال ذلك: وقسم الفاسق أقساماً ثلاثة: روحا معجلة إلى نار الله، وجثة منصوبة بفناء معقله، وهامة منقولة إلى دار خلافته)[3].

نقول: وهذا هو التقسيم والتفريع والاستقصاء الذي أشرنا إليه وهكذا كان ابراهيم بن العباس، خصب الخيال، في شعره ونثره، فجود في الفنين حتى صار إماما في الصناعتين..

اعتمد الصولي على نفسه، فلم يكتب إلا من عفو خاطره، ووحي قلمه ذكر عن نفسه أنه لم يقتبس إلا مرتين، اقتبس في إحداهما معنى لمسلم بن الوليد، وفي الأخرى معنى لأبي تمام، والواقع أن كلامه صار مثلاً يحتذى حتى ضارع الأمثال في الشهرة، لا غرو إن كان يلقب بكاتب العراق.

---

(١) اختيار المنظوم والمنثور جـ ٢٧٢/١٣

(٢) أمراء البيان ص ٢٧١ ـ ٢٧٤.

(٣) معجم الأدباء جـ ١٩٤/١.

(٧) الجاحظ

شيخ الكتاب، وإمام الأدباء، أبـو عثمان عمـرو بن بحر بن محبـوب الملقب بـالجـاحظ. . . يتصـل نسبـه بكنـانـة بن خـزيمـة، كـما يقـول البلخي[١] وابن خلكان[٢]، فهو إذاً عـربي النسب، مضري الأرومـة. . . وما كـان لنا أن نشـك في ذلك لولا أن ياقوتا الحموي ينفي عنه هذه النسبـة العربيـة، ويزعم أنـه كناني بالولاء[٣]، وأن جده فزارة كـان مولى أبي القلمس عمـرو بن قلع الكناني، ومن ثم فتح باب التظني في نسبه، وتبعه كثيرون.

ونرى أنه عربي الأصل، كنـاني صليبة، فقـد أمضى العمر في نصـرة العرب، ومناهضة الشعوبية. . . ولو كان الأمـر كما زعم يـاقوت لـرأيناه يحـطب في حبال الموالي.

مولده ومماته:

ولـد الجاحظ في منتصف القـرن الثاني للهجـرة، قبـل سنـة ١٥٠ هـ، وقيـل سنـة ١٥٩، وقيـل سنـة ١٦٠، وإذا صـح مـا يـرويـه هـو عن نفسـه يتعـين لميلاده أولها، فقـد أثر عنـه أنه قـال: «أنا أسن من أبي نـواس بسنة، ولـدت في أول سنـة ١٥٠ وولد في آخـرهـا»[٤]. . . أمـا وفـاتـه فكـانت سنـة ٢٥٥ هـ في خلافة المعتز بالله.

كانت هذه الفترة من الزمان من أزهى الفترات علماً وأدباً. . . فيها نضجت العلوم، ونشطت الترجمة عن الفارسيـة واليونـانية، وازدهـر الأدب شعراً ونثـراً، وتـطورت الكتابـة عـلى أيـدي المـوالي، وسمت منـزلـة الكتـاب حتى كـان منهم الوزراء والحجاب.

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٦/٧٤.
(٢) وفيات الأعيان ترجمة رقم (٤٧٩).
(٣) يـاقـوت ١٦/٧٤.
(٤) ياقوت ١٦/٧٤.

نشأته وثقافته:

نشأ بالبصرة، وهي من قديم كعبة العلم، ومهبط العلماء؛ فيها نشأ النحو، وازدهر الشعر، وفيها عاش جهابذة اللغة، وأرباب الفتيا والكلام... من أمثال أبي الأسود، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وأبي عمر بن العلاء، والأخفش الأكبر، والأصمعي، وأبي عبيدة، وخلف الأحمر، وواصل بن عطاء إمام المعتزلة، وأبي اسحق ابراهيم النظام... فضلاً عن التابعين: أبي الحسن البصري وابن سيرين، والصحابيين الجليلين: أبي موسى الأشعري، وأنس بن مالك.

وكان مسجدها الكبير يموج بهؤلاء الأعلام الذين عرفوا «بالمسجديين» وكان مربدها كعبة القصاد والوراد من الخطباء والشعراء، حتى عرف بعكاظ الإسلام، فيه يلتقي العربي بالعجمي، والحاضر بالبادي...

في هذه البيئة العلمية نشأ الجاحظ، ويبدو أنه استهل حياته فقيراً بعد موت أبيه، فقد كان في حداثته يبيع الخبز والسمك «بسيحان»... غير أن ميله إلى العلم، وإدمانه القراءة، وصبره الطويل، قد مهد له كل ذلك طريق النبوغ، وبالتالي طريق الثراء والشهرة.

فما كاد يجتاز مرحلة الطفولة، في أحد الكتاتيب، حتى تلقف الفصاحة شفاها من عرب المربد، واللغة من أبي عبيدة والأصمعي، وأبي زيد الأنصاري، والنحو من الأخفش، كما أخذ الحديث عن أبي يوسف، والكلام عن النظام.

وفي طلب المزيد كان يكتري دكاكين الوراقين[1]، ويبيت فيها الليالي ساهراً، ينظر في تراث السابقين، ولم يفته أن يتأدب بآداب الفرس، وحكمة الهند، وفلسفة اليونان، ومن ثم كان فصيح اللسان، واضح البيان، غزير العلم، قوي الحجة، سليم المنطق...، ضرب في كل فن، وجلّى في كل

---

(١) معجم الأدباء ١٦/٧٥

ميدان، وبينا تراه شيخ الكتاب، وإمام المؤلفين، تراه أيضاً إماما في المتكلمين وحجة في الاخباريين. . ، بصيراً بطبائع الكائنات وعجائب المخلوقات. . .

حياته الأدبية:

ذكروا أن الجاحظ - في أوائل حياته - كان يؤلف الكتب، وينسبها إلى ابن المقفع أو سهل بن هرون، ليقبل عليها القراء، فلما عرف فضله، ولمع نجمه انعكست الآية، وصار الوراقون يجمعون من الآثار ما يجمعون، وينسبونه لأبي عثمان ليكتب له الرواج. . . ومن ذلك كتاب «المحاسن والأضداد» المنسوب إليه، وليس على غرار كتبه، فضلاً عما به من شعر لابن المعتز، وهو لم يدرك الشاعر إلا في طفولته ولما طبقت شهرته الآفاق تطلعت إليه أنظار الوزراء والخلفاء.

يروى أن المأمون حينما قرأ كتابه «الإمامة» وأعجب به، استدعاه إليه، وقال له: «قد كان بعض من نرتضي عقله، ونصدق خبره، خبرنا عن هذه الكتب بأحكام الصنعة، وكثرة الفائدة. فقلنا: قد تربي الصفة على العيان، فلما فليتها أربى الفلي على العيان، كما أربى العيان على الصفة» ثم ألطفه وأدنى مجلسه، وأقامه على «ديوان الرسائل»؛ مما أوغر صدر الموالي - سدنة هذا الديوان. . . ألا ترى سهل بن هرون - قيم بيت الحكمة - يقول: «إذا ثبت الجاحظ في الديوان، أفل نجم الكتاب»[1]؟.

ويبدو أن الجاحظ أدرك ذلك، أو توقعه، فنراه يستعفي من هذا المنصب على جلاله وخطره، بعد ثلاثة أيام.

ولعل أسعد أيام حياته وأزهاها تلك التي جمعت بينه وبين الوزير الكاتب محمد بن عبد الملك الزيات، الذي وزر للمعتصم ثم الواثق.

لقد جمعت بينهما العقيدة المذهبية، فضلاً عن الموهبة الأدبية، فالجاحظ من أئمة الاعتزال، وابن الزيات من أتباع «جهم بن صفوان» وبين المذهبين توافق في كثير من المسائل، كالقول بخلق القرآن».

---

(١) معجم الادباء جـ ١٦ / ٧٩

كان الجاحظ يجالسه، ويؤاكله، ويرافقه في سفره. . . فلما ألقي القبض على ابن الزيات في خلافة المتوكل، وآل الأمر إلى منافسه أحمد ابن أبي دؤاد خشي على نفسه ولاذ بالهرب، ولما سئل في ذلك قال: «لا أحب أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور»[1] يشير بذلك إلى التنور الذي كان قد أعده ابن الزيات لتعذيب أعدائه في أيام سطوته وعذب فيه في أيام محنته.

ولما سيق إلى ابن أبي دؤاد مكبلا، قال له: «والله ما علمتك إلا متناسياً للنعمة، كفوراً للصنيعة، معدداً للمساوىء، وما فُتّني باستصلاحي لك، ولكن الأيام لا تصلح منك، لفساد طويتك، ورداءة داخلتك، وسوء اختيارك، وتغالب طبعك» فقال الجاحظ: «خفض عليك ـ أيدك الله ـ فوالله لأن يكون لك الأمر عليَّ خير من أن يكون لي عليك، ولأن أسيء وتحسن أحسن في الأحدوثة عنك من أن أحسن فتسيء، ولأن تعفو عني في حال قدرتك أجمل بك من الانتقام مني» فقال له ابن أبي دؤاد: «قبحك الله، ما علمتك إلا كثير تزويق الكلام، وقد جعلت ثيابك أمام قلبك، ثم اصطفيت فيه النفاق والكفر» وكأنه أراد تحقيق ما يعتقده الجاحظ في تفسير آيات القرآن. فتابع: ما تأويل هذه الآية: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة. إن أخذه لأليم شديد﴾[2]؟. . . قال: تلاوتها تأويلها، أعز الله القاضي. فقال: «جيئوا بحداد» فقال: «أعز الله القاضي. . . ليفك عني أو ليزيدني؟» فقال: «بل ليفك عنك».

فجيء بالحداد، فغمزه بعض أهل المجلس أن يعنف بساق الجاحظ، ويطيل أمره قليلاً، فلطمه الجاحظ وقال: «اعمل عمل شهر في يوم، وعمل يوم في ساعة، وعمل ساعة في لحظة، فإن الضر على ساقي، وليس بجذع ولا ساجة، فضحك ابن أبي دؤاد وأهل المجلس منه[3].

وقال ابن أبي دؤاد لمحمد بن منصور ـ وكان حاضراً ـ: «أنا أثق بظرفه، ولا أثق بدينه» ثم قال: «يا غلام. صِرْ به إلى الحمام، وأمط عنه الأذى،

(١) معجم الأدباء جـ ١٦/٧٦.

(٢) سورة هود (١٠٤)

(٣) معجم الأدباء جـ ١٦/٨٠.

واحمل إليه تخت ثياب»... فلبس ذلك، ثم أتاه فتصدر في مجلسة. ثم أقبل عليه القاضي، وقال: «هات الآن أحاديثك يا أبا عثمان»[1].

مكث الجاحظ ببغداد، في حاشية ابن أبي دؤاد، وابنه الوليد من بعده، ولما أصيب بالفالج بعد أن تجاوز الثمانين من عمره، آثر العودة إلى البصرة مسقط رأسه، وعكف على التأليف، وصار بيته قبلة لكل شاد في الأدب، أو عائد يهون عليه مصابه... سأله المبرد عن حاله، فقال: كيف يكون من نصفه مفلوج؛ لو نشر بالمناشير لما أحس، ونصفه الآخر مُنَقْرس، لو طار الذباب بقربه لآلمه، والأمر في ذلك أني قد جزت التسعين، وأنشد:

أترجو أن تكون وأنت شيخ ... كما قد كنت أيام الشباب؟
لقد كذبتك نفسك ليس ثوب ... دريس كالجديد من الثياب[2]

مذهبه:

الجاحظ خطيب المعتزلة، وأحد شيوخها، أخذ الكلام عن النظام كما ذكرنا، وخالف أصحابه في بعض الفروع التي بها تميزت فرقته (الجاحظية) وفي ذلك يقول ياقوت عن المرزباني:.. كان أبو عثمان الجاحظ من أصحاب النظام، وكان واسع العلم بالكلام، كثير التبحر فيه؛ شديد الضبط لحدوده، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا، وله كتب كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين، وفي حكاية المخالفين، وفي الآداب والأخلاق، وفي دروب من الجد والهزل، وقد تداولها الناس، وقرأوها، وعرفوا فضلها، وإذا تدبر العاقل المميز أثر كتبه، علم أنه ليس في تلقيح العقول، وشحذ الأذهان، ومعرفة أصول الكلام وجواهره، وإيصال خلاف الإسلام، ومذاهب الاعتزال إلى القلوب - كتب تشبهها، والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة، وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال، ويميزون الأمور[3].

(١) معجم الأدباء جـ ١٦/ ٨٠.
(٢) الروائع عدد ١٨ ص «ط» عن ابن الأنباري ص ٢٥٩
(٣) ياقوت ١٦/ ٧٦.

اعتمد الجاحظ في تقرير مذهبه، ومجادلة خصومه على العقل، مستعيناً بالفلسفة اليونانية التي تسلح بها أحرار الفكر في الإسلام. من أجل هذا كان قوي الحجة، كما يتضح في دفاعه عن الإسلام ومجادلته اليهود والنصارى، ورده على المشبهة، والرافضة، والزنادقة، يقول الغزالي: (ذهب الجاحظ إلى أن مخالف ملة الإسلام من اليهود والنصارى والدهرية إن كان معانداً على خلاف اعتقاده فهو آثم، وإن نظر فعجز عن درك الحق فهو معذور غير آثم، وإنما الآثم المعذب هو المعاند فقط؛ لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وقد عجزوا عن درك الحق، ولزموا عقائدهم خوفاً من الله تعالى إذا استد عليهم طريق المعرفة)[1].

ويقول ابن الخياط: ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في المشبهة، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوة، وكتابه في نظم القرآن، علم أن له في الإسلام غناء عظيماً لم يكن الله - عز وجل - ليضيعه له. ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن، وعجيب تأليفه، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ)[1].

أما دفاعه عن العرب فقد أفردنا لذلك فصلاً ضافياً في كتابنا «مظاهر الشعوبية في الأدب» أحطنا فيه بمطاعنهم على العرب، ورد ابي عثمان عليهم، ومناهضته إياهم في كثير من مؤلفاته[2].

آثار الجاحظ:

لم يترك الجاحظ فناً من فنون القول إلا طرقه، ولا مجالاً من مجال البحث إلا جال فيه عن بينة حتى كأنه فارس ميدانه، أحصى له ابن النديم نيفاً وسبعين ومائة كتاب، وهي لا تعدو أن تكون رسائل، طويلة أو قصيرة،

---

(١) المستصفى للغزالي جـ ٢/٣٥٩

(٢) أمراء البيان جـ ٢/٤٣٩

(٣) انظر: مظاهر الشعوبية ص ٤٤٠ وما بعدها

اللهم إلا قلة منها أظهرها: كتاب «الحيوان» والبيان والتبيين، والبخلاء والعثمانية، والتاج، فإنها إلى حد كبير، كتب جامعة، ودوائر معارف واسعة[1].

(١) كتاب الحيوان:

هو أوسع مؤلفاته، وأغزرها علماً، يقع في سبعة أجزاء كبيرة، بدأه بمقدمة ضافية، تعرض فيها لمنتقدي كتبه، وأنحى عليهم باللوم، ثم انتقل إلى الحديث عن العالم فجعله قسمين: جامداً، ونامياً هو الحيوان والنبات. ثم تحدث عن الكواكب، والطيور والأسماك، ثم خرج من ذلك إلى البيان وأقسامه، والكتب وفوائدها، والخط وأنواعه، مختتماً الجزء الأول بالحديث عن الكلب والديك، وما قيل فيهما شعراً ونثراً. . . .

ومما هو جدير بالذكر أن الجاحظ لم يقتصر في هذا الكتاب على الحيوان كما قد يتبادر إلى الأذهان، بل تجاوزه إلى مباحث أخرى ربما أربت عليه فقد كان كثير الاستطراد والتفريع، ويخرج بالقارىء من آية قرآنية إلى أثر نبوي، ومن أثر إلى خبر، ومن خبر إلى شعر، ومن شعر إلى حكمة أو نادرة.

وبهذا صار الكتاب معرضاً أدبياً علمياً لإحدى (حدائق الحيوان) من حيث أنه جمع فيه الكثير من طبائع الحيوان وما قيل فيه من شعر أو نثر أو روى حوله من قصص وأخبار، مزج فيه الجاحظ بين الجد والهزل ليدفع السآمة والملل عن القارىء أو السامع وروى جملة من الفكاهات التي ـ كما يقول ـ تضحك كل ثكلان وإن تشدد، وكل غضبان وإن أحرقه لهيب الغضب، فمن ذلك قوله:

حدثني المديني قال: تحول أبو عبد الله الكوفي اللحياني إلى الحربية، فادعى أنه فقيه، وظن أن ذلك يجوز له لمكان لحيته وسمته، وألقى البواري ـ الحصير

---

(١) قام بتحقيقها الأستاذ عبد السلام هرون، إلا كتابي التاج والبخلاء، فقد حقق الأول أحمد زكي باشا، وحقق الثاني: الجارم والعوامري، واستدرك عليهما الحاجري ما فاتهما في تحقيقه الجديد

ـ وجلس إليه الجيران، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله. رجل أدخل إصبعه في أنفه فخرج عليها دم. فأي شيء يصنع؟ قال يحتجم. قال الرجل. قعدت طبيباً أم فقيهاً؟

وعن محمد بن سليمان قال: قال رجل من أهل الكوفة لرجل من أهل المدينة، نحن أشد حباً لرسول الله منكم يا أهل المدينة. قال المدني: فما مبلغ حبك لرسول الله؟ قال: وددت أني وقيت رسول الله، وأنه لم يكن وقع عليه، في (يوم أحد) ولا غيره شيء يكرهه إلا كان بي دونه.. قال المدني أفعندك غير هذا؟ قال: وما يكون غير هذا؟... قال: وددت أن أبا طالب كان آمن فسر به النبي، وأني كافر... ولم يقف في إستطراده عند ذلك؛ بل خرج منه إلى نوادر الشعر، وأخيراً عاد إلى موضوعه الأول عن «الحمام».

ويبدو أن الجاحظ قد خشي من القراء أو النقاد أن يأخذوا عليه هذه الطريقة المضطربة، فقال في تبريرها والانتصار لها (على أني قد عزمت. والله الموفق أن أوشح هذا الكتاب، وأفصل ابوابه بنوادر من ضروب الشعر، وضروب الأحاديث، ليخرج قارىء هذا الكتاب من باب إلى باب، ومن شكل إلى شكل؛ فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة، والأغاني الحسنة، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها...

اطلع الجاحظ على كتاب «الحيوان» لأرسطو، ولم يمنعه وهو فيلسوف اليونان أن يناقشه في بعض المسائل، ويعارضه... استمع اليه يقول:

«وزعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان، فسألت أعرابياً عن ذلك، فزعم أن ذلك حق. فقلت له فمن أي جهة الرأسين تسعى؟ ومن أيهما تأكل وتعض؟ فقال: أما السعي فلا تسعى، ولكنها تسعى لحاجتها بالتقلب كما تتقلب الصبيان على الرمل، أما الأكل فإنها تتعشى بفم وتتغذى بفم. وأما العض بإنها تعض برأسيها معاً. فإذا به أكذب البرية.

وتعجب كذلك مما زعمه أرسطو من أن هناك في بلدة «طيفون» حية صغيرة شديدة اللدغ إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك يقول:

ولم أفهم هذا، ولم كان ذلك؟[1].

كذلك رد على من زعم أن البلبل لا يقر له قرار أبداً، فقال: وزعموا أن البلبل لا يستقر أبداً، وهذا غلط؛ لأن البلبل إنما يقلق لأنه محصور في قفص، والذين عاينوا البلابل والعصافير في غير أوكارها وغير محصورة في الأقفاص، يعلمون فضل العصفور على البلبل في الحركة.

وهكذا كان الجاحظ يحقق ويدقق، ولا يقرر أمراً إلا إذا استقام على النظر أو أيدته المشاهدة. أهداه إلى ابن الزيات فكافأه بخمسة آلاف دينار..

(٢) كتاب البيان والتبيين.

هو كتاب الأدب، وديوان العرب، يعده ابن خلدون أحد كتب أربعة جامعة: (أدب الكاتب لابن قتيبة، والكامل للمبرد، والنوادر لأبي علي القالي، وهذا الكتاب. . ، ولا غرو فقد حشد عند كل مناسبة ما يتصل بها من مأثور القول شعراً ونثراً، آيات وأحاديث، وقصائد وأراجيز، وخطب ورسائل، وحكم وأمثال.

ويبدو أن لكنة الأعاجم ورطانتهم كانت تؤذيه، ومن ثم بدأ كتابه هذا متعوذاً من العي والحصر، وجعل ذلك مدخلاً للتغني ببلاغة العرب، وحضور بديهتم، وقدرتهم على المشافهة والارتجال، مستطيلاً بذلك كله على «الشعوبية» التي كانت تجرد العرب من كل فضيلة، حتى أنكرت عليهم «الخطابة» التي هي فيهم، ولا شك، طبع «وسليقة، ولم يفته في هذا المقام أن يعرج على خطابة زعيمه واصل بن عطاء، الذي مكنته مواهبه البيانية أن يتجنب «الراء» في خطبه الطويلة؛ لأنه كان ألثغ، وأردف ذلك بفصل طويل «لأحرف الهجاء» التي تدخلها اللثغة، وآخر «للبيان» وما ذكره بلغاء العرب والفرس والهند والروم في تعريف «البلاغة» وقد أشرنا إلى طرف من ذلك في المدخل[2].

---

(١) الحيوان جـ ٧٦/٤

(٢) انظر ص ٤، ٥، ٦ من الكتاب جـ ١ (ت: السندوبي).

ويبدو أن الجاحظ قد ألف هذا الكتاب لمناهضة هؤلاء الشعوبيين؛ فقد كشف لهم القناع، وفند مزاعمهم ومطاعنهم على العرب في الجزء الثالث وجعل أوله «كتاب العصا» التي كان يحملها العرب في أثناء خطابتهم، وأنكرها عليهم أعداؤهم من العجم، وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين[1] (وأصل هذا الباب أن الشعوبية كانوا ينكرون على العرب الخطابة، وينكرون على خطبائهم ما كانوا يصطنعون أثناء خطابتهم من هيئة وشكل وما كانوا يتخذون من أداة، وكانوا يعيبون الى العرب إتخاذ العصا والمخصرة وهم يخطبون. . فكتب الجاحظ كتاب «العصا» ليثبت فيه أن العرب أخطب من العجم، وأن اتخاذ العربي للعصا لا يغض من فنه الخطابي أليست العصا محمودة في القرآن والسنة والتوراة وأحاديث القدماء؟ ومن هنا مضى الجاحظ في تعداد فضائل العصا حتى أنفق فيها سفراً ضخماً).

يعتبر هذا الكتاب ـ من الناحية التاريخية والأدبية ـ من أعظم مصادر الشعر والخطابة والمحاورة والرسائل في الجاهلية والإسلام، نقل عنه الكثيرون كابن قتيبة، وأبي العباس المبرد، وابن عبد ربه، وأبي هلال، والحصري وابن رشيق، وعبد القاهر في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، لا غرو أن يعده ابن خلدون أحد أمهات الكتب الأربعة الجامعة كما ذكرنا. ولا غرو أيضاً أن يكافئه عليه ابن أبي دؤاد بخمسة آلاف دينار، حينما أهداه إليه، كما أهدى كتاب الزرع والنخيل إلى إبراهيم الصولي، والحيوان إلى ابن الزيات وإذا كانت أشهر كتبه هكذا قد ارتبطت بهؤلاء الوزراء، فمن اليسير أن نحدد إلى حد ما تاريخها وترتيبها الزمني، وعندها سنرى. . «البيان» مسبوقاً «بالحيوان» سابقاً. . . للزرع والنخيل. . .

لعل من نافلة القول أن نتناول مؤلفات الجاحظ بالإطراء والثناء، وقد شدا بها الزمن، وأشاد بها العلماء والأدباء.

يقول ابن العميد: كتب الجاحظ تعلم العقل أولا والأدب ثانياً[2]. ويقول

---

(١) في الأدب الجاهلي/١٨٧

(٢) وفيات الأعيان جـ ١٤٢/٣

أيضاً: ثلاثة علوم الناس كلهم فيها عيال على ثلاثة أنفس.

أما الفقه فعلى أبي حنيفة، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل العلاق، وأما البلاغة والفصاحة واللسن فعلى أبي عثمان الجاحظ[1].

ويقول ثابت بن قرة: ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس فانه

عقم النساء فلا يلدن شبيهه إن النساء بمثله عقم

وجعل ثالثهم الجاحظ - بعد عمر بن الخطاب، والحسن البصري - وفي صفته يقول: خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومدره المتقدمين، والمتأخرين إن تكلم حكى سحبان في البلاغة، وإن ناظر ضارع النظام في الجدال.. شيخ الأدب، ولسان العرب، كتبه رياض زاهرة، ورسائله أفنان مثمرة، الخلفاء تعرفه، والأمراء تصافيه وتنادمه، والعلماء تأخذ عنه، جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم، وبين الذكاء والفهم لقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

يقول السيرافي: وهذا قول ثابت. وهو قول صابىء لا يرى للاسلام حرمة، ولا للمسلمين حقاً، ولا يوجب لأحد منهم ذماماً، قد انتقد هذا الانتقاد، ونظر هذا النظر، وحكم هذا الحكم، وأبصر الحق بعين لا عشاوة عليها من الهول[2]، ونفس لا لطخ بها من التقليد، وعقل ما تحيل بالعصبية ثم يقول: ولكنا عجبنا فضل عجب من رجل ليس منا ولا من أهل ملتنا ولغتنا... يقول هذا القول، ويتعجب هذا العجب، ويحسد أمتنا بهم هذا الحسد، ويختم كلامه بأبي عثمان، ويصفه بما يأبى الطاعن عليه إلا أن يكون له شيء منه[3].

والحق أنها شهادة صادقة، خالصة لوجه الحقيقة والأدب.

---

(١) معجم الأدباء ١٦/١٠٣

(٢) هكذا بالأصل ولعلها «الهوى» أو لعل المراد من الهول: مخافة النقد.

(٣) معجم الأدباء ١٦/٩٩

أدبه وأسلوبه:

اختلف الباحثون في أسلوب الجاحظ: أمعنوي هو أم لفظي؟ فمن نظر إلى كتبه العلمية عده من أنصار «المعنى»، ومن نظر في رسائله الأدبية عده من أنصار «اللفظ» والواقع أن الجاحظ ـ وهو العالم الأديب ـ كان يصطنع في كتابته الأسلوبين: الأدبي والعلمي؛ غير أنه في كتابته العلمية كان يمزج أسلوبه برحيق الأدب؛ ليزيل جفافه، ويخفف من حدته.

وإذ كنا في معرض الحديث عن بلاغة الجاحظ، لا عن علمه فلا يعنينا سوى طريقته الأدبية التي أشرنا إليها فيما سلف عند الحديث على مدرسته الفنية»[1] التي ورثت مدرسة أستاذه عبد الحميد واصطنعت أسلوبه القائم على «الترسل الصناعي» الذي يجمع بين السجع أو الازدواج والإطناب؛ غير أن الجاحظ ـ لغزارة علمه، وإتصاله الوثيق بالفلسفة اليونانية ـ قد طور أسلوبها، ونقله من حال إلى حال، وإن ظلت جذوره تمتح من مدرسة عبد الحميد... فإلى أي حد كان هذا التطوير؟ وما مظاهره؟

جمع الجاحظ ـ في أسلوبه ـ بين ما ورثه عن أسلافه من خصائص كالسجع والازدواج والإطناب، وبين ما أملت عليه مواهبه؛ من ميله إلى التحليل والتعليل، والاستطراد والاستقصاء والمراوحة بين الجد والهزل والواقعية الطبيعية التي لا تحفل بلوم اللائمين...

-١-

كان الجاحظ في كتابته يرد الموضوع إلى مختلف عناصره، ليلم به من جميع أطرافه... فقد أملت عليه الفلسفة اليونانية التي تمرس بها، أن يحلل ويعلل، ويفترض ويستدل، فلا تراه يرسل قولاً على عواهنه، ولا يذكر قضية من غير دليل.. استمع إليه يقول في المفاضلة بين أبي بكر وعلي.

(فإن احتج محتج لعلي بالمبيت على الفراش، فبين الغار والفراش فرق

---

(١) أنظر ص ١٥٢ وما بعدها

واضح، لأن الغار وصحبة أبي بكر للنبي - صلى الله عليه وسلم - قد نطق به القرآن، فصار كالصلاة والزكاة وغيرهما مما نطق به الكتاب، وأمر علي ونومه في الفراش، وإن كان ثابتاً صحيحاً إلا أنه لم يذكر في القرآن وإنما جاء مجيء الروايات والسير، وهذا لا يوازن هذا ولا يكايله. . .

والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علي، قتله الأقران، وخوضه الحروب وليس له في ذلك كبير فضيلة؛ لأن كثرة القتل، والمشي بالسيف إلى الأقران لو كان من أعظم الفضائل، وكان دليلاً على الرياسة والتقدم لوجب أن يكون للزبير وأبي دجانة، ومحمد بن مسلمة والبراء بن مالك من الفضل ما ليس لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لم يقتل بيده ألا رجلاً واحداً، ولم يحضر الحرب يوم بدر، ولا خالط الصفوف، وإنما كان معتزلاً عنهم في العريش ومعه أبو بكر. . .

على أن مشى الشجاع بالسيف إلى الأقران على ما توهمه من لا يعلم باطن الأمر؛ لأن معه في حال مشيه إلى الأقران بالسيف أموراً أخرى، لا يصيرها الناس وإنما يقضون على ظاهر ما يرون، من إقدامه وشجاعته. . فربما كان سبب ذلك الهوج، وربما كان الغرارة والحداثة، وربما كان لمحبة النفج والأحدوثة، وربما كان طباعاً كطباع القاسي والرحيم، والسخي والبخيل[1].

هذا ولم يكن الجاحظ يحلل الموضوع فحسب، بل أنه إذا لزم الأمر، يحلل النفوس أيضاً، ويسبر أغوارها ليستشف طباعها، فإذا صور ذلك بقلمه رأيت عالماً نفسانياً في زي أديب، والأمثلة على ذلك كثيرة، فانظر إليه في تحليل نفس الحاسد وموقفه من المحسود. يقول:

الحسد - أبقاك الله- ينهك الجسد، ويفسد الأود، علاجه عسر، وصاحبه ضجر. . . فمنه تتولد العداوة، وهو سبب كل قطيعة، ومنتج كل وحشة، ومفرق كل جماعة، وقاطع كل رحم بين الأقرباء، ومحدث التفرق بين الأقرناء، يكمن في الصدور كمون النار في الحجر.

---

(١) رسائل الجاحظ (للسندوبي) ص ١٠، ١١.

فمن شأن الحاسد، إن كان المحسود، غنياً، توبيخه على المال، وقوله إنه جمعه حراماً، ومنعه أثاماً، وألب عليه محاويج أقاربه، وتركهم له خصماء، وأعانهم في الباطن، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر، وقال له: كفروا معروفك، وأظهروا في الناس ذمك، فليس أمثالهم يوصلون؛ فانهم لا يشكرون، وإن وجد له خصماً أعانه عليه ظلماً؛ فإن كان ممن يعاشره، غشه، أو تفضل عليه بمعروف، كفره، أو دعاه إلى نصرة خذله، أو حضر مدحه ذمه، وإن سئل عنه همزه، أو كانت عنده شهادة كتمها، وإن كانت منه إليه زلة عظمها. . .

وإن كان المحسود عالماً، قال: مبتدع، ولرأيه حاطب لبل، ومتبع نيل، ما يدري ما حمل، قد ترك العمل وأقبل على الحيل. . . . .

ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً، وإن كنت مصيباً. أو يرشدك إلى الصواب، وإن كنت مخطئاً. أو نصح لك في غيبته عنك، أو قصر من عيبه لك؟ هو الكلْب الكلِب، والنمر الحرِب. . . إن ملك قتل وسبى وإن ملك عصى وبغى، حياتك موته وثبوره. وموتك عرسه وسروره. يصدق عليك كل شاهد زور، ويكذب فيك كل عدل مرضي، لا يحب. . . من الناس إلا من يبغضك، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك. . . أحسن ما تكون عنده حالا أقل ما يراك عليه مالاً وأكثر ما تكون عيالاً، وأعظم ما تكون ضلالاً. . . . . .

وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه، وتخوص عينه، وإخفاء سلامه، والإقبال على غيرك، والإعراض عنك.

ثم قال: لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به، بإلزامه الهموم قلبه؛ وتسليطها عليه. . . . . . فإذا أحسست - رحمك الله - من صديقك بالحسد، فأقلل ما استطعت من مخالطته، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته»[1].

---

(١) رسائل الجاحظ (٣٣٥/٣٣٧)

-٢-

أما الاستطراء الذي درج عليه الجاحظ، وبه تميزت طريقته، فهو النتيجة الحتمية لسعة ثقافته، وتنوع معارفه. . . والواقع أن الاستطراد صفة الأدباء الذين تغلب عليهم غزارة العلم؛ إذ المعاني يدعو بعضها بعضاً، والشيء بالشيء يذكر، ومع هذا فلم تسلم هذه الظاهرة من ألسنة ناقديه، وحق لهم ذلك فإنها تشتت الذهن، وتتعب القارئ؛ وما نراها ـ كما أراد الجاحظ ـ تدفع عنه السآمة والملل.

كان الجاحظ يخرج من فن إلى فن، ومن موضوع إلى موضوع، وكأنه يجول بالقارئ في رحلة سياحية (بقطار المفاجآت)، بين بدائع الطبيعة تعرض للشعوبية في كتابه البيان والتبيين، وآلى على نفسه أن يرد عليهم في الجزء الثاني ولكن الاستطراد صرفه، وانقضى الجزء الثاني ولم يرد على الشعوبية، وإذا علمنا أن هذه كانت طريقة أهل العصر، أمكننا أن نلتمس له العذر، إذ العدالة تقضي أن ننظر إلى الأديب بعين معاصريه، وأن نحكم له أو عليه مقترناً بزمانه ومكانه.

غلبت هذه الظاهرة على سائر مؤلفاته حتى تضخمت وأصبحت «دوائر معارف» جامعة، كما أصبح كل «منها عدة كتب في كتاب، كما رأينا في كتابيه الحيوان والبيان».

-٣-

وأما فكاهة الجاحظ ودعابته، وما تبع ذلك أحياناً من تهكم وسخرية، فقد تجلت في كثير من مواقفه، ويبدو أنه كان يقصد إليها عمداً، ليتمتع القارئ أو ينأى به عن الضجر، يقول المسعودي[1] (وكان إذا تخوف ملل القارئ وسآمة السامع، خرج من جد إلى هزل، ومن حكمة بليغة إلى نادرة ظريفة)، وهو بذلك يلتقي مع (برنارد شو) في فلسفته تلك، فقد كان يقول: إذا لم

(١) مروج الذهب ٧/٢٤٤

أضحك لم يستطع الناس احتمالي».

أثر عنه كثير من «النوادر» التي وشح بها كتبه، أو التي جعلته أثيراً عند الوزراء والخلفاء حدث عن بعض تلاميذه قال: «كان من تلاميذنا من يُدعى كيسان. كان يسمع غير ما يقال، ويكتب غير ما يسمع، ويقرأ غير ما يكتب. ويفهم غير ما يقرأ».

وحدث عن نفسه فقال: «ما اخجلني أحد مثل امرأتين، رأيت إحداهما بالعسكر، وكانت طويلة، وكنتُ على الطعام، فأردت أن أمازحها، فقلت: انزلي كلي معنا. فقالت: اصعد أنت حتى ترى الدنيا...

وأما الأخرى فإنها أمَّتْني وأنا على باب منزلي، فقالت: لي إليك حاجة، وأريد أن تمشي معي، فمشيت معها حتى أتت بي إلى صائغ، فقالت له: مثل هذا، وانصرفتْ. قال: فسألت الصائغ عن قولها فقال: أتتني بفص وأمرتني أن أنقش عليه صورة شيطان، فقلت لها: ما رأيته، فأتت بك.

وأتاه مرة بعض الثقلاء فقال: «سمعت أن لك ألف جواب مسكت، فعلمني منها، فقال: نعم. قال الرجل: إذا قال لي شخص يا ثقيل الروح فأي شيء أقول له؟ قال: قل له صدقت.» وما أكثر ما أثر عنه من ملح وفكاهات...

-٤-

على أن روح الدعابة كانت تتجلى أكثر وأكثر حينما يعمد إلى التهكم والسخرية فلو نظرنا إليه وهو يداعب غريمه «أحمد بن عبد الوهاب» في رسالته الهزلية «التربيع والتدوير» لرأيت مصوراً «كاريكاتورياً» ساخراً، يجسم الملامح، ويشوه الوجوه.

كان أحمد بن عبد الوهاب يخاشنه غيرة، ويطاوله حسداً، فأنشأ فيه هذه الرسالة التي مسخته قزماً، وشوهته جسماً وعقلاً... أخبرنا أن أحمد بن عبد الوهاب كان مفرط القصر، ويدعي أنه مفرط الطول، وكان مربعاً، وتحسبه

لسعة جفرته، واستفاضة خاصرته مدوراً، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع، وهو في ذلك يدعي البساطة والرشاقة. . وكان طويل الظهر، قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدّعي أنه طويل الباد، رفيع العماد، عالي القامة، رفيع الهامة، قد أعطى البسطة في الجسم، والسعة في العلم، وكان كبير السن، متقادم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب، حديث الميلاد. وكان ادعاؤه لأصناف العلم قدر جهله بها، وتكلفه الإنابة عنها على قد غباوته فيها. . .».

فلما طال ذلك منه لم يرَ الجاحظ بداً من أن يكشف قناعه، ويدحض ادعاءه، ويعلن للملأ جهله، فبعث إليه بهذه الرسالة التي ضمنها مائة سؤال في مختلف العلوم، وهو على يقين أنه لن يحير جواباً. بدأها بقوله ساخراً:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أطال الله بقاءك، وأتم نعمته عليك وكرامته لك. قد علمت ـ حفظك الله ـ أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة، وضخم الهامة، وعلى حور العين، وجودة القد، وعلى طيب الأحدوثة، والصنيعة المشكورة، وأن هذه الأمور هي خصائصك التي بها تكلف، ومعانيك التي بها تلهج، وإنما يحسد ـ أبقاك الله ـ المرء شقيقه في النسب، وشفيعه في الصناعة، ونظيره في الحوار، على طارف قدره، أو تالد حظه، أو على كرم في أصل تركيبه، ومجاري أعراقه. وأنت تزعم أن هذه المعاني خالصة لك، مقصورة عليك، وأنها لا تليق إلا بك، ولا تحسن إلا فيك، وأن لك الكل، وللناس البعض، وأن لك الصافي، ولهم المشوب، هذا، سوى الغريب الذي لا نعرفه، والبديع الذي لا نبلغه.

فما هذا الغيظ الذي أنضجك؟ وما هذا الحسد الذي أكمدك؟ وما هذا الهم الذي قد أضناك؟ وهل رأيت أخسر صفقة، ولا أوهن قوة ممن يجري العتاق مع الكوادن، والروائع مع الحواسر؟».

وما يكاد يقسو عليه هكذا؛ حتى يبتسم له من جديد، ويطمعه فيه بعد يأس، ويوهمه أنه يمدحه من حيث يحرص على ذمه. . . فيقول:

«وبعـد. فأنت في يـدك قياس لا ينكسر؛ وجـواب لا ينقطع، ولـك حـدٌ لا يُفَـلّ، وغرب لا ينثني؛ وهـو قياسـك الذي إليـه تنسب، ومذهبـك الـذي إليـه تـذهب. أن تقـول: ومـا عـليَّ أن يـراني النـاس عـريضـاً، وأكـون في حكمهم غليـظاً، وأنا عنـد الله طويـل جميل، وفي الحقيقـة مقـدود رشيق، وقـد علمـوا ـ حفـظك الله ـ أن لك مـع طول البـاد راكباً، طـول الظهـر جالسـاً. ولكن بينهم فيـك، إذا قمت، اختلاف؛ وعليـك اذا اضطجعت مسـائـل. ومن غـريب مـا أعـطيت، وبـديـع أوتيت أنـا لم نـر مقـدوداً واسـع الجفـرة غيـرك، ولا رشيقـاً مستفيض الخـاصرة سـواك. فأنت المـديد، وأنت البسيط، وأنت الـطويل وأنت المتقارب. فيا شعراً جمع الأعـاريض، ويا شخصـاً جمع الاستـدارة والطول. بـل مـا يهمك من أقـاويلهم، ويتعاظمـك من اختـلافهم، والـراسخـون في العلم، والنـاطقون بـالفهم يعلمون أن استفـاضة عـرضك أدخلت الضيم عـلى ارتفـاع سمكـك، وأن مـا ذهب منـك عـرضـا استغـرق مـا ذهب منـك طـولاً. ولئن اختلفـوا في طولـك. لقد اتفقـوا في عرضـك، وإذا سلموا لـك بالـرغم شطراً، ومنعوك بالـظلم شطراً، فقـد حصلت ما سلمـوا لك، وأنت عـلى دعواك فيـما لم يسلمـوا. ولعمـري إن العيـون لتخـطىء، وإن الحـواس لتكـذب، ومـا الحكم القـاطع إلا للذهن، لقـد كنت في طـولـك آيـة للسـابلين، وفي عـرضـك منـاراً للضالين. . . ».

ثم تراه يحتج للعرض على الـطول بقولـه: لولا فضيلة العـرض على الـطول، لما وصف الله الجنة بقوله: ﴿وجنة عرضها السموات والأرض﴾.

وكما قال الشاعر(١):

ولا تحـسـداني بـارك الله فيـكـما من الأرض ذات العرض أن توسعاليا

وكأنما يريد الجاحظ. بذلك أن يلحق به صفـة «العرض» محـاولاً اقناعـه بأنها إحدى صفات الجمال والكمال. . . وبمثل هذا أيضاً يقول:

«ولئن قالوا في الحسن: كأنه طـاقة ريحـان، وكأنـه غصن بان، وكـأنه قضيب

---

(١) مالك بن الريب التميمي

خيزران، وكأنه رمح رديني. . فقد قالوا: وكأنه المشتري، وكأن وجهه دينار هرقلي، وكأنه الشمس، وكأنها دارة قمر، وكأنها الزهرة، وكأنها درة. . . فقد تراهم وصفوا المستدير العريض بأكثر مما وصفوا به القصيف والطويل».

ثم يقول متهكما كذلك: فأما سواد الناظر، وحسن المحاجر، وهدب الأشفار، ورقة حواشي الأجفان، فعلى أصل عنصرك، ومجاري أعراقك. وأما إدراكك الشخص البعيد، وقراءتك الكتاب الدقيق، ونقش الخاتم قبل الطبع، وفهم المشكل قبل التأمل، مع وهن الكبر وتقادم الميلاد ومع تخوّن، الأيام، وتنقص الأزمان، فمن توتيا الهند، ومن الحمية الشديدة. فأنت يا عم لكما قال الشاعر:

عجوز ترجّى أن تكون فتية	وقد لحب الجنبان واحْدَوْدَبَ الظهر
تدسّ إلى العطار ميرةَ أهلها	وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر؟

بين الجاحظ والبشري

قد لا نعلم أحداً من كتاب الفصحى، في تاريخها الطويل، جارى الجاحظ في أسلوبه هذا سوى الشيخ عبد العزيز البشري، وكان ـ كما نعلم ـ خفيف الروح، بارع النكتة عذب الحديث، وهو في جده وهزله جاحظي العبارة، جاحظي التصوير، ألا تراه في «مرآته» يحطب في حبل أبي عثمان، ويرمي عن قوسه؟ بل ما نكاد ننظر في «المرآة» ونرى ما رسمه بقلمه البياني الساخر عن «زيور باشا» وكان سميناً بديناً حتى نتذكر الجاحظ وموقفه من أحمد بن عبد الوهاب. ، وهاك طرفاً من قوله:

زيور باشا. . . ؟

أما شكله الخارجي، وأوضاعه الهندسية، ورسم قطاعاته ومساقطه الأفقية، فذلك كله يحتاج ـ في وصفه وضبط مساحاته ـ إلى فن دقيق وهندسة بارعة[1].

والواقع أن زيور باشا رجل ـ إذا صح هذا التعبير ـ يمتاز عن سائر الناس

(١) المرآة ص ٨

في كـل شيء. ولست أعني، بامتيـازه في شكله المهول، طـوله ولا عـرضَه ولا بُعْـدَ مداه. فـإن في الناس من هم أبـدن منه، وأبعـد طولا وأوفـر لحـماً، إلا أن لكل منهم هيكلاً واحداً. أما صـاحبنا فـإذا اطلعت عليه أدركت لأول وهلة أنـه مؤلف من عـدة مخلوقـات، لا تـدري كيف اتصلت، ولا كيف تعلق بعضهـا ببعض، وإنك لترى بينها الثابت، وبينهـا المختلج، ومنها مـا يدور حـول نفسه، ومنها ما يـدور حول غيـره، وفيها المتيبِّس المتحجـر، وفيها المستـرخي المترهـل، وعـلى كل حـال فقد خـرجت هضبة عـالية مـالت من شعافهـا إلى الأمام شعبـة طويلة، أطل من فـوقها عـلى الوادي رأس فيـه عينان زائغتـان، طلة من يرتقب السقوط إلى قرارة ذلك المهوى السحيق.

وإنـك لتجد نـاساً يصفـون زيور بـالدهـاء وسعـة الحيلة، بينـما تجـد آخـرين ينعتـونه بـالبساطـة، وقد يتـدلون بـه إلى حد الغفلة، كـما تجد خلقـاً يتحـدثـون بـارتفاع خلقـه، وتنزهـه عن النقائص إذ غيـرهم ينحطون بـه إلى مـا لا تجـاوره مكرمة، ولا يسكن إليه خلق محمود.

كذلك زيـور عند النـاس مجموعـة متباينـة متناقضـة متشاكسـة، فهو عنـدهم كـريم وبخيل، وهـو شجاع ورعـديـد، وهـو ذكي وغبي، وهـو طيب وخبيث، وهـو وطني حريص عـلى مصالـح البلاد، وهـو مستهتر بحقـوق وطنه يجـود منهـا بالطارف والتلاد.

كل أولئك زيـور، وكل هـذا قد يضيفـه الناس إلى زيـور، فلا تكـاد تسعهم مجالسهم بما يأخذهم فيـه من الدهشـة والاستغراب، فـإذا كان هـذا مما لا يمكن في الـطبيعة أن يستقيم لـرجل واحـد، فقد غلط النـاس إذ حسبـوا زيـور بـاشـا رجلاً واحداً، والـواقع أنـه عدة رجـال، وعلى الصحيـح هو عـدة مخلوقات، لا تـدري كيف اتصلت، ولا كيف تعلق بعضها ببعض، فـإذا أدهشك التبـاين في أخلاقه، وراعك هذا التناقض في طباعه، فذلـك لأن هذا الجـرم العظيم الـذي تحسبـه شيئاً واحـداً، مؤلف في الحقيقة من عـدة مناطق لكـل منها شكله وطبعـه وتصـوره، وحظه من التـربية والتهـذيب، فمنها العـاقل ومنهـا الجـاهـل، ومنهـا الحكيم ومنها الغر، ومنهـا الكريم ومنهـا البخيل ومنهـا المصري ومنهـا الجركسي،

ومنها الفرنسي ومنها الانجليزي، . . . كل يجري في مذهبه ويتصرف في الدائرة الخاصة به، فلا عجب إذا صدر عن تلك المجموعة «الزيورية» كل ما ترى من ضروب هذه المتناقضات.

والظاهر أن زيور باشا، برغم حرصه على كل هذه الممتلكات الواسعة، عاجز تمام العجز عن إدارتها وتوليها بالمراقبة والإشراف، وما دامت «الإدارة المركزية» فيه قد فشلت فأحرى به أن يبادر فيعلن إعطاء كل منها «الحكم الذاتي» على أن تعمل مستقلة بنفسها على التدرج في سبيل الرقي والكمال، وحسب عقله، في هذا النظام الجديد، أن يتوافر على إدارة رجليه وحدهما، ولعله يستطيع أن يسيرهما في طريق الأمن والسلام. . . ثم ختم قوله ببيت أبي نواس:

ليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

هذه صورة تهكمية لاذعة، لا تجود بها كل قريحة ولا تقوى عليها كل موهبة. . . أرأيت إليه كيف مثّل بصاحبه وشوّه خلقته؟ وكيف إستعان على ذلك بفن [الكاريكاتير]. الساخر فأبدع واوجع، وترك الناس من حوله يضحكون ويعجبون؟، بل أرأيت إلى أي حد كان يصطنع أسلوب الجاحظ، ويترسم خطاه في «لقطاته» الفنية؟

على أن الجاحظ ـ في رسالته ـ لم يقف عند حد تشويه الخلقة، وتقبيح الظاهر، بل شوه أيضاً عقل غريمه، وجرده من العلم والأدب: إذ جعله «لا يعرف من الكتب إلا أسماءها، وليس في يده من جميع الآداب إلا الانتحال لاسم الأديب».

ثم أراد أن يفصّل ما أجمل، فطرح عليه مائة سؤال في مختلف العلوم وهو على يقين أنها فوق طاقته، ولن يحير لها جواباً. . . وعندها سيتضح للملأ عجزه وجهالته وتلك أراد.

وهو في كل ذلك لا ينسى أن يقرنه ـ بأسلوبه الساخر بأحداث الماضي البعيد تندراً بكبر سنه، وتقادم ميلاده، في الوقت الذي يدعي فيه الشباب استمع إليه يقول:

«يا عقيد الفلك كيف أمسيت؟ ويا قوة الهيولى كيف أصبحت؟ حدثني كيف رأيت الطوفان؟ ومتى كان سيل العرم؟ وكم لبثتم في السفينة؟ ومنذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن اللجف؟ وأي هذه الأودية أقدم: أنهر النيل أم الفرات أم دجلة أم جيحان وسيحان؟ وخبرني عن هرمس أهو ادريس؟ وعن أرميا أهو الخضر؟ وعن يحيى بن زكريا أهو ايليا؟ وعن ذي القرنين أهو الاسكندر؟ وما القول في هاروت وماروت؟ وما عداوة ما بين الديك والغراب؟ وأين كان ملك الأزد من ملك الاشكان وأين كان من ملك بني ساسان؟ وأين كان ابرويز من أنو شروان؟

وخبرني كيف كان أصل الماء في ابتدائه في أول ما أُفرغ في إنائه؟ أكان بحراً أجاجاً استحال عذبا زلالا؟ أم كان زلالا عذباً استحال أجاجا بحراً؟ وكيف طمع الدهري في مسألة. (البيضة والدجاجة) مع تقادم ميلادك ومرور الأشياء على بدنك؟. جوهرك فلكي، وتركيبك أرضي. ففيك طول البقاء، ومعك دليل الفناء، فأنت علة للمتضاد، وسبب للمتنافي.

جُعلت فداك، قد شاهدت الأنس منذ خلقوا، ورأيت الجن قبل أن يحجبوا، وشاهدت العلل وهي تولد والأسباب وهي تصنع. خبرني ما بال السواد يصبغ ولا ينصبغ، والبياض ينصبغ ولا يصبغ، وما دار بينك وبين ارستطاليس، وأين كان اقليدس من فيثاغورس، ومن صاحب الشطرنج ومن صاحب كليلة ودمنة، ومن صاحب الاصطرلاب؟، لم أسألك عن الحداد، وإنما سألتك عن الفيلسوف.

قد تعجب ناس من إطالتي، ومن كثرة مسألتي، وتعجبي من تعجبهم أشد، ولو رغبوا في العلم رغبتي لاستقلوا من ذلك ما استكثروا.

ستقول: ما دعاك إلى التنويه بذكري، وتعريف الناس مكاني وقد تعرف حشمتي وإنقباضي، ولولا أنك ـ جعلت فداك ـ مسؤول كل زمان، والغاية في كل دهر، لما تفردتك بهذا الكتاب، ولما أطمعت نفسي بالجواب، ولكنك قد كنت أذنت في مثلها لأفلاطون ثم لارستطاليس، ثم أجبت معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، وعمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء... فتربية كف،

والناشىء تحت جناحك أحق وأولى . . .

وقبل أن ينهي الرسالة لم يفته أن يكاشفه بجهله. وعجزه عن الإجابة لا محالة، وعنده ـ دون سواه ـ فصل الخطاب. . . يقول:

«وقد سألتك، وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيراً[1] فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها، وما فيها خرافة، وما فيها محال، وما فيها صحيح، وما فيها فاسد، فالزم نفسك قراءة كتبي ولزوم بابي».

يقول الدكتور شوقي ضيف: «والجاحظ بلغ من سخريته بابن عبد الوهاب ما لم يبلغه كاتب ولا شاعر في اللغة العربية من سخريته بشخص من الأشخاص، والغريب أنه يصل إلى ذلك لا عن طريق السب والشتم والقذف، وإنما عن طريق ما يسوقه من تهكم وسخرية لاذعة بصاحبه[2]. . .

وأقول: إن الجاحظ رمى فأصمى، ولكن لا ترى أثر الجراح.

خيال الجاحظ

كم يفزع الأدباء إلى (الخيال) لتجميل المعنى، وإيضاح الصورة، غير أنهم في أغلب الأحيان لا يركنون إليه إلا إذا عزت عليهم الحقيقة وكثيراً ما تعز عليهم وتطول. . . أما الجاحظ الذي ملك ناصية القول، وخضعت له موسيقى اللفظ فلم تدفعه الحاجة إليه ولم يصطنعه عن ضرورة، ومن ثم لم يسرف فيه إسراف غيره. ، وفيما أثر عنه في ذلك تراه يطالعك بقلبه وعقله وروحه معاً. . . استمع إليه يقول في قتلة عثمان بن عفان حينما ذمروا عليه وعلى أزواجه وهو جالس في محرابه يتلو كتاب الله . . .

(. . . لا جرم لقد احتلبوا به دما لا تطير رغوته، ولا تسكن فورته، ولا يموت ثائره، ولا يكِلّ طالبه، وكيف يضيّع الله دم وليه، والمنتقم له؟ وما سمعنا بدم بعد دم يحيى بن زكريا عليهما السلام غلا غليانه وقتل سافحه،

---

(١) كذا بالأصل، وتقديم الكثير أولى.

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٤٦ م

وأدرك بطائلته وبلغ كل محبته كدمه رحمة الله عليه)[1].

* ومن إخوانياته رسالته إلى ابن المدبر[2]

«ما ضاء لي نهار، ودجا لي ليل منذ فارقتك، إلا وجدت الشوق إليك قد حز في كبدي، والأسف عليك قد أسقط في يدي، والنزاع نحوك قد خان جلدي. فأنا بين أحشاء خافقة، ودمعة مهراقة، ونفس قد ذبلت بما تجاهد، وجوانح قد بلغت بما تكابد، وذكرت وأنا على فراش الارتماض ممنوع من لذة الاغتماض قول بشار.

إذا هتف القُمْريُّ نازعني الهوى ... بشوق فلم أملك دموعي من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا ... وكنا كماء المزن شيب مع الشهد
لقد كان ما بيني زماناً وبينها ... كما كان بين المسك والعنبر الورد

فانتظم وصف ما كنا نتعاشر عليه، ونجري في مودتنا إليه في شعره هذا... ولما قرأها عبد الله بن جعفر الوكيل قال في صفتها، هذه رسالة عاشق؛ فضحك ابن المدبر وقال: نحن نتبسط مع أبي عثمان إلى ما هو أرق وألطف.

وإلى «قليب المغربي» كتب يتشوق:

«والله يا قليب، لولا أن كبدي في هواك مقروحة، وروحي بك مجروحة لساجلتك هذه القطيعة، وماددتك حبل المصارمة، ارجو الله تعالى أن يديل صبري من جفائك، فيردك إلى مودتي، وأنف القلى راغم؛ فقد طال العهد بالاجتماع حتى كدنا نتناكر عند اللقاء...

* ومن محاسن كتابته رسالته في «وصف الكتاب» الى من عاب كتبه خاصة، وانتقص الكتب بعامة... يقول:

---

(١) ص ١٤٢ ـ رسائل الجاحظ (ط ساسي)

(٢) معجم الأدباء ١٦/٩٢.

«. . . فعبت الكتاب، وهو نعم الذخر والعقدة، ونعم الجليس والعدة ونعم الأنيس ساعة الوحدة، ونعم المعرفة ببلاء الغربة، ونعم القرين الدخيل، ونعم الوزير والنزيل.

والكتاب وعاء مليء علماً، وظرف حشي ظرفاً، وإناء شحن مزاحاً وجداً. إن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيى من باقل، وإن شئت ضحكتَ من نوادره، وإن شئت عجبتَ من غرائب فرائده وإن شئت ألْهتك طرائفهُ، وإن شئت أشجتك مواعظه، ومن لك بواعظ مُلْهٍ، وبزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار. ومن لك بشيء يجمع الأول والآخر والناقص والوافر، والخفي والظاهر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والضد وجنسه.

(وبعد) فما رأيت بستاناً يُحْمَل في ردن، وروضة تقلب في حجر، وناطقاً ينطق عن الموتى، ويترجم عن الأحياء، ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك، ولا ينطق إلا بما تهوى.. آمن من الأمن، واكتم للسر من صاحب السر وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة،. ولا أعلم جاراً أبرّ، ولا خليطاً أنصف، ولا رفيقاً أطوع، ولا معلماً أخضع، ولا صاحباً أظهر كفاية، ولا أقل جناية وإملالا، ولا أبعد من مراء، ولا أترك لشغب، ولا أزهد في جدال، ولا أكف عن قتال من كتاب.

إلى أن يقول:

والكتاب هو الجليس الذي يطريك، والصديق الذي لا يقليك، والرفيق الذي لا يملّك، والمستميح الذي لا يؤذيك، والجار الذي لا يستبطئك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق، ولا يعاملك بالمكر، ولا يخدعك بالنفاق، والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك، وشحذ طباعك وبسط لسانك، وجود بيانك، وفخم ألفاظك، وعمر صدرك... يطيعك بالليل طاعته بالنهار، وفي السفر طاعته في الحضر، وهو المعلم الذي إن افتقرت اليه لم يحقرك، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة، وإن

عُـزلت لم يدع طـاعتك، وإن هبت عليـك ريح أعـدائـك لم ينقلب عليـك. . . ومتى كنت متعلقـاً به، ومتصـلاً منه بـأدنى حبل لم تضـطرك معه وحشـة الوحـدة إلى قرين السوء. . . »[1].

* * *

هـذا هو أسلوب الجـاحظ الذي انفـرد به، وبـه عـرف، وتلك هي طـريقتـه التي بهـا صـار شيـخ الكتـاب، لا عجب أن كـان ابن العميـد يعجبـه أن يلقب. . . (بالجاحظ الثاني) و(الجاحظ الأخير)[2].

ذكرت متنزهات الدنيا بين يدي «ابن دريد» فقـال: هذه متنـزهات العيـون، فأين أنتم من متنزهات القلوب؟ قالوا: وما هي؟ قال: كتب الجاحظ، وأشعار المحدثين، ونوادر ابي العيناء.

---

(١) الحيوان جـ ٣٨/١ وما بعدها.
(٢) يتيمة الدهر جـ ١٥٥/٣.

(٨) ابن العميد

الوزير الكاتب، والأستاذ الرئيس، أبو الفضل محمد بن الحسين الملقب بابن العميد كان أبوه - ابو عبد الله - وزيراً وكاتباً كذلك، وزر لما كان ابن كاكي الذي قتله السامانيون في إحدى المعارك، وأسروا أعوانه، ومن بينهم أبو عبد الله، غير أنهم لحاجتهم إليه، أطلقوا سراحه، وألحقوه بخدمتهم، وفي عهد الملك نوح بن نصر ملك بخارى تقلد شؤون الديوان ولقب بالشيخ، كما لقب أيضاً بالعميد. أشار الصابي إلى أن رسائله لا تقصر في البلاغة عن رسائل ابنه ابي الفضل[١].

نشأ ابن العميد إذن في بيت علم وأدب، ومن ثم «لم يرث الكتابة عن كلالة؛ بل كان كما يقول ذو الرمة في وصف صياد حاذق.

ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب[٢]

فلما مارس الكتابة جرى فيها على عرق عريق، وارتقت به بلاغته وهمته حتى صار وزيرا لركن الدولة ابن بويه سنة ٣٢٨، ومن بعده وزر لابنه عضد الدولة، وظل بخدمته بقية حياته. يدبر له الشؤون بحكمة وحزم وكان يتشبه بالبرامكة، بل كان يقود الجيوش بنفسه ليمكن له في العراق، وفي سنة ٣٦٠ خرج لقتال «حسنوية» الزعيم الكردي الثائر ولكنه توفي في الطريق[٣].

ثقافته

لم تشر المصادر إلى منابع علمه وثقافته اللهم إلا ما كان من تلمذته لابن سمكة محمد بن علي بن سعيد المعتزلي «صاحب الأدب والحكمة والنجوم. والترسل والإملاء.. وصاحب كتابي الأمثال وأخبار العباسيين..» يبدو أن ابن العميد قد أخذ عنه أصول المذهب، وكذلك أصول المنطق اليوناني الذي

---

(١) اليتمية ٣/ ١٥٥.

(٢) وصدر البيت (ومطعم الصيد هبال لبغيته؛ ألفى........)

(٣) دائرة المعارف الإسلامية «الترجمة العربية..» المجلد الأول /٢٤٤.

تسلح به أهل الاعتزال. ذكر ابن مسكويه الذي لازمه سبع سنوات قيماً لدار كتبه: أن فيلسوف نيسابور أبا الحسين العامري قرأ عليه عدة كتب مستغلقة من كتب الفلسفة، كما ذكر أيضاً أنه كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة التي لا يدعيها أحد كعلوم «الحيل» الميكانيكا التي يحتاج فيها إلى أواخر علوم الهندسة والطبيعة، والحركات الغريبة، وجر الثقيل، ومعرفة مركز الأثقال، وإخراج كثير مما امتنع على القدماء من القوة إلى الفعل[1] أشار إلى ذلك المتنبي بقوله:

من مبلغ الأعراب أني بعدهم	شاهدت رسطاليس والإسكندرا
وسمعت بطليموس دارس كتبه	متملكاً متبدياً، متحضراً
ولقيت كل الفاضلين كأنما	رد الإله نفوسهم والأعصرا
نسقوا لنا نسق الحساب مقدما	وأتى كذلك إذ أتيت مؤخرا
قطف الرجال القول وقت نباته	وقطفت أنت القول لما نورا

أما علوم العربية فقد أجمع المترجمون له على أنه كان أكتب أهل عصره وأجمعهم لآلات الكتابة، حفظاً للغة والغريب، وتوسعاً في النحو والعروض وإهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات، وحفظا للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام[2].

وكان ابن العميد فوق هذا ناقداً أريباً. بصيراً بفنون القول، خبيراً بمواقع الكلام.. ذكر الصاحب ابن عباد أنه لم يجد في عصره من يفهم الشعر كفهمه فإنه يتجاوز نقد الأبيات إلى نقد الحروف والكلمات، ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير الوزن والقافية.

وإذا كان أبو حيان التوحيدي قد تحامل عليه وعلى صاحبه الصاحب ابن عباد، وألف فيهما كتاباً سماه «مثالب الوزيرين» فإنه قد ختمه

---

(١) تجارب الأمم جـ ٢/ ٢٧٨.

(٢) تجارب الأمم ٢/ ٢٧٥ وما بعدها

بهذا الاحتراس المنصف، خشية أن تظن بهما الظنون.. يقول: (ولولا أن هذين كانا كبيري زمانهما، واليهما إنتهت الأمور، وعليهما طلعت شمس الفضل، وبهما ازدانت الدنيا، وكانا بحيث ينشر الحسن منهما نشراً والقبيح يؤثر عنهما أثراً، لكنت لا أتسكع في حديثهما هذا التسكع، ولا أنحى عليهما بهذا الحد، ولكن النقص [ممن] يدعي التمام أشنع، والحرمان من السيد المأمول أفقر، والجهل من العالم منكر... ولو أردت مع هذا كله أن تجد لهما ثالثاً في جميع من كتب للجبل والديلم إلى وقتك هذا، لم تجد)[1].

وإذا كان القرن الرابع قد ذخر بأعلام الكتابة من أمثال الصابي والخوارزمي والصاحب بن عباد، وبديع الزمان، وأبي هلال، والتوحيدي والميكالي وغيرهم فإن ابن العميد قد بذ الجميع بسعة معارفه، وبلاغة قلمه فقد كان له ولع بجميع الكتب والإخلاد إليها... أرأيت إليه وقد أطبقت على داره جيوش الخراسانية، ونهبت خزائنه وكانت عامرة؟ لم يفزع على شيء فزعه على خزانة الكتب، فلما طمأنه عليها ابن مسكويه سرى عنه وأسفر وجهه وقال له: «أشهد أنك مأمون النقيبة، أما سائر الخزائن فيوجد منها عوض، وهذه الخزانة هي التي لا عوض منها»[2] فما أشبهه في ذلك بالجاحظ «ألا تراه يلقب بالجاحظ الأخير»[3]؟

بلاغته وأسلوبه:

لم يكن ابن العميد أديباً فحسب، بل كان أيضاً رساماً بارعاً، ذكروا أنه كان ذات يوم يعبث بتفاحة، فلما كف رأوا عليها صورة وجه خطها بظفره، يقول ابن مسكويه: «لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة، وفي الأيام الكثيرة، ما استوفى دقائقها، ولا تأتى له مثلها»[4] وليس هذا بعجيب، فإن النزعات التصورية في الإنسان تصدر عن معين واحد، وإن بدت في مظاهر مختلفة،

(١) معاهد التنصيص جـ ٢/٣٠٢، ٣٠٣.
(٢) تجارب الأمم ٢/٢٢٤
(٣) اليتيمة ٣/١٥٥.
(٤) تجارب الأمم

وفي وسع الأديب أن يتناول الفكرة الواحدة، بريشته وألوانه كما يصورها بقلمه ولسانه.

يقول الدكتور شوقي ضيف: «ولا شك في أن هذه النزعة التصورية فيه كان لها أثر مهم في نثره، إذ جعلته نثراً مصوراً يهتم صاحبه بصنع الصور والرسوم في كتاباته، كما جعلته يهتم بألوان البديع الأخرى، من طباق وجناس وغيرهما وكأنه كان يحسن بأن هذه الألوان جميعاً من تصوير وغير تصوير تقوم من نثره مقام الألوان الحسية من لوح الرسام»[1].

نشأ ابن العميد في عصر اقترن فيه السجع بالازدواج، غير أنه كان في سجعه يرسل القلم على سجيته، وقلما كان يخطئه، فجلب بطريقته تلك ألباب الأدباء وأشرأبت إليه أعناقهم، يكرعون من حياضه، ويقطفون من رياضه. . . يقول الثعالبي[2]: «هو عين الشرق، ولسان الجبل، وعماد ملك آل بويه، وصدر وزرائهم، وأوحد العصر في الكتابة، وجميع أدوات الرياسة وآلات الوزارة، والضرب في الآداب بالسهام الفائزة، والأخذ من العلوم بالأطراف القوية، يدعى الجاحظ الأخير، والأستاذ والرئيس، ويضرب به المثل في البلاغة، وينتهي إليه في الإشارة بالفصاحة، والبراعة مع حسن الترسل، وجزالة الألفاظ وسلاستها، إلى براعة المعاني ونفاستها، وما أحسن وأصدق ما قال له الصاحب وقد سأله عن بغداد عند منصرفه عنها: بغداد في البلاد كالأستاذ في العباد، وكان يقال: بدئت الكتابة بعبد الحميد، وختمت بابن العميد»، وقد نلحق في الفقرة الاخيرة شيئاً من المبالغة جرت إليها السجعة، وكم للسجع على جماله وروعته من جرائر لا يتسع لذكرها المقام، غير أنها في الواقع ترجع إلى أصل من الحق أصيل، يقول الدكتور زكي مبارك: «. . فإننا حين نقرأ نثره نجد أنفسنا أمام عظمة عقلية يخر لها الجبابرة ساجدين، وهو حين يكتب لا يطالعك بفنه كما كان يفعل معاصروه، وإنما يطالعك بقلبه

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٩٢ (الطبعة الأولى)
(٢) اليتيمة ١٥٤/٣.

وروحه وعقله بحيث تبدو كل كلمة من كلماته وكأنها قلب يخفق أو زوج يثور، فليست الكتابة عند ابن العميد زخرفاً براقاً يلهو به ولا ثروة لغوية يكاثر بها الكتاب، ولكن الكتابة عنده ثورة عقلية أو وجدانية يرمي بها كما يرمي البر كان بأقباس الهلاك، وقد يرق فتحسب نثره نجوى حبيبين في هدأة الليل، وهو في رقته، وجزالته وغضبه وحنانه عبقري لا يعبث برجع الحديث المعاد وإنما يجد بإبداع الرأي الصائب والقول الرصين»[1].

وهذا قول ـ وإن كان بلغة الشاعر المتيم أشبه منه بلغة الناقد المحايد ـ يحمل بين ثناياه كثيراً من معالم الصدق والانصاف.. ألم يكن سجعه حلية فطرية رشيقة الألفاظ، قصيرة المقاطع، رنانة الفواصل، عذبة الإيقاع تلمح ذلك في عتابه الرقيق: «ما هذا التغالي بنفسك، والتعالي على صديقك، ولم نبذتني نبذ النواة، وطرحتني طرح القذاة؟ ولم تلفظني من فيك، وتمجني من حلقك، وأنا الحلال الحلو، والبارد العذب؟ وكيف لا تخطرني ببالك خطرة، وتصيرني من أشغالك مرة؛ فترسل سلاماً إن لم تجشم مكاتبة، وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة؟ وأحسب كتابي سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت... فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك، وإسمه من صحيفة حفظك، ولعلك تتعجب من طمعي فيك وقد توليت، واستمالتي لك وقد أبيت، ولا عجب فقد يتفجر الصخر بالماء الزلال، ويلين من هو أقسى منك قلباً، فيعود إلى الوصال»[2].

ويبدو أن ابن العميد كان عزيزاً عليه أن يزوّر عنه صديقه ابو عبد الله الطبري فجاهد نفسه كثيراً في استرضائه فما ترضى، وفي الرد على إحدى رسائله كتب إليه مغاضباً يقول: «وصل كتابك، فصادفني قريب العهد بانطلاق، من عنت الفراق، ووافقني مستريح الأعضاء والجوانح من جوى الاشتياق؛ فإن الدهر جرى على حكمه المألوف في تحويل الأحوال، ومضى على

---

(١) النثر الفني جـ ٢٠٢/١.
(٢) زهر الآداب ٢٣٤/٣

رسمه المعروف في تبديل الأشكال، وأعتقني من مخالتك عتقاً لا تستحق به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجب دركاً ولا استثناء، ونزع من عنقي ربقة الذل في اخائك، بيد جفائك، ورش على ما كان يضطرم في ضميري من نيران الشوق بالسلو، وشن على ما كان يلتهب في صدري من الوجد ماء اليأس، ومسح أعشار قلبي فلأم فطوري بجميل الصبر، وشعب أفلاذ كبدي، فلاحم صدوعها بحسن العزاء، وتغلغل في مسالك أنفاسي، فعوض عن النزاع اليك نزوعاً عنك، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشف عن عيني ضبابات ما ألقاه الهوى على بصري، ورفع عني غيابات ما سدله الشك دون نظري، حتى حدر النقاب عن صفحات شتمك، وسفر عن وجوه خليقتك، فلم أحد إلا منكراً ولم ألق الا مستنكراً، فوليت منها فراراً. وملئت رعباً. فاذهب فقد ألقيت حبلك ورددت اليك ذمم عهدك»(١).

وهكذا نراه في هذا الموقف شاعراً بلا وزن ولا قافية. . . ألا تراه يسكب دموع الوجد على أطلال الود، وقد وجد في تعادل الفقرات وتوازنها ما يعوضه عن أوزان الشعر وبحور الخليل، نذكر على سبيل المثال قوله: «فان الدهر جرى عل حكمه **المألوف في تحويل الأحوال**، ومضى على رسمه المعروف في تبديل الأشكال» فالتوازن والتقفية ماثلان على التوالي بين ألفاظ الفقرتين بين جري ومضي) و(حكمه ورسمه)، و(المألوف والمعروف)، و(تحويل وتبديل)، و(الأحوال والاشكال)، وهذا هو السجع المرصع، وهو أبلغ أنواع السجع كما ذكرنا(٢).

هذا، وأغلب رسائله تمضي على هذا اللون من المحسنات اللفظية والمعنوية سجعاً وجناساً وطباقاً، تمده فطرة مواتية، وطبع موهوب، ومن ثم لم يلق في ذلك كبير جهد، ويعزو الدكتور شوقي ضيف هذه البراعة إلى إلمامه بفن الحيل «الميكانيكا» من ناحية، وتأثره بصناعة «السجاد» المنتشرة في إقليمه من ناحية

---

(١) المرجع السابق

(٢) أنظر مدرسة ابن العميد في الباب الثاني.

أخرى، من حيث إن ألوان البديع في حاجة ماسة إلى براعة الاحتيال، وبهذه وتلك أمكنه أن يحتال لفنه البديع، الذي غير مجرى الأساليب، كما غيرها من قبل عبد الحميد بن يحيى، ومن ثم قيل بدئت الكتابة بعبد الحميد وختمت بأبن العميد.

وفي رسالته الشهيرة الى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة كثير من الجناس والطباق، فقد بدأها بقوله: (كتابي، وأنا مترجح بين طمع فيك ويأس منك، واقبال عليك وإعراض عنك..... لا جرم أني وقفت بين ميل إليك وميل عليك...)[٢]. وفي الباب الثاني ذكرنا له بعض الرسائل الفنية التي أهّلته لريادة المدرسة البديعية، فارجع اليها إن شئت.

حكمه:

وكما خلف ابن العميد طائفة من الرسائل، وعى بعضها الثعالبي، وأودعها صدر اليتيمة خلف كذلك طائفة من الحكم البالغة، ومن ذلك قوله:

* خير القول ما أغناك جده، وألهاك هزله.
* رأس المال خير من الربح.
* الأصل أولى بالعناية من الفرع.
* المرء أشبه بزمانه.
* قدم من خيرك ما لا ينفعك تأخيره، واحصد الشر قبل استفحاله.

---

(١) الفن ومذاهبه /٩٣، يتيمة الدهر حـ ١٦٣/٣.

(٩) القاضي الفاضل

كاتب الديار المصرية، وصاحب الطريقة الفاضلية، أبو علي عبد الرحيم ابن القاضي الأشرف، علي بن محمد البيساني؛ نسبة إلى بيسان، إحدى مدن فلسطين التي ولي نيابة حكمها زمناً من قبل الفاطميين[١].

ولد القاضي الفاضل بمدينة «عسقلان» سنة ٥٢٩، وكان أبوه ـ إذ ذاك قاضياً عليها[٢]. . ، وفي كنفه ورعايته، نشأ نشأة دينية أدبية؛ أهلته لأن يتسنم ذروة الكتابة في عصره، فقد ألحقه ابوه «بديوان الإنشاء» في مصر سنة ٥٤٣؛ ليتخرج في الكتابة على يد كبار المنشئين، كابن قادوس الأديب المشهور، وابن الخلال رئيس الديوان. . . يقول القاضي الفاضل: (فلما مثلت بين يديه ـ يريد ابن الخلال ـ وعرفته من أنا، وماطلبتي، رحّب بي وسهل، ثم قال لي: ما أعددت لفن الكتابة من الآلات؟، فقلت: ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن الكريم وكتاب الحماسة. فقال: في هذا بلاغ. ثم أمرني بملازمته، فلما ترددت إليه، وتدربت بين يديه، أمرني بعد ذلك أن أحل شعر الحماسة، فحللته من أوله إلى آخره. ثم أمرني أن أحله مرة ثانية فحللته)[٣]. .

حدث ـ في هذه الأثناء ـ أن نشب خلاف بين أبيه وبين الوالي «المرتضى الطرابلسي» إنتهى باستدعائه إلى مصر، واستصفاء أملاكه، غير أن القدر لم يمهله طويلاً، فقد توفي سنة ٥٤٦، مما كان له أبلغ الأثر الحزين في نفس ابنه عبد الرحيم، ومن ثم ترك القاهرة وديوانها على الأثر ووجهته «ابن حديد» قاضي الإسكندرية، فلما عرفه بوالده ،استكتبه، وقدر له مرتباً مجزئاً[٤]، وظل في ديوانه، يكتب عنه كتباً لا عهد له بمثلها. . . وإذ كانت هذه الرسائل تصل القاهرة بقلم القاضي الفاضل، وتصادف هوى في نفوس ولاة الأمر، فيطلعون

---

(١) الفن ومذاهبه/١٩٤.

(٢) تاريخ آداب اللغة في العصر العباسي للشيخ الاسكندري /٢٦٢.

(٣) الوشي المرقوم /٩، وفيات الأعيان جـ ٧/ ٢٢٠.

(٤) الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية (نهضة مصر)/٣٥٧

عليها «الظافر الفاطمي»، جد في طلبه ليكتب له. . . ومن ذلك التاريخ بدأ نجم القاضي الفاضل يتألق في سماء الأدب والسياسة معاً، وبخاصة حينما تولى الأمر «أسد الدين شيركوه» الذي قربه إليه وجعله كاتبه الأثير، فلما توفي استخدمه صلاح الدين، وجعله وزيره وكاتبه ومشيره، فساس له الأمور سياسة رشيدة جعلته دائم الإشادة به، أثر عنه قوله في ملأ من الناس: (والله ما ملكت البلاد بسيوفكم، ولا بر ما حكم، ولكن بقلم القاضي الفاضل)[1].

ولا عجب في ذلك، فقد كان - كما يقولون - هو الدولة الصلاحية، كان كاتبها ووزيرها، وصاحبها ومشيرها، والحاكم في كلها، والمجهز لبعوثها[2]، لهذا لهج الشعراء بذكره، وأكثروا في مدحه، ذكر العماد الأصفهاني أنه مدح بمائة ألف بيت من الشعر[3].

هكذا كان القاضي الفاضل الساعد الأيمن لصلاح الدين، فلما توفي احتدم النزاع بين ولديه، العزيز والأفضل، وعبثا حاول التوفيق بينهما، فلما أخفق ورأى اضطراب الأمر، وتفريق الشمل، اعتزل السياسة، وعاش بعيداً عن بحرها المتلاطم، وإن ظل على وفائه (للعزيز) يتجلى ذلك في رثائه إياه بقصيدة حزينة مؤثرة.

رسائله:

تناول القاضي الفاضل برسائله مختلف الشؤون في الدولة، داخلية وخارجية، . . تناول رسائل الفتوح، ومخاطبة الملوك، واستنهاض الهمم ووصف المعارك والمعاقل، وغير ذلك مما يصور أحداث العصر، ويؤرخ للدولة في عهد صلاح الدين. . . ، ولم تمنعه أعباؤه السياسية أن يجود ويتأنق تجويده في رسائله الخاصة؛ في الشوق والشكر والعتاب، وفي التهنئة والتعزية والإخاء، وهكذا

---

(١) مرآة الزمان ٨/٣٠٤، شذرات الذهب ٤/٣٢٧.

(٢) مسالك الأبصار [نسخة خطية] برقم ٢٥٦٨ تاريخ بدار الكتب المصرية ورقة ٢٨٧ جـ٧.

(٣) مراة الزمان ٨/٣٠٥

يأبى الفن دائماً إلا أن يعلن عن نفسه، ويدل على صاحبه، ومن ذلك رسالته في فتح القدس التي سبقت الإشارة إليها، وكتابه عن صلاح الدين، إلى ملك القدس معزياً في أبيه وفيه يقول.

«أما بعد: خص الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالجد الصاعد والسعد الساعد، والحظ الزائد، والتوفيق الوارد، وهنأه من ملك قومه ما ورثه، وأحسن من هداه فيما أتى به الدهر وأحداثه؛ فإن كتابنا صادر إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوب الأصدقاء، والنعي الذي وددنا أن قائله غير صادق، بالملك العادل الأعز الذي لقاه الله خير ما لقي مثله، وبلغ الأرض سعادته، كما بلغه محله، معز بما يجب فيه العزاء، ومتأسف لفقده الذي عظمت فيه الأرزاء: إلا أن الله سبحانه، قد هون الحادث بأن جعل والده الوارث، وأنسى المصاب، بأن حفظ به النصاب، ووهبه النعمتين: الملك والشباب فهنيئاً ما حاز، وسقياً لقبر والده الذي حق له الفداء، لو جاز، ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين، أدام الله سلامته، قائم عنا بإقامة العزاء من لسانه ووصف ما لنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وخلو مكانه، وكيف لا يستوحش رب الدار لفرقة جيرانه؟ وقد استفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا، الذي هو ميراثه عن والده من ودادنا. فليلق التحية بمثلها، وليأت الحسنة ليكون من أهلها، وليعلم أن له كما كان لأبيه مودة صافية، وعقيدة وافية، ومحبة تثبت عقدها في الحياة والوفاة، وسريرة حكمت في الدنيا بالموافاة مع ما في الدين من المخالفات، فليسترسل إلينا استرسال الواثق الذي لا يخجل، وليعتمد علينا اعتماد الولد الذي لا يحمل عن والده ما تحمل، والله يديم تعميره، ويحرس تأميره، ويقضي له بموافقة التوفيق، ويلهمه تصديق ظن الصديق[1]».

ولما فتحت قلعة «نجم» الحصينة، كتب في وصفها يقول:

«هي نجم في سحاب، وعقاب في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة إذا خضبها الأصيل؛ كان الهلال لها قلامة، عاقدة حبوة صالحها الدهر ألا

---

(١) صبح الأعشى ١١٥/٧

يحلها بقرعه؛ بادية عصمة صافحها الزمن على ألا يردعها بخلعه، فاكتفت بها عقارب منجنيقات لم تطبع طبع خمص في العقارب، وضربتها بحجارة أظهر فيها العداوة المعلومة في الأقارب، فلم يكن غير ثلاث إلا وقد أثرت فيها الحجارة جدريا بضربها، ولم تصل إلى السابعة إلا والبحر مؤذن بنقبها، فاتسع الخرق على الواقع، وسقط سعده عن الطالع إلى مولد هو إليها طالع، وفتحت الأبراج فكانت أبواباً، وسيرت الجبال فكانت سراباً[1]».

التعليق:

(١) في الرسالة الأولى لم نجد لطريقة القاضي الفاضل مظهراً من سجع أو جناس أو طباق إلا نادراً، لأن المقام مقام حزن.

(٢) أما الرسالة الثانية فمجملة بالتشبيهات والاستعارات، فضلا عن محسنات البديع، كما أنها مرصعة بالاقتباس من القرآن، كقوله «وسيرت الجبال فكانت سراباً» ومن الأمثال كقوله «إتسع الخرق على الراقع» ومن الأبيات التي كان يحلها ويرتشف رحيقها كقوله: «وأنملة إذا خضبها الأصيل، كان الهلال لها قلامة» يذكر الحموي[2] أن تشبيه الهلال بقلامة الظفر من مخترعات ابن المعتز في قوله:

ولاح ضوء هلال كاد يفضحنا   مثل القلامة قد قدت من الظفر

كما ذكر ذلك أيضاً «ابن خلكان»[3] الذي أشار أيضاً إلى أن ابن المعتز مسبوق في ذلك بقولة عمرو بن قميئة.

كأن ابن مزنتها جانحا   «فسيط» لدى الأفق من خنصر

أما ابن الأثير الذي أثنى عليه في ذكره الأنملة والقلامة وتشبيهها بالهلال، فقد أخذ عليه تشبيهه الحصن بالأنملة. يقول «وهذا الكاتب حفظ شيئاً وغابت

---

(١) الوسيط في الأدب العربي/٢١٩

(٢) خزانة الأدب للحموري /١١٨.

(٣) وفيات الأعيان ١/٥١٠

عنه أشياء، فإنه أخطأ في قوله: «أنملة» وأي مقدار للأنملة بالنسبة إلى تشبيه حصن على رأس جبل؟ وأصاب في المناسبة بين ذكر الأنملة والقلامة وتشبيهها بالهلال»[1].

وليت شعري كيف جال بخاطر ابن الأثير أن القاضي الفاضل يريد تشبيه الحصن بالأنملة في المقدار؟ ولو تدبر لعلم أن مراده من التشبيه بيان الهيئة، ولن يكون الحصن في جرم الأنملة إلا إذا كان فوق رابية عالية ذاهباً في السماء، وذلك أدعى لمنعته واستحكامه، وتلك أراد. . . أرأيت الى قوله (نجم في سحاب، وعقاب في عقاب)؟ وكلا التشبيهين يرميان إلى علو المنزل والمنزلة.

طريقته:

جمعت طريقة القاضي الفاضل بين محاسن الكتابة في المشرق والمغرب، ولا شك أن طريقة ابن العميد كانت حجر الزاوية في سجعه وتجنيسه ومقابلته، ثم زاد عليها ألواناً أخرى من صور البديع، كالتوجيه، والاستخدام، ومراعاة النظير، وغالى في التورية والجناس، كما أسرف في الاقتباس، وحل أبيات الشعر، وتضمين رسائله الأمثال السائرة، والأقوال المأثورة، ومصطلحات العلوم، حتى أصبحت معرضاً لأفانين البلاغة، مثله كمثل صورة زيتية مزدحمة الألوان تخطف البصر ببريقها وتأسر القلب بفنها وجمالها فلما أسرف في ذلك من أسرف وتكلف، شاهت الصورة، وتعقدت وصارت تكد الذهن بمناظرها المتلاحقة، بل صارت ـ كما يقولون[2] ـ «قشورا لماعة براقة على لب رث اعجق، وإنتهكت حرمة المعاني، فصارت خدماً ذليلة لألفاظ، وكأنما كانت طريقة ابن خلدون، بأسلوبها المعنوي المرسل، رد الفعل المباشر لهذه الصناعة اللفظية أو الطريقة الفاضلية، تلك الطريقة التي فتن بها الناس حيناً من الدهر: فمن كان على حظ وافر من مفردات اللغة مع صفاء الطبع، وحضور

---

(١) المثل السائر ١٥٦

(٢) فن الاسجاع جـ ١٣١/١.

البديهة أتى بكل عجيب، ومن كان قليل البضاعة، راكد الذهن وأد المعاني في مهدها، وأصبح اصطناعها جناية على الأساليب.

وإذاً فطريقة القاضي الفاضل لا يصلح لها غيره أو عديله... ألا تراهم يقولون: «كل فاضل بعد الفاضل فضله[1]»، ولا عجب فقد كان أبا عذرتها، وابن بجدتها، يقول العماد في خريدته:

«رب القلم والبيان، واللسن واللسان، والقريحة الوقادة، والبصيرة النقادة، والبديهة المعجزة، والبديعة المطرزة، فهو كالشريعة المحمدية التي نسخت الشرائع، ورسخت الصنائع، يخترع الأفكار ويفترع الابكار، ويطلع الأنوار، ويبدع الأزهار، وهو ضابط الملك بآرائه، رابط السلك بلألائه؛ إن شاء أنشأ في يوم واحد، بل في ساعة واحدة ما لو دون لكان لأهل الصناعة خير بضاعة... أين قس من فصاحته، وأين قيس في مقام حصافته، ومن حاتم وعمرو في سماحته وحماسته؟»[2]. وهاك طرفاً من أسراره البلاغية التي غلبت على رسائله.

(أ) التورية:

لم يكن للتورية شأن يذكر قبل القاضي الفاضل، وقصارى ما ورد منها نبذ يسيرة في «المغرب» والخريدة: فلما جاء الفاضل نقلها لأول مرة من الشعر إلى النثر، وقد أشار الحموي إلى أنه هو الذي عصر سلافتها لأهل عصره.. يقول: «وأما التورية والاستخدام فما تنبه لمحاسنها إلا من تأخر من الشعراء والكتاب وتضلع من العلوم، وتطلع من كل باب، وأظن أن القاضي الفاضل رحمه الله ـ هو الذي ذلل منها الصعاب، وأنزل الناس بهذه الساحات والرحاب»[3].

---

(١) نهاية الأرب ١/٨

(٢) مرآة الزمان، لابن الجوزي ٨/٣٠٤، وفيات الأعيان ١/٢٨٥.

(٣) خزانة الأدب ٢٤٣.

ومن ذلك قوله، في يوم شديد البرد والمطر، : «. . . والخادم في رأس جبل يتلقى الرحمة غضة، قبل أن يتبذلها الناس، ويصافح الرياح عاصفة قبل أن تتقسمها الأنفاس، ويتلقى الرعد بالرعدة، وإذا السماء انشقت استصحاها المملوك بالسجدة» - ألا ترى «التورية» ماثلة في قوله: «وإذا السماء انشقت» وفي كلمة «السجدة».

على أن تورياته في الشعر كانت أكثر وأوضح وقد مثلوا لذلك بقوله:

وكنت وكنا والزمان مساعد فصرت وصرنا وهو غير مساعد
وزاحمني في ورد ريقك شارب ونفسي تأبى شركها في الموارد

أخذ هذا المعنى عز الدين الموصلي فقال:

فعارضني في ورد خدك عارض وزاحمني في ورد ثغرك شارب

وعلى كل فإن التورية من خصائص النفس المصرية، تصطنعها العامة فضلاً عن الخاصة، وإن كانوا لا يدرون كنهها. يقول السبكي: أما بلادنا فإنهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه: من الذوق السليم، والفهم المستقيم، والأذهان التي هي أرق من النسيم، وألطف من ماء الحياة في المحيا الوسيم، أكسبهم النيل تلك الحلاوة، وأشار إليهم بأصابعه، فظهرت عليهم هذه الطلاوة؛ فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء، فضلاً عن الأغمار - الأعمار، ويرون في مرآتهم الصقيلة، ما احتجب من الأسرار خلف الستار»[1].

(ب) الجناس:

أغرم القاضي الفاضل بهذا اللون البديعي، تمده في ذلك حصيلته اللغوية الزاخرة، فتلاعب به، وافتن في اصطناعه على أشكال مختلفة: تاماً تارة وناقصاً تارة أخرى ومقلوباً مرة ثالثة. . . ولا يزال المتظرفون - في عصرنا الحاضر -

---

(١) عروس الأفراح جـ ١/٥

يصنعـون صنعـه، ويتنـدرون بـه في مجـالسهم وبخـاصـة التجنيس بكلمتـين أو أكثر، سئل أحدهم أن يعد لهم وليمة، فقال على الفور ولم لا، يـريد: وليمـة. لا وذلك أيضاً من قبيل «الاستخدام» في البلاغة.

يقـول القاضي في فتـح بيت المقدس: (فـاز من بيت المقدس بـذكر لا يـزال الليل به سميـراً، والنهار بـه بصيراً، والشـرق يهتدي بـأنـوره بل ان أبـدى نوراً من ذاته هتف به الغرب **بأن واره**. . .) والأخيـرة تشتمل عـلى فعل الأمـر [وار] الذي لا يدرك الا بعد رياضة عقلية، وتفـاعل ذهني، يضفيـان على التعبـير شيئاً من البهجة والطرافة.

ومن أمثلة الجنـاس المقلوب قولـه: (الحمد لله الـذي صدقـه وعـده، وأورثـه الأرض وحده وجدد علاه، وأعلى جده، وأسعد نجمـه، وأنجم سعده، ووعـده نجحه، وأنجح وعده، وأورده وصفه، وأصفى ورده).

(ج) التضمين:

لم يكـثر من تضمن رسائله مصـطلحات «النحـو» ولكنها عـلى أية حـال بدت في بعض رسـائله كقولـه: (الحمد لله الأطيب، وبـركـاتـه التي يستـدرهـا الحضر والغيب، وزكواته التي تـرفع أوليـاءه الى الدرج، ونعمـه التي لم تجعل عـلى أهل طاعة في الـدين من حرج عـلى مولانـا سيد الخلق، وسـاد الخرق، ومسـدد أهل الحق، وواحد الدهـر الذي لا يثنى، وإليـه القلوب تثنى، ولا يقبل الله جميعاً لا يكون لولائـه جمع سـلامة لا جمـع تكسير، ولا استقبـال قبلة ممن لا تكون محبتـه في قلبه تقيم، واسمه في عمله إلى الله يسير)[1].

أما التضمين بالشعر، فقد غلب على رسائله الخاصـة، بل ربمـا شفع السـطر أو السـطرين، بالبيت أو بـالبيتين حتى لا تـدري أهو نـثر مـرصـع بـالشعـر، أم شعر تخلله النثر. . . استمع إليه يقول متشوقاً:

فيـا رب إن البـين أضحت صـروفـه   عـليّ، ومـا لي من معـين، فكن معي

---

(١) صبح الأعشى ٦/٥١٥.

عـلى قــرب عــذالي وبعــد أحبـتي وأمــواه أجفــاني، ونيــران أضـلعي

هـذه تحية القلب المعـذب، وسريـرة الصبـر المـذبـذب وظـلامـة عـزم السلو المكـذب، أصدرتهـا إلى المجلس، وقـدْ وَقَـدَ في الحشـا نـارهـا: الـزفـير أوارهـا والدموع شرارها، والشوق آثارها، وفي الفؤاد ثأرها.

لــو زارني مـنكـم خـيـال هــاجــر لهــدتــه ـ في ظلمــاتــه ـ أنــوارهــا

أسفـاً عـلى أيـام الاجتمـاع متى كـانت مـواسم السـرور والأسـرار، ومبـاسم الثغور والأوتار، وتذكر الأوقات عذب مذاقها، وامتد بالأنس رواقها.

والله مــا نـسيـت نـفسي حــلاوتهــا فكيف أذكــر أني اليــوم أذكــرهــا؟

وقد فارقت الجناب، لا زال جنابه نضيراً، وسنـا سنائـه مستطيـراً، وملكه في الخافقين خـافق الأعلام، وعـزه على الجـديدين جـديد الأيـام، لم أقف منه عـلى كتاب تخلف سطوره، ما غسل الدمع من سواد ناظـري، ويقدم بيـاض منظومـه ومنثوره ما وزعه البين من سويداء خاطري.

ولم يـبق في الأحـشــاء إلا صـبــابــة من الصبـر تجري بـالـدمـوع البـوادر

وأسـأله المنـاب بشريف الجنـاب، وأداء فـرض تقبيـل الأرض، حيث تلتقي أمور الدنيـا والآخرة، وتعمـر البيوت العـامرة المنن الغـامرة، وفضـل الظل غـير منسوخ بهجيره، ويبشر المجد بشخص لا تسمح الدنيا بنظيره:

تـظاهـر في الـدنيـا بـأشـرف ظــاهـر فلم تــر أنقـى منـه غـير ضـميـره
كـفــاني فخــراً أن أسـمى بـعـبــده وحـسبـي هــديـا أن أسـير بنــوره
فــأي أمــير لــيس يـشــرف قــدره إذا مــا دعــاه صــادقــاً بــأمـيــره

وأظهر من ذلك قوله:

وصل من الحضرة:

كتــاب بــه مــاء الحيــاة ونفعــه الـ ـحيــا فكـأني إذ ظفـرت به الخضر

فوقفت عنده منه على:

عقـود هي الـدر الـذي أنت بحـره   وذلـك مـا لا يـدعى مثله البحـر

ورتعت منه في:

ريـاض يـد تجني وعـين وخـاطـر   تسـابق فيهـا النـور والـزهـر والثمـر

وعلى كل فإن رسائله الخاصة كانت ميداناً فسيحاً لبلاغته، فحلق في جـوها مـا وسعه التحليق، بخيالـه الخصب الطليب، مما يـدل عـلى طـول بـاعـه في أسـاليب البيان، فـوق براعتـه في صـور البـديـع... استمـع إليـه يصف حمام الرسائل:

«تحمل من البطائق أجنحة، وتجهز جيوش المقاصـد والأقلام أسلحـة، وتحمل من الأخبـار، ما تحمله الضمـائر، وتـطوي الأرض إذا نشرت الجنـاح الـطائـر، وتكون مراكب الأغراض والأجنحة قلوعاً، وتركب الجو بحراً يصفق فيه هبوب الرياح موجاً مرفوعاً، ومن بلاغـات البطائق، استفـادت ما هي مشهـورة به من السجـع، ومن رياض كتبهـا ألفت الـريـاض فهي إليهـا دائمـة الـرجـع، وقـد سكنت النجـوم فهي أنجم، وأعـدت في كنـانتهـا فهي أسهم، وكـادت تكـون مـلائكة؛ لأنها رسـل نيـطت بهـا الـرقـاع، فصـارت أولى أجنحـة مثنى وثـلاث وربـاع، وقد بـاعد الله مـا بين أسفـارها، وقـربها وجعلهـا طيف خيـال اليقـظة الـذي صدق العـين ومـا كـذبهـا، تـرغم أنف النوى بتقـريب العهـود، وتكـاد العيون بملاحظتها تلاحظ نجم السعود، وهي أنبيـاء الطيـور؛ لكثرة مـا تأتي بـه من الأنباء، وخطباؤها، لأنها تقوم على منابر الأغصان مقام الخطباء».

وعلى كل فإن القاضي الفاضل كـان يعنى بما يكتب، ويـوجه إليـه همه الـذي يبـدو على مـلامح وجهـه، يقول عبـد اللطيف البغدادي في وصفـه حينـما دخـل عليـه «رأيت شيخـاً ضئيـلاً كله رأس وقلب، وهـو يكتب ويمـلي عـلى اثنـين، ووجهه وشفتاه تلعب بـألوان الحـركات، لقـوة حرصـه في إخراج الكـلام وكأنـه كان يكتب بجملة أعضائه[1].

---

(١) عيون الأنباء ٢/ ٢٠٥

(د) الاقتباس من القرآن الكريم،

وتلك ظاهرة جللت أساليب العصر إلا أنها كانت عند الفاضل أكثر وأظهر، من ذلك قوله يصف كتبه ورسائله: وقد علم الناس أن كتبي لا لغو فيها ولا تأثيم، ولا مجال فيها لهمّازٍ مشّاء بنميم وإنّي فيها لعلى هدى قويم (انظر المختار من انشاء الفاضل ص ٥٤).

(ب) أصحاب المقامات

(١) ابن دريد

نذكره في هذا المقام، لا لأنه منشيء فن المقامات، كما قيل، ولكن لأنه أهم الروافد التي استمد منها البديع مقاماته، ان أحاديثه الأربعين - كما نرى - لم ترق إلى حد المقامات بمعناها الأدبي المأثور ولكنها من غير شك كانت إرهاصاً لها، وحجر الأساس في بنائها. . . ترى ما نسبه؟ وما حياته؟ وإلى أي حد أسهمت أحاديثه تلك في هذا الفن الجديد، المنسوب إلى بديع الزمان؟

نسبه وحياته:

هو العالم اللغوي، والأديب الراوية، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، كان جده (حمامي)[1] أول من أسلم من آبائه، وكان من السبعين راكباً الذين خرجوا مع عمرو بن العاص، من عمان إلى المدينة، لما بلغهم وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يقول قائلهم:

وفينا لعمرو يوم عمرو كأنه   طريد تفته مذ حج والسكاسك[2]

ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ هـ في خلافة المعتصم[3]، وكان أبوه من ذوي الرياسة والثراء، وبها تأدب وتعلم، على يد شيوخها الأجلاء، وحسبك أن

---

(١) حمامي: نسبة إلى حماما وهي قرية بنواحي عمان

(٢) معجم الأدباء ١٨ / ١٢٩، والسكاسك حي باليمن

(٣) نزهة الألبا في طبقات الأدباء ص ٢٢٣

يكـون من بينهم، أبو عثمـان الاشنانـداني. وأبـو هفـان الشـاعـر: وأبـو حـاتم السجستـاني، والزيـادي، والريـاضي[1]، فضـلاً عن عمـه الحسـين بن دريـد، الـذي بـاشر تـربيتـه، واستـدعى لـه المؤدبـين، وعنـه روى كتـاب «مسـالمـات الاشراف».

ولما رحل عمـه إلى «عمان» رحـل معه، وأقـام بهـا اثنتي عشـرة سنـة، عـاد بعدها إلى البصرة عالماً ضليعاًفي علوم اللغة، مما حدا بابن ميكـال عامـل الخليفة المقتدر بالله على الأهواز ـ أن يختاره مؤدباً لولده اسماعيل، وقـد وجد في رحـاب الأمـير وابنـه من طيب الاقـامـة مـا أطلق لسانه بـالثناء والمـدح، وفيهـما أنشأ مقصورته المشهـورة، فوصـلاه بعشرة آلاف درهم وقلداه ديـوان فارس، ومن ثم بدأت حياته السياسية، ولولا كرمه واسـرافه لعـاد إلى بغداد مـوسراً، حينـما عاد إليهـا سنة ٣٠٨ بعـد عزل ابني ميكـال واستقرارهمـا بخـراسـان. . . فلما عـرف المقتدر بخبره أجرى عليه خمسين ديناراً في كـل شهر. تـوفي سنة ٣٢١ يـوم مات الجبائي المعتزلي، فقال الناس: مات عالما اللغة والكـلام، ودفنا بمقبـرة الخيزران ببغـداد، وخلف وراءه ثـروة أدبيـة، لا ينضب معينهـا، تفصـح بهـا تـلاميـذه الأعـلام من أمثـال أبي الحسن عـلي بن أحمـد، الملقب بغـلام ابن دريـد لـطول خدمته وصحبته له، وأبي سعيـد السيرافي شـارح سيبويـه، والمرزبـاني، صاحب المـوشح، والقـالي، صاحب الآمـالي، والأصفهـاني صـاحب الأغـاني[2].. وفي رثائه يقول جحظة البرمكي:

فقـدت بـابن دريـد كـل فـائـدة | لما غـدا ثـالث الأحجـار والتـرب[3]
وكنت أبكي لفقـد الجـود مـنفـرداً | فصـرت أبكي لفقـد الجـود والأدب

كتبه:

ذكرت له المصادر كتباً عديدة، لعل أهمها ما يلي:

١ ـ كتاب الجمهرة في اللغة: طبع بحيـدر أباد، اشتـرك في تحقيقه المستشـرق

---

(١) بغية الوعاة للسيوطي/ ٣٠ ط السعادة

(٢، ٣) بغية الوعاة/ ٣١. ومعجم الأدباء جـ ١٨/ ١٣٦.

«كرنكو» وقد صنفه على منهج كتاب العين للخليل، وأملاه على أبي العباس الميكالي.

٢ ـ كتاب الاشتقاق: شرح فيه أسماء القبائل والعمائر، وأفخاذها وبطونها، وتجاوز ذلك إلى ذكر أسماء سادتها، وشعرائها وفرسانها.

٣ ـ كتاب الملاحن: ألفه، كما يقول، «ليفزع إليه المجبر المضطهد على اليمين المكره عليها» ـ يريد له لذلك مخرجاً، فإذا قال المضطر: والله ما قتلت، ولا جرحت، ولا طعنت، فمن معاني القتل: المزج ومن معاني الجرح: الكسب، ومن معاني الطعن: تناول العرض. نشره لأول مرة بأوربا (ريت W. Wright) في ليدن سنة ١٨٥٩ ونشر أخيراً بالقاهرة بتحقيق الشيخ إبراهيم أطفيش الجزائري.

٤ ـ كتاب أدب الكاتب: وضعه، كما يقول ابن النديم، على مثال أدب الكاتب لابن قتيبة، ويسمى أيضاً «تقويم اللسان».

٥ ـ كتاب الأمالي: لخصه جلال الدين السيوطي في كتاب سماه «قطف الوريد».

٦ ـ كتاب المجتنى: يشتمل على فنون مختلفة من الأخيار المونقة، والألفاظ المستشرقة، والأشعار الرائعة والمعاني الفخمة، والحكم المتناهية، والأحاديث المنتخبة، وقد سماه كتاب المجتني لاجتنائه فيه ظرائف الآثار، تجتني أطايب الثمار، طبع كذلك بحيدر أباد بعناية المستشرق كرنكو.

منزلته العلمية:

للعلماء فيه أقوال مأثورة تنبيء عن علو كعبه في اللغة والأدب، يقول أبو الطيب اللغوي: «وكان أحفظ الناس وأوسعهم علماً، وأقدرهم على شعر، وما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر، وأبي بكر ابن دريد».

ويقول أبو بكر بن روق الأسدي، «وكان يقال: إن أبا بكر بن دريد أعلم

الشعراء، وأشعر العلماء».

على أنه في عالم الشعر لم يشتهر إلا بمقصورته، لطولها، وبلاغتها، وإعجاب الأدباء بها، حتى عارضوها. وكذا المستشرقون الذين ترجموها، ترجمها إلى اللاتينية «هوتسما Houtsama» وعلى كل فقد كان لسعة اطلاعه أثر واضح في دقة فهمه لمرامي الشعراء، ولا أدل على ذلك مما رواه الرصافي قائلاً: «حدثنا بعض أصحابنا قال: حضرت مجلس أبي بكر بن دريد، وقد سأله بعض الناس عن معنى قول الشاعر:

هجرتك لا قلي مني ولكن ... رأيت بقاء ودك في الصدور
كهجر الحائمات الورد لما ... رأت أن المنية في الورود
تفيض نفوسها ظمأ وتخشى ... حِماماً فهي تنظر من بعيد[1]

فقال «الحائم» الذي يدور حول الماء ولا يصل إليه، يقال: حام يحوم حياما. ومعنى الشعر أن الأيائل تأكل الأفاعي في الصيف فتحمى فتلهب بحرارتها، وتطلب الماء، فإذا وقعت عليه، امتنعت من شربه وحامت حوله تتنسمه، لأنها إن شربته في تلك الحال، صادف الماء السم الذي في جوفها فتلفت، فلا تزال تدفع بشرب الماء حتى يطول بها الزمان، فيسكن ثوران السم، ثم تشربه فلا يضرها.

ومن ذلك أيضاً ما حدث به عن نفسه بقوله: «سقطت من منزلي بفارس، فانكسرت ترقوتي، فسهرت ليلي. فلما كان في آخر الليل، حملتني عيناي، فرأيت في نومي رجلاً طويلاً، أصفر الوجه كوسجاً، دخل عليَّ، وأخذ بعضادتي الباب، وقال: أنشدني أحسن ما قلت في الخمر فقلت ما ترك أبو نواس شيئاً، فقال أنا أشعر منه فقلت: ومن أنت؟ قال: أبو ناجية من أهل الشام ثم أنشدني:

وحمراء قبل المزج صفراء بعده ... بدت بين ثوبي نرجس وشقائق
حكت وجنة المعشوق صرفاً فسلطوا ... عليها مزاجا، فاكتست لون عاشق[2]

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٨/ ١٤٠.
(٢) المرجع السابق /١٣٣.

فقلت لـه: أسأت. قـال: ولم؟ قلت: لأنك قلت: وحمـراء فقـدمت الحمـرة ثم قلت بـدت بين ثـوبي نرجس وشقـائق فقدمت الصفـرة. فـألا قـدمتهـا عـلى الأخرى، كما قدمتها على الأولى، فقال: ومـا هذا الاستقصـاء في هذا الـوقت يا بغيض؟

وهكـذا كـان ابن دريـد مـرهف الحس، دقيق الفهم، كـما كـان مشغـوفـاً بـالكتب. مقدراً لهـا. . يقول أبـو نصر الميكالي: تـذاكرنـا المتنزهـات يومـاً وابن دريـد حاضر، فقـال بعضهم: أنزه الأمـاكن غوطـة دمشق، وقال آخـرون: نهر الأبلة، وقال آخرون: بل صغد سمرقند، وقـال بعضهم: نهروان بغداد، وقـال بعضهم: شعب بـوان، وقـال بعضهم نـوبهـار بلخ. . فقـال: هـذه متنـزهـات العيـون فأين أنتم عن متنـزهـات القلوب؟ قلنـا: ومـا هي يـا أبـا بكـر؟ قـال: عيـون الأخبار للقتيبي، والـزهرة لابن داود، وقلق المشتـاق لابن أبي طاهـر. ثم أنشأ يقول[1]:

ومـن تـك نـزهـتـه قـيـنـة ... وكـأس تحـث وكـأس تـصـب
فـنـزهـتـنـا واسـتـراحـتـنـا ... تـلاقـي العيـون، ودرس الكتـب

ومع ذلك فقـد رمي بافتعـال العربيـة[2]، وتوليـد الألفاظ، وإدخـال ما ليس من كلام العرب في كـلامها، وبعضهم لم يـوثقه في روايتـه، وهذا تحـامل ظـاهر فإن كتاب الجمهرة قد شرق وغرب ونال حسن القبول.

أحاديث ابن دريد

كان ابن دريد يحاضر تلاميذه في مسائل لغويـة، ونصوص أدبيـة، ويبدو أنـه قـد أحس بجفاف اللغـة، وسوء وقعهـا على طـلابه، فـأخذ يـراوح بينهـا وبـين أحـاديثه الـطريفة التي لا تخلو أيضـاً من فائـدة لغويـة. . . هـذه الأحـاديث هي التي عارضها البديع بمقاماته كما يقول الحصري والثعالبي.

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٨/١٤٣.
(٢) بغية الوعاة/٣١.

الدريدية» التي رصع بها القالي أماليه، وقد يكون من بينها أيضاً قصة حج أبي نواس إلى البيت الحرام، تلك التي ذكرها أبو حمزة الأصفهاني جامع ديوانه. . .

ومما يقوى هذا الظن أن ثمة تشابهاً واضحاً بين بعض المقامات وبين بعض هذه الأحاديث.

(أ) فالجانب الوصفي واحد عند الاثنين. . . وصف ابن دريد الفرس ووصفه البديع في المقامة الحمدانية بمثل أسلوبه، وكذلك وصف الأسد. . . غير أن الامام اللغوي ـ ابن دريد ـ كان مولعاً بالغريب الذي ينـد عن الافهام. . . استمع إليه يقول. ابتاع شاب من العرب فرساً، فجاء إلى أمه، وقد كف بصرها. فقال: يا أمي، إني اشتريت فرساً، فقالت: صفه لي، قال: إذا استقبل فظبي ناصب[1]، وإذا استدبر فهقل[2] خاضب[3]، وإذا استعرض، فسيد[4] قارب، مؤلل[5] المسمعين، طامح الناظرين، مذعلق[6] الصبيين[7]، قالت: جودت إن كنت أعربت. قال: إنه مشرف التليل[8]، سبط الخصيل، وهواه الصهيل، قالت: أكرمت فارتبط[9].

(ب) والجانب الحواري واحد كذلك، غير أن بطل المقامات خبيث ماكر يحتال لرزقه بالغش والخداع، أما البطل عند ابن دريد، فرزقه يأتيه في عزة وكرامة، استمع إليه يقول: حدثنا عبد الرحمن عن عمه قال: «بينما أنا سائر في بلاد بني عامر إذ مررت بحلة. . .، وإذا رجل ينشد في ظل خيمة له وهو يقول:

أحقا عباد الله أن لست ناظراً إلى قرقرى يوماً وأعلامِها الغُبْرِ

---

(١) الناصب الذي نصب عنقه

(٢) الهقل: الذكر من النعام

(٣) الخاضب: الذي أكل الربيع فأحمر طنبوباه

(٤) السيد: الذئب

(٥) مؤلل محدد والألة: الحربة

(٦) مذعلق: ملتوي.

(٧) الصبيان: عظمان منحنيان

(٨) التليل: العنق

(٩) الأمالي جـ ١/ ٤١.

كـأن فـؤادي كـلما مـرّ راكـب جنـاج غـراب رام نهضـا إلى وكـر
إذا ارتحلت نحـو اليمـامـة رفـقـة دعـاك الهوى، واهتـاج قلبك للذكـر
فيـا راكب الـوجـنـاء أبْتَ مسلماً ولا زلت من ريب الحـوادث في ستر
إذا مـا أتيت العـرض فـاهتف بجـوه سقيت ـ على شحط النوى سبلُ القطر
فـإنـك مـن وادي إلى مـرجـب وإن كنت لا تـزداد إلا عـلى عـفـر

قـال: فأذنت لـه، وكـان نـدي الصـوت، فلما رآني أومـأ إليَّ فـأتيتـه فقـال: أأعجبـك مـا سمعت؟ فقلت: أي والله، فقـال: من أهـل الحضـارات أنت؟ قلت: نعم، قـال: فمن تكـون؟ قلت: لا حـاجـة لـك في السؤال عن ذلـك، فقـال: أو ما حـل الاسلام الضغـائن، وأطفأ الأحقـاد؟ قلت: بـلى، قـال: فـما يمنعـك إذا؟ قلت: أنـا امـرؤ من قيس، فقـال: الحبيب القـريب، من أيهم؟ فقلت: أحـد بني سعـد. . . فقـال: زادك الله قـربـاً، ثم وثب فـأنـزلني عن حماري، وألقى عنه إكافه، وقيده بقراب خيمتـه، وقام إلى زنـد فاقتـدح؛ وأوقد ناراً؛ وجاء بصيدانة فألقى فيها تمـراً؛ وأفرغ عليـه سمناً؛ ثم لفتـه حتى التبك؛ ثم ذر عليـه دقيقاً وقـربه إليَّ؛ فقلت: إني إلى غـير هذا أحـوج؛ قال: ومـا هو؟ قلت: تنشـدني. فقال: أصب فـإني فاعـل، فلقمت لقيمـات وقلت: الـوعـد. فقال: ونعمى عين، ثم أنشدني: قال: ففـارقته؛ وأنـا من أشد النـاس ظمأ إلى معاودة إنشاده[1].

(ج) الأسلوب المسجـوع: نلمحه في المقـامات بجـلاء؛ أمـا في أحـاديث ابن دريد فلا يكاد يظهـر إلا في الجانب الـوصفي، نلمحه في الحـديث التالي عن أبي عمرو بن العلاء؛ قال: (كان لرجل من مقاول حمير ابنان؛ يقال لأحـدهما عمـرو وللآخر ربيعة، وكانـا قد بـرعا في الأدب: فلما بلغ الشيـخ أقصى عمره؛ وأشفى على الفناء؛ دعاهما ليبلو عقليهما؛ ويعرف مبلغ علمهـما؛ فلما حضرا قـال لعمرو ـ وكان الأكبر ـ أخبرني عن أحب الرجال إليك؛ وأكـرمهم عليك. قـال: السيد الجواد الرفيع العماد؛ العظيم الرماد؛ الكثير الحسـاد، الباسـل الذواد؛ الصـادر

---

(١) الامالي جـ ١/١١٧، ١١٨

تـرى أين هذه الأحـاديث التي أغرب بهـا في مجـالسـه؟ قـد تكـون «القصص الـوراد، قال: مـا تقول يـا ربيعة؟ قـال: ما أحسن مـا وصف به، وغيـره أحب إليَّ منـه. قال: ومن يكـون بعد هـذا؟ قال: السيـد الكريم، المـانع للحـريم، المفضـال الحليم، القمقام الـزعيم؛ الذي إذا هم فعـل؛ واذا سئل بـذل؛ قال: أخبـرني يـا عمـرو بـأبغض الـرجـال اليـك، قـال: البـرم اللئيم؛ المستخـذي للخصيم؛ المبـطان النهيم؛ العي البكيم؛ الـذي اذا سئـل منـع؛ وان هـدد خضع؛ وإن طلب جشع. قال ما تقـول يا ربيعـة؟ قال: غيـره أبغض اليَّ منه. قـال: ومن هـو؟ قـال: النؤوم الكـذوب؛ الفـاحش الغضـوب الـرغيب عن الطعام؛ الجبان عند الصدام...»[1].

أرأيت كيف بـدأ الحديث بـأسلوب مـرسـل؛ فلما عمـد الى وصف أحب الـرجال إليـه، عمـد الى السجـع؛ ومـال إلى عـرض الألفـاظ؟ أليس ذلـك من خصـائص المقـامـات؟ ولكن أي المقـامـات نـريـد؟ إن قصصـه تكـاد تخلو من «العقـدة الفنية» التي ازدانت بهـا المقامـات؛ ومن ثم سميت بالأحـاديث؛ ولولا أن بهـا روح الحكايـة، والميل إلى التسجيـع، وحشـوهـا بـالغـريب، فضـلاً عن أسلوبها الحواري وغير ذلك مما ألهم البديـع لضربنـا عنها وعن صـاحبها صفحـاً في هذا المقام.

(١) الأمالي جـ ١/١٥٢

(٢) بديع الزمان

الكاتب المترسل، والأديب المجدد، والشاعر المبدع، قدوة الحريري وقريع الخوارزمي، أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد، الملقب ببديع الزمان، ولد بهمذان ـ إحدى المدن الجبلية بايران ـ سنة ٣٥٨، وعاش بها نيفاً وعشرين سنة: ومن ثم ظن الكثيرون أنه فارسي الأصل، والواقع أنه عربي صميم، وأن نسبه ينتهي إلى «تغلب» إحدى القبائل المضرية، وقد أفصلح عن ذلك في إحدى رسالاته بقوله متلطفاً، (إني عبد الشيخ، واسمي أحمد، وهمذان المولد، وتغلب المورد، ومضر المحتد).

أخذه والده منذ حداثته بدراسة علوم الدين واللغة والأدب، وتخرج في ذلك على يدي أستاذيه: ابن فارس صاحب «المجمل في اللغة» وعيسى بن هشام الأخباري[1]. ذكر أبو شجاع في «تاريخ همذان» أنه كان متعصباً لأهل الحديث والسنة، متهماً بمذهب الأشاعرة[2].

رحلاته:

ضاقت به همذان على رحبها، ولم تتسع لآماله ومطامحه، فأزمع الرحيل عنها طلباً للمجد والمال، وكانت شهرته الذائعة تسبقه أينما حل وأينما سار، فيبتهج لمقدمه كثيرون، ويبتئس لذلك آخرون..

كانت رحلته الأولى إلى «الري» حيث الصاحب بن عباد ـ وزير بني بويه وهو كما نعلم قبلة كل شاعر وناثر، فلما نزل البديع بساحته، وآنس منه رشداً، قربه إليه، وأغدق عليه، وخصه بترجمة ما يختاره من الأبيات الفارسية إلى الشعر العربي، فجمع في ذلك بين الابداع والإسراع كما يقولون.

ويبدو أن العواصم الأخرى ـ وكانت تتنافس فيما بينها في تقريب العلماء والأدباء ـ قد فتحت له صدرها، فنراه يغادر بني بويه إلى جرجان وخراسان، ثم إلى نيسابور سنة ٣٨٢ هـ حيث الأمير الأديب أبو الفضل الميكالي الذي تفيأ ظلاله من قبل أبو بكر الخوارزمي، باقعة الدهر وعلم نيسابور الفرد..،

---

(١) معجم الأدباء جـ ٢/١٦١، وفيات الأعيان جـ ١/١٢٧.

(٢) المعجم جـ ٢/١٦٢.

ويقيني أنه ما ترك الصاحب عن جفوة أو قلي، وإنما حملته المنافسة للخوارزمي أن يغزوه في عقر داره، فإن ظهر عليه ـ وهذا ما حدث ـ طبقت شهرته الآفاق، ودرت عليه أخلاف الرزق، وإلا فماذا يضيره ولما يزل حدثاً يافعاً. وقد تمّ له ما أراد وأصبح له معجبون يصفقون له كلما سجّع، ويهتفون به كلما رجّع، وما كان ذلك بالأمر الهين على أديب نيسابور فمات كمداً في عامه، وبموته خلا له الجو «وأملى أربعمائة مقامة نحلها أبا الفتح الاسكندري في الكدية وغيرها، وضمنها ما تشتهي الأنفس؛ وتلذ الأعين من لفظ أنيق قريب المأخذ، بعيد المرام، وسجع رشيق المطلع والمقطع كسجع الحمام، وجد يروق فيملك القلوب، وهزل يشوق فيسحر العقول»[1].

أما خاتمة المطاف فكانت مدينة «هراة» ـ بين خراسان والهند ـ تلك التي استقر بها بعد أن طوف في الحواضر الاسلامية ما طوف حتى لم يبق بلدة من بلاد خراسان وسجستان وغزنة إلا دخلها، وجنى من ثمراتها، وجبى من مبراتها كما يقول الثعالبي.

ولما استقرت به النوى بهراة أخذ يتعرف الناس، ويتوسم الأشراف ليختار من بينهم صهراً كريماً يعيش في رحابه، فلما وفق إلى أبي علي بن الحسين الخشنامي، صفا له العيش، وأقبلت عليه الدنيا، واقتنى الضياع المغلة بمعونة صهره، ولكن المنية عاجلته ولما يسترح من رحلته الطويلة، فمات سنة ٣٩٨ في سن الأربعين.

بين البديع والخوارزمي

كان الخوارزمي أديب نيسابور الأشهر غير مدافع ولا مزاحم، وما كان يدور في الوهم أن أحداً من العلماء أو الأدباء يتصدى لمساجلته ومصاولته غير أن بديع الزمان تحرش به، وتلمس لذلك الأسباب؛ مدعياً أنه لم يسر بمقدمه، وأنه تجهم عند لقائه وعبثاً حاول أن يمت إليه بصلة الأدب وهي أقوى سبب وأغر نسب، فما زاده ذلك إلا تبرماً وتجهماً، فكتب إليه يقول:

«الأستاذ أبو بكر ـ والله يطيل بقاءه ويديم تأييده ونعماءه ـ أزرى بضيفه أن

(١) يتيمة الدهر جـ ٤/٢٥٧.

وجـده يضرب إليـه آباط القلة، في أطمـار الغـربـة، فـأعمـل في تـرتيبـه أنـواع المصـارفة، وفي الاهتـزاز له أنـواع المضايقـة؛ من إيماء بنصف الـطرف، وإشارة بشـطر الكف، ورفع في صـدر القيام عن التمـام، ومضغ الكـلام، وتكلف لرد السلام، وقد قبلت ترتيبه صعراً واحتملته وزراً واحتضنته نكراً، وتـأبطتـه شراً، ولم آله عذراً، فـإن المرء بـالمال، وثيـاب الجمال ولست مـع هذا الحـال وفي هذه الأسمال، أتقزز صفـ النعـال فلو صدقتـه العتاب، ونـاقشته الحسـاب، لقلت: إن بـوادينا ثـاغية صبـاح وراغيـة رواح، ونـاسـاً يجـرون المـطارف، ولا يمنعـون المعارف.

وفيهم مقـامـات حسـان وجـوهها　　　وأنـديـة ينتـابهـا القـول والفعـل

ولو طوحت بـأبي بكر ـ أيـده الله ـ طوائـح الغربـة، لوجـد مغني البشر قريبـاً ومحط الرحل رحيباً، ووجه المضيف خصيبـاً، ووجه الأستـاذ أبي بكر. أيـده الله ـ في الوقوف على هذا العتاب الذي معنـاه ود، والمر الـذي يتلوه شهد مـوفق إن شاء الله تعالى[1].

فأجاب الخوارزمي:

وصلت رقعـة سيدي ومـولاي ورئيسي ـ أطال الله بقـاءه ـ وعرفت مـا تضمنه من خشن[2] خطابه، ومؤلم عتابه، وصرفت ذلك منـه إلى الضجر الـذي لا يخلو منه من مسه عسر ونبـابه دهـر، والحمد لله الـذي جعلني موضـع أنسه، ومـظنة مشتكى ما في نفسه. أما ما شكـاه سيدي ورئيسي، من مضـايقتي إياه في القيـام وتكلفي بـرد السلام، فقـد وفيته حقـه، أيده الله سـلامـاً وقيـامـاً عـلى قـدر مـا قدرت عليه، ووصلت إليه، ولم أرفع عليـه إلا السيد أبـا البركـات العلوي أدام الله عزه، وما كنت لأرفع أحداً على من جده الـرسول، وأمـه البتول، وشـاهداه التوراة والإنجيل، وناصراه التأويل والتنـزيل، والبشـير به جبـرائيل وميكـائيل. فـأمـا القـوم الـذين صـدر سيـدي عنهم فكـما وصف، حسن عشـرة، وسـداد

(١) معجم الأدباء جـ ٢ / ١٨٧.

(٢) في المعجم حسن خطابه وهو تحريف

طريقة، وكمال تفصيل وجملة، ولقد جاورتهم فأحمدت المراد[1]. ، ونلت المراد.

فإن كنت قد فارقت نجداً وأهله فما عهد نجد عندنا بذميم

والله يعلم نيتي للاخوان كافة، ولسيدي من بينهم خاصة، فإن أعانني الدهر على ما في نفسي بلغت إليه ما في الفكرة، وجاوزت مسافة القدرة، وإن قطع على طريق عشرتي بالمعارضة، وسوء المؤاخذة صرفت عناني عن طريق الاختيار بيد الاضطرار.

فما النفس إلا نطفة بقرارة اذا لم تكدر كان صفواً معينها

(وبعد). فحبذا عتاب سيدي اذا استوجبنا عتباً، واقترفنا ذنباً، فأما أن يسلفنا العربدة ويستكثر المعتبة والموجدة فنحن نصونه عن ذلك، ونصون أنفسنا عن احتماله، ولست أسومه أن يقول: (استغفره لنا إنا كنا خاطئين)، ولكني أسأله أن يقول: «لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين»[2].

هذا، ولم تكف المراسلات التي بدأت هكذا بالبغضاء، «وما تخفى صدورهم أكبر» وانتهت المناظرة الكبرى التي دعا الى عقدها الواشون؛ ليروا ماذا تكون من أمر الفحلين المتصاولين.. فأسفرت عن غلبة البديع على نحو ما هو مفصل في كتب التراجم والطبقات.

بلاغته وأسلوبه:

اقتدى البديع بابن العميد، في سجعه وترجيعه، وبالجاحظ في جده ومزحه، فجمع بذلك بين محاسن المدرستين العريقتين، البارزتين في تاريخ النثر الفني إلى وقتنا الحاضر، وعن هذه وتلك كان يصدر أبو الفضل ويتفصح، وهو لا يصدر إلا عند طبع أصيل، ولا يتفصح إلا على عرق عريق... لا يتكلف ولا يتشدد، ولا يكره لفظة مستعصية أو قافية نافرة، فإن

---

(١) المراد بفتح الميم = مصدر ميمي من راد المكا يروده بمعنى طلب

(٢) معجم الأدباء جـ ٢/١٨٨، ١٨٩.

تأبى عليه السجع اكتفى بالازدواج، وناهيك ببلاغته إن صدر عن فطرة مواتية. . . أما مقاماته فقد أقامها على «الكدية والتحيل» وقلما يخلوان من تندر وتفكه أو تهكم مرير. . وفي ظلال ذلك كله خفت حدة (الغريب) الذي لقنه عن أستاذه (ابن فارس) ونشره في مقاماته عن عمد؛ لاحياء دارس الألفاظ، وطبعها في أذهان الناشئين، نلمح كل هذا في مقامته البغدادية التي أنشأها على لسان راويه وفيها يقول:

«حدثنا عيسى بن هشام قال: اشتهيت الازاذ[1] وأنا ببغداد، وليس معي عقد على نقد، فخرجت أنتهز محاله، حتى أحلني الكرخ فإذا أنا بسوادي يسوق بالجهد حماره، ويطرف بالعقد إزاره، فقلت ظفرنا والله بصيد، وحياك الله أبا زيد. من أين أقبلت؟ وأين نزلت؟ ومتى وافيت؟ وهلم إلى البيت، فقال السوادي: لست بأبي زيد ولكنني أبو عبيد. فقلت: نعم. لعن الله الشيطان، وأبعد النسيان، أنسانيك طول العهد، واتصال البعد، فكيف حال أبيك؟ أشاب كعهدي أم شاب من بعدي؟ فقال: نبت الربيع على دمنته[2]، وأرجو أن يصيره الله إلى جنته. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ومددت يد البدار إلى الصدار أريد تمزيقه، فقبض السوادي على خصري بجمعه وقال: ناشدتك الله لا مزقته. فقلت: هلم إلى البيت نصب غداء، أو إلى السوق نشتر شواء، والسوق أقرب وطعامه أطيب، فاستفزته حمية القرم[3]، وعطفته عاطفة اللقم، وطمع، ولم يعلم أنه وقع. ثم أتينا شواء يتقاطر شواؤه عرقاً، وتتسايل جوذاباته[4] مرقاً، فقلت: افرز لأبي زيد من هذا الشواء، ثم زنْ له من تلك الحلواء، واختر له من تلك الأطباق، وانضدد عليها أوراق الرقاق، ورش عليه شيئاً من ماء السماق، ليأكله أبو زيد هنياً. فأنحى الشواء بساطوره، على زبدة تنوره، فجعلها كالكحل سحقاً، وكالطحن دقاً. ثم جلس وجعلت، ولا يئس ولا يئست

(١) نوع من التمر أو الحلوى

(٢) كناية عن وفاته منذ زمن بعيد.

(٣) شدة النّهم.

(٤) الجوذابة: الرغيف.

حتى استوفينا وقلت لصاحب الحلوى: زن لأبي زيد من اللوزينج رطلين، فهو أجرى في الحلوق، وأمضى في العروق، وليكن ليلي العمر[1]، يومي النشر، رقيق القشر، كثيف الحشو، لؤلؤي الدهن، كوكبي اللون، يذوب كالصمغ، ليأكله أبو زيد هنياً. قال: فوزنه، ثم قعد وقعدت، وجرد وجردت حتى استوفيناه ثم قلت: يا أبا زيد: ما أحوجنا إلى ماء يشعشع بالثلج، ليقمع هذه الصارة[2]، ويفثأ هذه اللقم الحاره. اجلس يا أبا زيد حتى نأتيك بسقاء، يأتيك بشربة ماء. ثم خرجت وجلست بحيث أراه ولا يراني، أنظر ما يصنع، فلما أبطأت عليه قام السوادي إلى حماره، فاعتلق الشواء بازاره وقال: أين ثمن ما أكلت؟ فقال أبو زيد: أكلته ضيفاً، فلكمه لكمة، وثنى عليه بلطمة، ثم قال الشواء: هاك. ومتى دعوناك؟ زن يا أخا القحة عشرين، فجعل السوادي يبكي، ويحل عقده بأسنانه، ويقول: كم قلت لذاك القريد: أنا أبو عبيد وهو يقول: أنت أبو زيد فأنشدته:

اعمل لرزقك كل آله   لا تقعدن بكل حاله
وانهض بكل عظيمة   فالمرء يعجر لا محاله

أرأيت إلى ما في المقامة من غريب الألفاظ [الأزاذ، السوادي - والقرم، والجوذبات، والسماق، واللوزينج، والصارة، ويفثأ] ومع غرابتها فقد اتضحت معانيها من السياق ومرت على الآذان - في جو القصة - مر النسيم.

وهل استمعت أيضاً إلى موسيقى السجع والازدواج، تنبعث هادئة عذبة من خلال المقاطع القصيرة، والفقرات المتعادلة المتوازنة.

هذا. ومن خصائص أسلوبه أيضاً كثرة الاقتباس من القرآن والشعر والأمثال، تمده بذلك ذاكرة قوية واعية، تختزن ما يقرأ، فإذا دعا الداعي إليه انبثق في الذهن، وإنثال على القلم من غير جهد أو معاناة، ألم نره في إحدى رسائله يتبع طريقة التضمين فشفع الفقرة من قوله، بالشطر من أبيات غيره، فلا تكاد تحس أنها لسواه، وتعنى بها أولى رسائله إلى الخوارزمي يمد إليه حبال

(١) ليلي العمر أي صنع ليلا وترك حتى الصباح فتشرب دهنه وعسله.
(٢) الصارة = العطش.

المودة، نذكر منها قوله(1): (إنا لقرب الأستاذ، كما طرب النشوان مالت به الخمر، ومن الارتياح للقائه كما انتفض العصفور بلله القطر، ومن الامتزاج بولائه كما التقت الصهباء والبرد والعذب، ومن الابتهاج بمزاره كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب... وهكذا تمضي الرسالة يراوح فيها بين قوله وأشعار غيره، وكيف وقع كل منهما من صاحبه موقع القرين من القرين وعلى كل فإن عبقريته قد تجلت في حل أبيات الشعر ونثرها في منثوره، فمن يقرأ المقامة الرصافية يدرك تماماً أنها صدى لقصيدتين صورا حيل المكدين أحدهما لأبي دلف الخزرجي(2) والثانية للأحنف العكبري، ذكرهما الثعالبي في يتيمته في حديثه عن أصحاب الكدية المعروفين إذ ذاك «بالساسانيين» نسبه إلى أحد أبناءالساسانيين، حرمه أبوه الملك فهام على وجهه يحتال لرزقه «بالكدية».

أما «الطباق» أو «المقابلة» فيبدو أنهما في نثره كانا بقدر، وأنه لم يتجه إليهما إلا قليلاً(3).

وإذا ضربنا صفحاً عن «الطباق» في نثره، أو «المقابلة» لأنهما وردا عنده بقدر، ثم انتقلنا إلى «فن الجناس» فقد لمسنا منه الصميم... كان غالباً على أسلوبه؛ وعلى كثرته كان عذب الموسيقى، جميل الإيقاع متى أرسل القلم على سجينه، فإن عمد إلى مداعبة الألفاظ، وتلاعب بها رغبة في إظهار المقدرة بدأ تكلفه وسقطت رتبته، فمن ذلك قوله يصف اللصوص الذين قطعوا الطريق عليه من جرجان إلى نيسابور وسلبوه ماله... «كتابي، وأنا أحمد الله إلى الشيخ، وأذم الدهر، فما ترك لي فضة إلا فضها، ولا ذهباً إلا ذهب به، ولا علقاً إلا علقه، ولا عقاراً إلا عقره، ولا ضيعة إلا أضاعها، ولا مالاً إلا مال

---

(1) معجم الأدباء جـ ١٦٧/٨.

(2) أنظر القصيدة في ترجمة الحريري في آخر الباب الثالث.

(3) من ذلك قوله:
(.. فاني وإن كنت في مقتبل السن والعمر، قد حلبت شطري الدهر، وركبت ظهري البر والبحر ولقيت وفدي الخير والشر وصافحت يدي النفع والضر، وضربت ابطي العسر واليسر، وبلوت طعمي الحلو والمر، ورضعت ضرعي العرف والنكر، فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريباً أو تسمعني من أحوالها عجيباً، ولقيت الأفراد، وطرحت الآحاد، فما رأيت أحداً إلا ملأت حافتي سمعه وبصره وشغلت حيزي فكره ونظره [رسائل بديع الزمان ١٠١]

إليه، ولا حالاً إلا حال عليه، ولا فرساً إلا افترسه، ولا سيداً إلا إستبد به، ولا لبداً إلا لبد فيه، ولا بزةً إلا بزها ولا عارية إلا ارتجعها، ولا وديعة. إلا انتزعها، ولا خلعة إلا خلعها، وأنا أدخل نيسابور، ولا حلية إلا الجلدة، ولا بردة إلا القشرة.

ومن ذلك أيضاً قوله في تفضيل العرب على العجم: (العرب أوفى وأوفر، وأوقى وأوقر، وأنكى وأنكر، وأعلى وأعلم، وأحلى وأحلم، وأقوى وأقوم، وأبلى وأبلغ، واشجى وأشجع، وأعطى وعطف، وألطى والطف، وأحصى وأحصف، وأنقى وآنق، ولا ينكر ذلك إلا وقح وتح ولا يجحده إلا نفل نفر».

ونعود فنقول: ليست هذه صفة البديع في إبداعه، وإنما هي نزوة قلب، ورياضة عقل، وخطرة نفس وشطحة قلم، نمسك عنها القلم إنصافاً لمن أطراه الحريري والثعالبي والحصري، وقد رأينا ما ذكره الحريري أما الثعالبي فيقول:

بديع الزمان معجزة همذان، ونادرة الفلك، وبكر عطارد، وفرد الدهر... لم يرَ، ولم يروِ أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره وجاء بمثل إعجازه وسحره، فإنه كان صاحب عجائب، وبدائع وغرائب، فمنها أنه كان ينشد القصيدة التي لم يسمعها قط، وهي أكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها، ويؤديها من أولها إلى آخرها لا يخرم حرفاً، ولا يخل معنى... ... ... ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر، فيرتجله في أسرع من الطرف، على ريق لا يبلعه ونفس لا يقطعه، وكلامه كله عفو الساعة، وفيض اليد، ومسارقه القلم ومسابقة اليد للفم... (1).

ويقول الحصري: «وهذا اسم ـ أي البديع ـ وافق مسماه، ولفظ طابق معناه، كلامه غض المكاسر، أنيق الجواهر، يكاد الهواء يسرقه لطفاً، والهوى يعشقه ظرفاً...»(2).

---

(١) اليتيمة «ط دمشق» جـ ٤/ ١٦٧، ومعجم البلدان جـ ٢/ ١٦٣، ١٦٤.

(٢) زهر الآداب (ط ١/ ٣٠٧).

(٣) الحريري

هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري، ولد في «مشان» - إحدى ضواحي البصرة، وقد ذكر ياقوت[١] وابن الانباري[٢] أن مولده كان سنة ٤٤٦، وهذا القول مردود بإقرارهما في موضع آخر، عند الحديث عن أستاذه أبي القاسم القصباني الذي لقن عنه اللغة والنحو والأدب، فقد أشارا إلى أن وفاة القصباني كانت سنة ٤٤٤[٣]، فكيف يعقل أن تكون ولادة التلميذ بعد وفاة الأستاذ؟

ولعل تحريفاً طرأ على الرواية التي استقيا منها الخبر، فقد روي أن ابن السمعاني سأل إبنه عن وفاته: فقال توفي أبي سنة ٥١٦، وسئل عن مولده فقال: لا أدري غير أنه كان له وقت أن توفي سبعون سنة[٥] ومن خلال هذه الرواية نرجح أنه ولد قبل ذلك التاريخ (سنة ٤٤٦) بعشرين سنة فيكون قد توفي عن تسعين سنة لا عن سبعين، ولا يستبعد التحريف بين هذين اللفظين، وبذلك يكون قد عاصر أستاذه عشرين سنة، ما بين طفل، وشاب. ولا يعقل غير هذا.

انتقل الحريري إلى البصرة، لينتظم في حلقة أبي القاسم القصباني، وكان ضليعاً في النحو واللغة، قال الحريري: ذكر شيخنا القصباني: أنك إذا قلت ما أسود زيداً، وما أسمر عمراً، وما أصفر هذا الطائر، وما أبيض هذه الحمامة، وما أحمر هذا الفرس، فسدت كل مسألة منها من وجه، وصحت من وجه.. فيفسد جميعها إذا أردت بها التعجب من الألوان، وتصح جميعها إذا أردت بها التعجب من سواد زيد، وسمر عمرو [والسمر: الحديث ليلاً]، ومن صفير الطائر، وكثرة بيض الحمامة، ومن حمر الفرس وهو رائحة فمه. وقد

---

(١) معجم الأدباء جـ ٢٦٢/١٦.

(٢) نزهة الألبا/٢٥٧

(٣) معجم البلدان جـ ٢١٨/١٦.

(٤) نزهة الألبا ٤٢٥

(٥) المرجع السابق /٤٥٧.

كان لهذه المقدرة النحوية أثرها الواضح في تلميذه تجلى في كتابه (ملحة الإعراب)، وشرحها.

أما عن طباعه وصفاته وعاداته، فقد ذكروا أنه كان ـ على ثرائه ـ بخيلاً، وكان دميم الخلقة، سليط اللسان، وآية ذلك أن رجلاً قصده، ليقرأ عليه، فاستدل على مسجده الذي يقرأ فيه، فلما أراد الدخول رأى شخصاً دميم الخلقة، فاحتقره، وقال: لعله ليس هو هذا، فرجع ثم قال في نفسه: لعله يكون هذا، ثم استبعد أن يكون هو، والشيخ يلحظه، فلما تكرر ذلك منه، تفرس الشيخ منه ذلك، فلما كان في المرة الأخيرة قال له: ارحل فأنا من تطلب، أكبر من قرد محنك[1].

وفي حصافة عقله يقول ابن الجوزي: إنه فاق أهل زمانه في الذكاء والفطنة[2]، ويقول العماد: «طلعت ذكاء ذكائه في المغرب والمشرق، وامتلأت ببضائع فوائده ونواصع فرائده حقائب المشئم والمعرق»[3] لهذا قلده الخليفة منصباً خطيراً في الدولة، إذ جعله.. صاحب الخبر[4]» بالبصرة في ديوان الخلافة، وقد ظل هذا المنصب وقفاً على أولاده من بعده إلى زمن «المقتفي».

أما ظرفه، وخفة روحه، وملاحة دعاباته فنلمحها في مقاماته كما سنرى بل نلمحها كذلك في بعض مواقفه: «يحكى أنه كان مولعاً بالعبث بلحيته بحيث يتشوه بذلك، فنهاه الأمير وتوعده على ذلك، وكان كثير المجالسة له، فبقي كالمقيد لا يتجاسر أن يعبث بها، فتكلم في بعض الأيام عند الأمير بكلام استحسنه منه، فقال له الأمي: سلني ما شئت حتى أعطيك. فقال له أقطعني لحيتي، فقال له: قد فعلت»[5] وما أشبهه في ذلك ـ دمامة الخلقة وخفة الروح، وحضور البديهة ـ بأبي عثمان الجاحظ.

---

(١) نزهة الألبا ٤٥٦.
(٢) المنتظم: ورقة/٤٨٧، من الجزء الثاني (مجلد ٧).
(٣) الخريدة: ورقة/١٨٣ من الجزء الأول.
(٤) رئيس قلم الاستخبارات الذي يوافي الخليفة بالأنباء اللازمة للجيش وغيره.
(٥) نزهة الألبا ص ٤٥٦، ٤٥٧.

مؤلفاته:

ذكـروا لـه من التصـانيف: كتـاب المقـامـات، ودرة الغـواص في أوهـام الخـواص، وهو كتـاب نقدي يستـدرك بـه عـلى الكتـاب في أوهـامهم، وكتـاب ملحـة الإعـراب، وهي ارجـوزة نحـويـة شـرحهـا في كتـاب خـاص، وكتـاب الرسائل، وكتاب الشعر، وكلها تدل على ملكته اللغوية نحوية وأدبية.

مقامات الحريري

جاءت مقامات الحريري بعد مقامات البـديع وغيـره، كالشـريعة التي تنسـخ ما قبلها من الشـرائع، فشـرّقتْ وغرّبت، وأتهمت وأنجـدت، وترجمت إلى كثـير من اللغات: شرقية وغربية، فتن الناس بهـا، زمناً طـويلاً وتبـاروا في حفظهـا، وقد بلغ عدد المجـازين بروايتهـا سبعمائـة راو كما يقـولون، ولعـل السبب ذلك أنها وافقت هوى العصر، وسايـرت أذواقه، لا لأنها أرجـح من مقامـات البديـع من الناحية الفنية كما قيل.

إن الحـريري لم ينـح بمقامـاته نحـواً قصصياً، وإنما أنشأهـا لغايـات أخرى، أفصح عنها بقوله: (وأنشأت على ما أعانيه من قريحـة جامـدة، وفطنـة خامـدة، وروية ناضبة، وهموم نـاصبة، خمسـين مقامـة، تحتوي عـلى جد القـول وهزلـه، ورقيق اللفظ وجـزلـه، وغـرر البيـان ودرره، وملح الأدب ونـوادره، إلى مـا وشحتها به من الآيات، ومحاسن الكنايات، ورصعته فيها من الأمثـال العربيـة، واللطائف الأدبية، والأحاجي النحوية، والفتاوى اللغويـة، والرسـائل المبتكـرة، والخطب المحبرة، والمواعظ المبكية، والأضـاحيك الملهيـة، مما أمليت جميعـه على لسـان «أبي زيـد السـروجي» وأنسدت روايتـه إلى الحـارث بن همـام البصـري، وما قصدت بالأحماض[1]، إلا تنشيط قـارئيه، وتكثـير سواد طـالبيه، ولم أودعـه من الأشعـار الأجنبية إلا بيتـين فذين، أسست عليهـما بنيـة المقـامـة الحلوانيـة، وآخرين توأمين ضمنتهما خواتم المقامة الكـرجية، وما عـدا ذلك فخـاطري أبـو عذره، ومقتضب حلوه ومره. هذا مع إعتـرافي بأن البـديع ـ رحمـه الله ـ سباق

(١) التنويع من أحماض الإبل، وهو إنتقالها من مرعى حلو النبات إلى آخر مالح.

غايات، وصاحب آيات وأن المتصدي بعده لإنشاء مقامة، ولو أوتي بلاغة قدامة، لا يغترف إلا من فضالته، ولا يسري ذلك المسرى إلا بدلالته، ولله در القائل:

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة ... بسعدي. شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا ... بكاها، فقلت الفضل للمتقدم[1]

لسنا مع القائلين بفضل الحريري على البديع، لا لأن الحريري نفسه يعترف بذلك في كلمته السابقة، بل لأن الناحية الفنية عند البديع أوضح، وعنصر المفاجأة في مقاماته أوقع وأمتع، ومن ثم تراها أدخل في الفن القصصي من تلك التي ملأها الحريري بغريب الألفاظ، وأودعها أسراره الملغزة، ولولا أن أبا العلاء قد مهد له النفوس بألغازه وأحاجيه لما أقبل الناس على مقاماته بهذه الكثرة: وبمثل هذا الميل. . . أرأيت إلى الحريري كيف كان بارعاً في التوفيق بين مقاماته وأذواق العصر؟ فأغتفروا له هذه الشطحات اللغوية الملغزة؛ بل أكبروها، ولكنها في ميزان النقد عبء على الأسلوب.

(أ) تارة يلغز بمسائل النحو، كما في مقامته القطيعية، وقد سبقت الإشارة إليها.

(ب) وتارة يلغز بمسائل الفقه كقوله في مقامة الرملية:

(فلما خيمت بالرملة، وألقيت بها عصا الرحلة؛ صادفت بها ركاباً تعد للسرى، ورحالاً تشد إلى أم القرى، فعصفت بي ريح الغرام، واهتاج لي شوق إلى البيت الحرام، فزممت ناقتي، ونبذت علقي وعلاقتي:

وقلت للائمي أقصر فإني ... سأختار المقام على المقام
وأنفق ما جمعت بأرض جمع ... وأسلو بالحطيم عن الحطام

ثم انتظمت في رفقة كنجوم الليل. لهم في السير جرية السيل، وإلى الخير جري الخيل. فلم نزل بين إدلاج وتأويب، وإيجاف وتقريب إلى أن حبتنا

---

(١) مقامات الحريري (مقدمة) ص ٧ و٨

أيـدي المطايـا بالتحفـة، في إيصالنـا إلى الجحفة. فحللنـاها متـأهبين لـلإحـرام متبـاشـرين بـإدراك الحـرام، فلم يـك إلا أن أنخنـا بهـا الـركـائب، وحـططنـا الحقـائب، حتى طلع علينا من بـين الهضاب، شخص ضـاحي الإهـاب، وهـو ينـادي، يـا أهـل ذا النـادي، هلم إلى مـا ينجي يـوم التنـادي، فـانخـرط إليـه الحجيج وانصلتوا، واحتفوا به وأنصتـوا، فلما رأى تألفهم حـوله، واستعـظامهم قـوله، تسنم إحـدى الآكـام، ثم تنحنح مستفتحـاً للكـلام، وقـال: يـا معشر الحجـاج الناسلين من الفجـاج، أتعقلون ما تـواجهون؟ وإلى من تتـوجهون؟ أم تـدرون عـلى من تقـدمـون؟ وعـلام تقـدمـون؟ أتخـالـون أن الحـج هـو اختيـار الـرواحل؟ وقـطع المراحـل؟ واتخاذ المحـامل؟ وإبقـار الزوامـل؟ أم تـظنـون أن النسـك هو نضـو الأردان؟ وإنضاء الأبـدان؟ ومفارقـة الـولـدان؟ والتنـائي عن البلدان؟ كلا. والله. بل هو اجتناب الخطية، قبـل اجتلاب المطية، وإخـلاص النية في قصد تلك البنيـة، وإمحاض الـطاعة عنـد وجدان الاسـتطاعة وإصـلاح المعاملات أمـام إعمال اليعملات، فوا الـذي شرع المنـاسك للنـاسك، وأرشـد السالك في الليل الحالـك، ما ينقي الاغتسـال بالـذَّنوب، من في الـذُّنوب، ولا تعـدل تعـريـة الأجسـام بتعبيـة الأجـرام، ولا تغني لبسـة الإحـرام عن المتلبس بـالحـرام، ولا ينفـع الاضـطبـاغ بـالإزار مـع الاضـطلاع بـالأوزار، ولا يجـدي التقـرب بـالحلق مـع التقلب في ظلم الخلق، ولا يـرحض التنسـك في التقصـير دون التمسك بالتقصير، ولا يسعد بعرفة، غـير أهل المعـرفة، ولا يـزكو بـالخير من يـرغب في الجيف، ولا يشهـد المقـام إلا من استقـام، ولا يحـظى بقبـول الحجـة، من زاغ عن المحجة، فـرحم الله أمـرأً صفـا قبـل مسعـاه إلى الصفـا، وورد شريعة الرضى، قبل شروعه عـلى الأضا[1]، ونـزع عن تلبيسه، قبـل نزع ملبوسه، وفـاض بمعروفـه، قبل الإفـاضة من تعـريفه، ثم رفـع عقيرتـه بصوت أسمع الصم، وكاد يزعزع الجبال الشم وأنشد:

الحـج سيـرك تـأويبـاً وإدلاجـاً ... ولا اعتيـامـك أجمـالا واحـداجـا[2]

---

(١) الغدران

(٢) مراكب النساء

الحج أن تقصد البيت الحرام على — تجريدك الحج لا تقضي به حاجا
وتمتطي كاهل الانصاف متخذاً — ردع الهوى، هادياً والحق منهاجا
وأن تواسي ما أوتيت مقدرة — من مد كفاً إلى جدواك محتاجا
فهذه إن حوتها حجة كملت — وإن خلا الحج منها كان إخداجا[1]
حسب المرائين غبناً أنهم غرسوا — وماجنوا ولقوا كداً وإزعاجا
وأنهم حرموا أجرا ومحمدة — وألحموا عرضهم من عاب أوهاجى
أخي. فابغ بما تبديه من قرب — وجه المهيمن ولاّجا وخرّاجا
فليس تخفى على الرحمن خافية — إن أخلص البعد في الطاعات أوداجى

* * *

(قال الراوي) فلما ألقح عقم الأفهام، بسحر الكلام، استروحت ريح أبي زيد، وماد بي الارتياح إليه أي ميد، فمكثت حتى استوعب نث حكمته، وانحدر من أكمته، ثم دلفت إليه، لاتصفح صفحات محياه، واستشف جوهر حلاه، فإذا هو الضالة التي أنشدها، وناظم القلائد التي أنشدها، فعانقته عناق اللام للألف[2]، ونزلته منزلة البرء عند الدنف، وسألته أن يلازمني، فأبى، أو يزاملني فنبا، وقال: آليت في حجتي هذه أن لا احتقب[3] ولا أعتقب[4]، ولا أكتسب ولا أنتسب، ولا أرتفق ولا أرافق، ولا أوافق من ينافق. ثم ذهب يهرول، وغادرني أولول، فلم أزل أقريه نظري، وأود لو يمشي على ناظري[5]، حتى توقل[6] أحد الأطواد؛ ووقف للجميع بالمرصاد، فلما شاهد إيضاع الركبان، في الكثبان، وقع بالبنان[7] على البنان، واندفع ينشد:

---

(١) نقصان
(٢) مأخوذ من قول خالد بن بكر بن خارجة
(٣) أردف
(٤) أناوب
(٥) إنسان عيني
(٦) صعد
(٧) يريد اليد

لـيس مـن زار راكـبـاً مـثـل سـاع عـلى الـقـدم
لا ولا خـادم أطـا ع. كـعـاص مـن الخـدم
كـيـف يـا قـوم يـسـتـوي سـعـى بـانٍ ومـن هـدم

* * *

ثم إنـه أغمد عضب لسـانه، وانـطلق لشأنـه، فـما زلت في كـل مـورد نـرده ومعرس نتوسده، اتفقده فـأفقده، واستنجـد بمن ينشده فـلا يجده حتى خلت أن الجن اختطفته، أو الأرض اقتـطفته، فـما كابـدت في الغربـة كهذه الكـربة، ولا منيت في سفرة بمثلها من زفرة.

(جـ) وفي المقـامة المغـربية يـأتي بالعبـارات التي تقرأ طـرداً ورداً بمعنى أنه لا يغيرها عكس حروفها: وفيها يقول:

(وثبنا نحن إلى استثارة ملح الأدب وعيـونه، واستنبـاط معينه من عيـونه إلى أن جلنا فيها لا يستحيل بالانعكاس، كقولـك (ساكب كـاس)، فتداعينـا إلى أن نستنتج له الأفكار، ونفترع منه الأبكار، على أن ينظم البادي ثلاث جمانات في عقـده، ثم تتدرج الـزيادات من بعـده. فيـربـع ذو ميمنتـه في نـظمـه، ويسبـع صاحب ميسرته على رغمـه. . . (قال الـراوي): وكنا قـد انتظمنـا عدة أصـابع الكف، وتـآلفنا آلفـة أصحـاب الكهـف، فـابتـدر لعـظم محنتي صـاحب ميمنتي وقال: (لم أخاً مل) وقال ميامنه: (كبر رجاء أجـر ربك) وقـال الذي يليـه: (من يـرب[1] إذا بر ينم) وقـال الآخر: (سكت كل من نم لك تكسْ[2])، وأفضت النـوبة إليّ، وقـد تعين نـظم السمط السبـاعي عـلي، فلم يـزل فكـري يصـوغ ويكسر، ويثري ويعسر، وفي ضمن ذلك استـطعم فلا أجـد من يـطعم إلا أن ركـد النسيم، وحصحص التسليم، فقلت لأصحابي: لـو حضر السروجي هـذا المقام لشفي الداء العقـام، فقالـوا: لو نـزلت هذه بـإياس لأمسـك على يـاس،

---

(١) يرب الصنيعة أي يصونها
(٢) تكن كيسا.

وجعلنا نفيض في استصعابها، واستغلاق بابها. وذلك الزور المعتري يلحظنا لحظ المزدري، ويؤلف الدرر «ونحن لا ندري، فلما عثر على افتضاحنا، ونضوب ضحضاحنا، قال: يا قوم. إن من العناء العظيم استيلاد العقيم، والاستشفاء بالسقيم، وفوق كل ذي علم عليم، ثم أقبل علي وقال: سأنوب منابك، وأكفيك ما نابك، فإن شئت أن تنثر ولا تعثر فقل مخاطباً لمن ذم البخل، وأكثر العذل (لُذْ بكل مؤمل إذا لم وملك بذل) وإن أحببت أن تنظم فقل للذي تعظّم.

أس[1] أرملا إذا عرا	وارع إذا المرء أسا
أسند أخا نباهه	ابن إخاء دنسا
أسل[2] جناب غاشم	مشاغب إن جلسا
أسرُ[3] إذا هب مِراً	وارم به إذا رسا
اسكن تقو فعسى	يسعف وقت نكسا

قال: فلما سحرنا بآياته، وحسرنا ببعد غاياته، مدحناه حتى استعفى[4] ومنحناه إلى أن استكفى...)

(د) وفي المقامة القهرية عبارات تقرأ من أولها بوجه، ومن آخرها بوجه استمع إليه يقول:

(... أتعرفون رسالة أرضها سماؤها، وصحبها مساؤها، نسجت على منوالين وتجلت في لونين، وصلت إلى جهتين، وبدت ذات وجهين، إن بزغت من مشرقها فناهيك برونقها، وإن طلعت من مغربها، فيا لعجبها قال: فكأن القوم رموا بالصمات، أو حقت عليهم كلمة الإنصات، فما نبس منهم إنسان، ولا فاه لأحدهم لسان، فحين رآهم بكما كالأنعام، وصموتا كالأصنام، قال

---

(١) اعط
(٢) اترك
(٣) كن سرياً
(٤) سألنا ان نكف

لهم: قد أجلتكم أجل العدة، وأرخيت لكم طول المدة. ثم ههنا مجمع الشمل، وموقف الفصل، فإن سمحت خواطركم مدحنا، وإن صلدت زنادكم قدحنا، فقالوا له: والله ما لنا في لجة هذا البحر مسبح، ولا في ساحله مسرح، فأرح أفكارنا من الكد، وهنىء العطية بالنقد واتخذنا إخوانا يثبون إذا وثبت، ويثيبون متى استثبت، فأطرق ساعة ثم قال: سمعاً لكم وطاعة، فاستملوا مني، وانقلوا عني: [الإنسان صنيعة الإحسان، ورب الجميل فعل الندب، وشيمة الحر ذخيرة الحمد، وكسب الشكر استثمار السعادة، وعنوان الكرم تباشير البشر، واستعمال المداراة، يوجب المصافاة وعقد المحبة يقتضي النصح، وصدق الحديث حلية اللسان، وفصاحة المنطق سحر الألباب، وشرك الهوى آفة النفوس وملل الخلائق شين الخلائق، وسوء الطمع يباين الورع... إلى أن يقول ورأس الرياسة تهذيب السياسة، ومع اللجاجة تلغى الحاجة، وعند الأوجال تتفاضل الرجال، وبتفاضل الهمم تتفاوت القيم... ثم قال: هذه مائتا لفظة تحتوي على أدب وعظة، فمن ساقها هذا المساق؛ فلا مراء ولا شقاق، ومن رام عكس قالبها وأن يردها على عقبها، فليقل: الأسرار عند الأحرار، وجوهر الوفاء؛ ينافي الجفاء، وقبح السمعة ينشر الشفعة، ثم على هذا المسحب فليسحبها ولا يرهبها، حتى تكون خاتمة فقرها، وآخرة دررها [ورب الإحسان صنيعة الإنسان][1].

قال الرازي: فلما صدع برسالته الفريدة، وأملوحته المفيدة علمنا كيف يتفاضل الانشاء، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، ثم اعتلق كل منا بذيله، وفلذ له فلذة من نيله، فأبى قبول فلذتي، وقال: لست أرزأ تلامذتي فقلت له: كن أبا زيد، على شحوب سحنتك ونضوب ماء وجنتك، فقال: أنا هو على نحولي وفحولي، فأخذت في تثريبه على تشريقه وتغريبه فحولق واسترجع، ثم أنشد من قلب موجع:

سلّ الزمانُ على عضبه ليروعني، وأحدّ غربه

(١) هذه العبارة عكس العبارة الأولى من الحديث (الإنسان صنيعة الإحسان، ورب...)

واستل من جفني كرا ه مراغماً، وأسال غربه
وأجالني في الأفق أطوى شرقه، وأجوب غربه
فبكل جو طلعة في كل يوم لي وغربة

ثم ولى يجر عطفيه، ويخطر بيديه ونحن بين متلفت إليه أو متهافت عليه، ثم لم نلبث أن حللنا الحبا، وتفرقنا أيادي سبا.

(هـ، و) وفي مقامتيه المراغية والرقطاء أخذ يلغز بلون جديد، تضمنت الأولى رسالة إحدى كلماتها معجمة، والأخرى مهملة، وتضمنت الثانية رسالة راوح فيها بين الاعجام والاهمال حرفاً حرفاً.

وهكذا تجد في بعض رسائله ضروباً مختلفة من التعقيدات التي تخاطب في الانسان عقله وتثير عاطفته، ومن ثم كانت هذه الألغاز تئود المعنى، وتثقل الأسلوب.

وثمة ظاهرة شكلية واضحة في مقامات الحريري... ألا تراه لا يكتفي بترصيعها بالشعر، حتى يحرص على تلخيصها بأبيات تحمل سر المقامة؟ فالمقامة المغربية السالفة التي تضمنت عبارات تقرأ طرداً ورداً ضمنها كذلك خمسة أبيات تحمل هذه الظاهرة، مما يدل على طول باعه في الصناعتين.

البطل والراوية:

أنشأ الحريري مقاماته تلك، في الفترة ما بين سنة ٤٩٥، سنة ٥٠٤ هـ على أثر تخريب الصليبيين لمدينة «سروج» وتشريد أهلها، وان من بينهم أبو زيد السروجي الذي قصد البصرة مستجدياً، والتقى بالحريري في مسجد بني حرام.

وكان من أمره معه ما أخبرنا به الحريري نفسه بقوله: (أبو زيد السروجي كان شيخاً شحاذاً بليغاً ومكدياً فصيحاً، ورد علينا البصرة، فوقف يوماً في مسجد بني حرام، فسلم، ثم سأل الناس، وكان بعض الولاة حاضراً، والمسجد غاص بالفضلاء، فأعجبتهم فصاحته وحسن صياغة كلامه وملاحته

وذكر أسر الروم ولده، كما ذكرنا في المقامة الحرامية، وهي الثامنة والأربعون قال: واجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من فضلاء البصرة وعلمائها فحكيت لهم ما شاهدت من ذلك السائل، وسمعت من لطافة عبارته في تحصيل ملذاته، وظرافة إشارته في تسهيل إيراده، فحكى كل واحد من جلسائه أنه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت، وأنه سمع منه في معنى آخر فصلا أحسن مما سمعت، وكان يُغيّر في كل مسجد زيه وشكله، ويظهر في فنون الحيلة فضله، فتعجبوا من جريانه في ميدانه، وتصرفه في تلونه وإحسانه، فأنشأت المقامة الحرامية، ثم بنيت عليها سائر المقامات، وكانت أول شيء صنعته)[1].

ومن هذه الرواية يتضح لنا أيضاً أن بطل مقاماته ـ أبا زيد السروجي ـ شخصيةٌ حقيقةٌ، وليست خيالية كما ذهب المستشرقون، فهي عند بروكلمان[2] موضع شك، وعند مرجليوت[3] خرافة؛ أما برستون[4] فيقول في أبي زيد؛ (وإنه نموذج أدبي يمثل ذوق الوسط الأدبي في ذلك العصر).

أما رواية المقامات فمعزوة الى (الحارث بن همام) وهو عند الرواة شخصية خيالية؛ ليس يبعد أن يكون الحريري قد عني بها نفسه كما يقول ابن خلكان[5].

الناحية الاجتماعية في المقامات:

سجل الحريري ـ في مقاماته ـ ظاهرة اجتماعية واضحة؛ تلك هي ظاهرة (التسول) التي تفشت في عصره؛ وأصبحت حرفة عن مبدأ ونظرة فلسفية، فإن أصحابها؛ وقد تجهمت لهم الحياة، وتنكر لهم المجتمع؛ وطردهم من

---

(١) معجم الأدباء ٢٦٣/١٦

(٢) دائرة المعارف الإسلامية [Makamat]

(٣) دائرة المعارف الإسلامية [Hariri]

(٤) (Preston: Makamat al Hariri London 1850)

(٥) وفيات الأعيان جـ ٥٩٨/١

ميـادينه الجـادة، وهم أهل لهـا ـ لم يجدوا بـداً من احتـرافهـا تحيـلاً عـلى كسب الـرزق، فإذا كـان ثم عتاب أو مـلامة ألقـوا التبعة عـلى مجتمعهم الفـاسـد، أو دهـرهم الغاشم؛ وحـريّ بهم أن يسايـروا الأيـام وأن يـدوروا مـع الليـالي كـما تـدور؛ وبمثـل هـذه النـظرة فلسفـوا حيـاتهم؛ حتى بلغ بهم الأمـر أن كـانـوا يفاخرون بهذه الحرفة[1].

هذه الظاهرة قد صـورها من قبـل شعراء الكـدية المعـروفون (بـالساسـانيين) وأظهـرهم أبو دلف الخـزرجي الذي أخـذ عنـه البـديـع بعض أشعـاره، وأقـام عليها مقاماته. . فلما جاء الحريري يحذو حـذو البديـع سار عـلى الدرب، ونـظم نفسه في نفس القافية. . . استمع إلى أبي دلف يقول:

ويحـك هـذا الـزمـان زرر فـلا يـغـرنـك الـغـرور
لا تـلتـزم حـالـة؛ ولـكـن در بـالـليـالي كـما تـدور

كما يقول:

تـعـريت كـغـصـن البـا ن بين الـورق والخضر
وشـاهـدت أعـاجـيـبـا وألـوانـا مـن الـدهـر
فـطابـت بـالـنـوى نـفسي عـلى الإمـسـاك والـفـطر
عـلى أني مـن الـقـوم الـ بـهـالـيـل بـني الـغـر
فـظل الـبـين يـرمـيـنـا نـوى، بـطنـا الى ظـهـر
كـما قـد تـفـعـل الـريـح بـكـثـب الـرمـل في الـبـر
وقـد يـكـتـسـب الخـبـز بمـكـروه مـن الـدهـر
ألا إني حـلـبـت الـدهـ ـر، مـن شـطر الى شـطر
ولـلـغـربـة في الحـر فـعـال النـار في الـتـبـر
ومـا عـيش الـفـتى الا كـحـال المـد والجـزر
فـبـعض مـنـه لـلخـير وبـعض مـنـه لـلشر
فـإن لمـت عـلى الـغـربـ ـة مثـلي فـاسمعن عـذري

(١) النماذج الانسانية في الأدب المقارن/٢٤

أما البديع فقد نقل البيتين الأولين في احدى مقاماته، ثم أنطق أبا الفتح الاسكندري بمثل القصيدة هذه، فقال:

أما تروني أتعشى طمرا ... ممتطيا في الضر أمرا مرا
مضطبنا على الليالي غمرا ... ملاقيا منها صروفا حمرا
أقصى أمانيّ طلوع الشعرى[1] ... فقد عنينا بالليالي دهرا
وكان هذا الحر أغلى قدرا ... وماء هذا الوجه أغلى سعرا
فانقلب الدهر لبطني ظهرا ... وعاد عرف العيش عندي نكرا
لم يبق من وفرى إلا ذكرى ... ثم إلى اليوم هلم جرا

وبمثل هذا أيضاً أنطق الحريري بطل مقاماته أبا زيد السروجي، فقال:

يا ليت شعر ادهري ... أحاط علماً بقدري؟
كم قد قمرت بنيه ... بحيلتي وبمكري
وكم برزت بعرف ... عليهم وبنكر
اصطاد قوما بوعظ ... وآخرين بشعر
وأستفز بخَل ... عقلا، وغقلا بخمر
وتارة أنا صخر ... وتارة أخت صخر
ولو سلكت سبيلا ... مألوفة طول عمري
لخاب قَدحي وقِدحي ... ودام عسري وخسري
فقل لمن لام: هذا ... عذري، فدونك عذري

ومن خلال هذه الأشعار نرى صورة مطابقة لواقع المجتمع، ممزوجة بألوان البؤس، والتشرد، والبعد والحرمان، كما أنها أيضاً ممزوجة بألوان الحقد والنقد والسخرية . . .

---

(١) يظهر نجم الشعرى صيفاً، والفقير يتطلع إليه دائماً ليخلصه من برد الشتاء الذي يشتد كلبه على الجائع الطاوي.

أثر مقاماته في الآداب الأجنبية:

* تأثر الأدب الفارسي بالمقامات العربية، وبخاصة مقامات الحريري، فالمؤرخون يشيرون إلى أن المقامات الفارسية لم تزدهر إلا في أخريات القرن السادس، وعلى يد القاضي حميد الدين البلخي، كما يشيرون إلى أنه كان يحذو حذوه، ولم يخالفه إلا في بعض النواحي الشكلية.

* وقصص «الشطار» الأسبانية كانت صدى للمقامات العربية من حيث إنها تصف حياة البؤس والتشرد ـ أما بطلها فيسمى «بيكارون Picaroon» وكانت مقامات الحريري موضع إعجاب الكتاب الأسبانيين، عبريين ومسيحيين وكانت «طليطلة» ملتقى الثقافات العربية والأسبانية وعن طريق أسبانيا انتقلت فكرة المقامات إلى أوروبا، مما أدى إلى موت قصص الرعاة.

* ترجمت مقامات الحريري إلى اللغة العبرية ترجمها الخريزي في أوائل القرن السابع الهجري، ونسج على منوالها «سالومون بن زقبيل» ويرجع الفضل في ذلك إلى كتاب العرب في أسبانيا أولئك الذين اقتدوا بالبديع والحريري في مقاماتهما، فأراد العبرانيون أن يثبتوا أن لغتهم ليست أقل من العربية تعبيراً وتصويراً وموسيقى.

وعن طريق اللغة العبرية كانت الثقافة العربية تدلف إلى أوروبا، ويتردد صداها بين الممالك.

هذه هي مقامات الحريري التي أقبل عليها الشرقيون والمستشرقون فترجمت إلى الفارسية والتركية والإيطالية والفرنسية والألمانية والإنجليزية ولا يزال لها شأن يذكر في الدراسات الشرقية بجامعات أوروبا حتى اليوم وأشهر من عرفنا من شراحها عقيل بن عطية ثم أبو العباس الشريشي.

أسلوب الحريري:

نشأ الحريري في عصر التكلف البديعي، ومن ثم كان يصطنع في أسلوبه ما يوائم أذواق العصر، فهو لا يكتفي ـ في سجعه ـ باتفاق حرف الروي

فقط، بل كان يلتزم حرفين أو أكثر في أغلب مقاماته ورسائله كما رأينا في النماذج السابقة. . . . وإذا استثنينا ما قصد فيه إلى التعقيد، والألغاز بمصطلحات النحو أو الفقه، أو بالمراوحة بين الإعجام والإهمال: كلمة كلمة أو حرفاً حرفاً أو غيرها من ألوان التعقيدات التي أشرنا اليها. . . إذا استثنينا كل هذا، نراه بارعاً في فنه، قادراً على إحكام صنعه، خضعت له الألفاظ، واستسلمت له المعاني، تمده في ذلك قريحة ملهمة، وذخيرة لغوية لا تنفد، ومن ثم كان يختار لسجعه من الألفاظ أقواها جرساً، وأقربها ألفة، كذلك كان في تجنيسه الذي أغرم به، وافتن فيه إلى أبعد حد حتى أذهل أدباء العصر، وفي بلاغته تلك يقول العماد: (وشي بلاغة الحريري ذهبي الطراز، سحباني الإعجاز، قسي الإسهاب والإيجاز).

على أن هذه الذخيرة اللغوية التي مكنته أن يضع الكلمة في مكانها، ويشد اللفظة بأختها، مكنته أيضاً أن يتلاعب في شعره بالألفاظ، فتارة ينشئه ليقرأ طرداً ورداً، كما رأينا، وتارة ينظمه على قافيتين: خارجية وداخلية، تقوم إحداهما مقام الأخرى. . . استمع إليه يقول:

يا خاطب الدنيا الدنية إنها	شرك الردى [وقرارة الأكدار]
دارمتى ما أضحكت في يومها	أبكت غداً [بعداً لها من دار]
غاراتها ما تنقضي وأسيرها	لا يُفتدَى [بجلائل الأخطار]

أليس في الأبيات قافية داخلية؟، فلو قرئت مجزوءة لصارت:

يا خاطب الدنيا الدنيـ	ـية إنها شرك الردى
دار متى ما أضحكت	في يومها أبكت غدا
غاراتها ما تنقضي	وأسيرها لا يفتدى

ومن ذلك نعلم أن الأسلوب كان غايته، وفيه تجلت براعته الفنية.

* * *

ترى. . . أين أسلوبه من أسلوب «البديع»؟

اختلفت كلمة النقاد في ذلك. فمن قائل بتفضيله ومن قائل بتفضيل البديع، والواقع أن الفصل في ذلك ليس بالأمر الهين؛ فكلاهما كان فارس حلبة، وصاحب فكرة، ومفترع طريقة، وأعدل القول عندي ما ذهب إليه المقدسي بقوله: «وإذا قابلنا مقامات البديع بمقامات الحريري. وجدنا أن الأولى أسهل مأخذاً، وأقل تكلفاً، وأكثر ابتكاراً للحوادث. أما الثانية فأدق صنعة، وأفضل شعراً، وأكثر نفعاً في اللغة وأوضاعها وأمثالها وحوادث رجالها[1]. ولعل في هذا القول ـ على إيجازه ـ فصل الخطاب.

---

(١) تطور الاساليب النثرية

المراجع

(أ)

١ ـ ابن العميد: الأستاذ خليل مردم، دمشق ١٣٥٠.

٢ ـ ابن المقفع: د. عبد اللطيف حمزة، الاعتماد ١٩٣٧.

٣ ـ الإتقان: السيوطي، مطبعة عبد الرازق ١٣٠٦.

٤ ـ اختيار المنظوم والمنثور: ابن طيفور، الطبعة الأولى.

٥ ـ أدب الجاحظ: السندوبي، الرحمانية ١٣٩١.

٦ ـ أدب الكاتب: أبو بكر الصولي، السلفية ١٣٤١.

٧ ـ الأدب المقارن: الدكتور غنيمي هلال، المطبعة العالمية.

٨ ـ أسرار البلاغة: عبد القاهر الجرجاني: المنار ١٩٤٧.

٩ ـ الأسلوب: الأستاذ أحمد الشايب، الفاروقية.

١٠ ـ أصل الخط العربي: الدكتور خليل نامي، الطبعة الأولى.

١١ ـ أصول النقد الأدبي: الأستاذ الشايب، الطبعة الثالثة بالاعتماد.

١٢ ـ إعجاز القرآن: الباقلاني، السلفية ١٣٤٩.

١٣ ـ إعجاز القرآن: الرافعي، الاستقامة ١٩٥٢.

١٤ ـ الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني، دار الكتب.

١٥ ـ الأمالي: أبو علي القالي، دار الكتب.

١٦ ـ أمالي المرتضى: السيد المرتضى، السعادة.

١٧ ـ الإمامة والسياسة: ابن قتيبة، الطبعة الأولى.

١٨ ـ أمراء البيان: محمد كرد علي، لجنة التأليف ١٣٥٥.

١٩ ـ الأوراق: أبو بكر الصولي، الصاوي ١٩٣٤.

٢٠ ـ الإيضاح: الخطيب القزويني: القاهرة ١٩٥٠.

(ب)

٢١ ـ بغية الوعاة: السيوطي، السعادة.
٢٢ ـ البرامكة في ظلال الخلفاء: الأستاذ محمد برانق، المعارف.
٢٣ ـ البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق، هرون والسندوبي.

(ت، ث)

٢٤ ـ تاريخ آداب اللغة: جرجي زيدان، الهلال.
٢٥ ـ تاريخ الأدب العربي: الأستاذ السباعي بيومي، البيان العربي ١٣٧٣.
٢٦ ـ تاريخ الأمم والملوك: ابن جرير الطبري، الاستقامة ١٩٢٩.
٢٧ ـ تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، السعادة ١٩٣١.
٢٨ ـ تاريخ بغداد: طيفور، ليبسك ١٩٠٨.
٢٩ ـ تاريخ النقد الأدبي: الدكتور الحاجري، الاسكندرية (رويال).
٣٠ ـ تجارب الأمم: ابن مسكويه، ليدن ١٩١٧.
٣١ ـ تطور الأساليب النثرية: الأستاذ أنيس المقدسي، سركيس ببيروت ١٩٣٥.
٣٢ ـ تهذيب التاريخ الكبير: ابن عساكر، روضة الشام ١٣٢٩.
٣٣ ـ التوجيه الأدبي: طه حسين وزملاؤه، الأميرية.
٣٤ ـ ثمار القلوب: الثعالبي، القاهرة ١٣٢٦.

(ج، ح، خ)

٣٥ ـ جمهرة رسائل العرب: جمع الأستاذ صفوت، الحلبي ١٩٣٧.
٣٦ ـ حدائق السحر: الوطواط، مصر ١٩٤٥.
٣٧ ـ الحسن البصري: ابن الجوزي، الطبعة الأولى.
٣٨ ـ حسن التوسل: محمود الحلبي ـ ط الوهبية بمصر ١٢٩٨
٣٩ ـ الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: الدكتور أحمد بدوي، نهضة مصر.
٤٠ ـ الحيوان: الجاحظ (تحقيق هرون): دار إحياء الكتب العربية.
٤١ ـ خريدة القصر: العماد الأصفهاني، مصور بدار الكتب رقم ٤٢٥٥.
٤٢ ـ خزانة الأدب: أبو بكر الحموي، الأميرية ببولاق.

(د، ذ)

٤٣ ـ دفاع عن البلاغة: الأستاذ أحمد حسن الزيات، ط الرسالة ١٩٤٥.

٤٤ ـ دلائل الاعجاز: عبد القاهر الجرجاني، المنار ١٣٦٧.
٤٥ ـ ديوان حافظ: الأميرية.
٤٦ ـ ذيل الأمالي: أبو علي القالي، دار الكتب.

(ر ، ز)

٤٧ ـ رسائل أبي العلاء: الطبعة الأولى.
٤٨ ـ رسائل البديع: بديع الزمان الهمذاني، مطبعة هندية ١٩٢٨.
٤٩ ـ رسائل البلغاء: جمع الأستاذ محمد كرد علي، لجنة التأليف.
٥٠ ـ رسائل الجاحظ: تحقيق السندوبي، الرحمانية ١٩٢٣.
٥١ ـ رسائل الحصكفي، مخطوط بدار الكتب رقم ٥٢٦ أدب.
٥٢ ـ رسائل الخوارزمي: الخوارزمي، الطبعة الأولى.
٥٣ رسائل الصابي: الصابي، الطبعة الأولى.
٥٤ ـ رسائل الصاحب ابن عباد: تحقيق الدكتورين عزام وضيف.
٥٥ ـ رسالة الغفران: أبو العلاء، تحقيق كامل كيلاني، المعارف، وهندية.
٥٦ ـ الروائع: أفرام البستاني، الكاثوليكية.
٥٧ ـ زهر الآداب: الحصري، الرحمانية.

(س)

٥٨ ـ سرح العيون: ابن نباته، الموسوعات ١٣٢١.
٥٩ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز: ابن الجوزي، الطبعة الأولى.

(ش)

٦٠ ـ شرح نهج البلاغة: ابن أبي الحديد، القاهرة ١٣٢٩.
٦١ ـ الشعر والشعراء: ابن قتيبة، تحقيق الأستاذ أحمد شاكر، الحلبي ١٣٦٦.
٦٢ ـ شوقي وحافظ: طه حسين، المعارف.

(ص)

٦٣ ـ صبح الأعشى: القلقشندي، الأميرية ١٩١٣.
٦٤ ـ الصراع بين العرب والموالي: الدكتور بديع شريف، الطبعة الأولى.
٦٥ ـ الصناعتين: أبو هلال العسكري، الخانجي.

٦٦ ـ صور البديع : الأستاذ علي الجندي ، الاعتماد ١٩٥١ .
٦٧ ـ ضحى الاسلام : الأستاذ أحمد أمين ، لجنة التأليف ١٣٧١ .

(ع)

٦٨ ـ العقد الفريد : ابن عبد ربه ، لجنة التأليف .
٦٩ ـ العمدة : ابن رشيق ، السعادة .
٧٠ ـ عيون الأخبار : ابن قتيبة ، دار الكتب .
٧١ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن أبي أصيبعة : الوهبية ١٨٨٢ ، القاهرة .
٧٢ ـ عروس الأفراح : بهاء الدين بن السبكي ، الطبعة الأولى .

(ف)

٧٣ ـ فتوح البلدان : البلاذري ، القاهرة ١٣١٨ .
٧٤ ـ فتوح الشام : الواقدي ، القاهرة ١٣٠٢ .
٧٥ ـ فجر الاسلام : أحمد أمين ، الاعتماد ١٩٢٨ .
٧٦ ـ الفصول والغايات : أبو العلاء المعري ، ط الرسالة .
٧٧ ـ فقه اللغة : الثعالبي ، الحلبي .
٧٨ ـ فن القول : الأستاذ أمين الخولي ، دار الفكر ١٩٤٧ .
٧٩ ـ الفن ومذاهبه في النثر : الدكتور شوقي ضيف ، لجنة التأليف ١٩٤٦ .
٨٠ ـ الفهرست : ابن النديم ، الرحمانية .
٨١ ـ في الأدب الجاهلي : الدكتور طه حسين ، الاعتماد ١٩٢٧ .
٨٢ ـ في المرآة : الشيخ عبد العزيز البشري ، دار الكتب ١٩٢٧ .

(ك)

٨٣ ـ الكامل في التاريخ : ابن الأثير ، بولاق ١٣٧٤ .
٨٤ ـ الكامل في اللغة والأدب : المبرد ، مصطفى محمد ١٣٥٥ .
٨٥ ـ كليلة ودمنة : ترجمة ابن المقفع ، الأميرية ١٩٣٩ .
٨٦ ـ المثل السائر : ابن الأثير ، البهية .
٨٧ ـ مجمع الأمثال : الميداني ، البهية ، والخيرية .
٨٨ ـ محاضرات الأدباء : الراغب الأصفهاني ، المويلحي .
٨٩ ـ مرآة الزمان : ابن الجوزي ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢١٨١ تاريخ .

٩٠ ـ مروج الذهب: المسعودي، البهية ١٣٤٦.
٩١ ـ مسالك الأبصار: ابن فضل الله العمري، مصور بدار الكتب رقم ٢٥٦٨ تاريخ.
٩٢ ـ مسائل فلسفة الفن المعاصر: ترجمة الدروبي، الطبعة الأولى.
٩٣ ـ المستصفى: الغزالي، القاهرة ١٩٣٧.
٩٤ ـ معاهد التنصيص: عبد الرحيم العباسي، الخيرية، دار الطباعة.
٩٥ ـ معجم الأدباء: ياقوت الحموي، دار المأمون.
٩٦ ـ مفتاح الأفكار: للشيخ أحمد مفتاح، الطبعة الأولى.
٩٧ ـ المفضليات: الضبي، المعارف ١٩٤٢.
٩٨ ـ المقابسات: أبو حيان، الرحمانية.
٩٩ ـ مقامات البديع: تحقيق محيي الدين عبد الحميد، المعاهد ١٩٢٣.
١٠٠ ـ مقامات الحريري: الحريري، مصطفى الحلبي ١٩٣٦.
١٠١ ـ المقامة: الدكتور شوقي ضيف، المعارف.
١٠٢ ـ مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون، عبد الرحمن محمد.
١٠٣ ـ المنتخب من أدب العرب: اختيار طه حسين وزملائه، دار الكتب ١٩٣٢.
١٠٤ من حديث الشعر والنثر: الدكتور طه حسين، دار المعارف ١٩٣٦.
١٠٥ ـ من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده: الأستاذ محمد خلف الله، لجنة التأليف ١٩٤٧.
١٠٦ ـ مواهب الفتاح: المغربي، الطبعة الأولى.
١٠٧ ـ المواهب الفتحية: الشيخ حمزة فتح الله، الأميرية ١٩٠٨.
١٠٨ ـ منتهى الطلب: ابن المبارك، مخطوط بدار الكتب رقم ٥٣ ش أدب.

(ن)

١٠٩ ـ النثر الفني: الدكتور زكي مبارك، دار الكتب.
١١٠ ـ نزهة الألبا في طبقات الأدبا: ابن الأنباري، طبع حجر.
١١١ ـ نقد الشعر: قدامة بن جعفر، الجوائب بالقسطنطينية.
١١٢ ـ نقد النثر: المنسوب لقدامة بن جعفر، مصر ١٩٣٩
١١٣ ـ النماذج الإنسانية: الدكتور محمد غنيمي هلال، ط معهد الدراسات المطبعة العالية.

١١٤ ـ نهاية الأرب: النويري، دار الكتب ١٩٣٥ .
١١٥ ـ النور السافر: العيدروسي، طبعة بغداد.
١١٦ ـ نهاية الايجاز: ابن عمر الرازي، مصر ١٣٢٧ .

(و)

١١٧ ـ الـوزراء والكتـاب: الجهشيـاري، تحقيق الأستـاذ السقـا وزميليه ، الحلبي .
١١٨ ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه: الجرجاني، الحلبي ١٣٧٠ .
١١٩ ـ الوشي المرقوم: نصر الله بن الأثير، ثمرات الفنون ١٢٩٨ .
١٢٠ ـ وفيات الأعيان: ابن خلكان، الميمنة .وبيروت (دار الثقافة).

(ي)

١٢١ ـ يتيمة الدهر: الثعالبي، الصاوي ١٩٤٣ .

المـــراجـع الأجنـبيـــة

Burt: How the mind Works (١٢٢)

Jung, Modern man in search of soul (١٢٣)

Macmurry, some makers of the modern spirit (١٢٤)

Nicholson, litt-Hist of the arbs 1930 (١٢٥)

Preston: Makamat al Hariri xLL (London) (١٢٦)

Jornal Asiatique Tome, V, 1838 (١٢٧)

فهرس

الباب الثالث:

رقم التصنيف ٤١٤٠٢ / ح م ٧